



أفكار خاتمة الفقه

عبد الرحمن أبو ذكري

افكار خارج القفص

هذا الكتاب ليس للمتعة الذهنية المجردة، وليس الغرض منه نيل رضا القارئ وموافقته وتصفيقه واستحسانه؛ بل الغرض منه تعليمه التفكير، ومساعدته على تكوين ملكة للنظر والنقد والحكم. كل ذلك بطريقة غير مباشرة. فحين يُعَين القارئ المتفحص منهج النظر ذاته وهو يفكك الفكر السياسي ثم يُقرأ به الأدب ثم تناقش به بعض مسائل العقيدة والفلسفة ثم يتشكل به دعاء يستلهم سير الأنبياء؛ فإنه سيدرك -ولو بشكل غير واع- وحدة المعارف الإنسانية، ومن ثم أهمية وحدة منهج النظر والرؤية الكونية الحاكمة والمهيمنة على التناول. وسيدرك أيضاً أن الفصل المصطنع بين العلوم والمعارف الإنسانية مجرد فصل مدرسي إجرائي لا قيمة له، ولا يتم تكريسه إلا لتوثيق حقل من المعارف أو الافتراضات التي بُنيت عليها بعض النظريات "العلمية".

عبد الرحمن أبو ذكري

أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلد بالقاهرة، وتخرج في كلية الآداب بجامعة. نشر عدة مقالات وأوراقاً بحثية في موضوعات متنوعة؛ تصب جميعاً في استعادة مركزية الوعي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مهتم بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتداداً لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشنها سيد قطب، ورسخها علي عزت بيغوفيتش، وأثرها عبد الوهاب المسيري. له عدة كتب وترجمات في طريقها للطبع، منها: «طير بلا أجنحة»، و«في أصول التصور الإسلامي».

ISBN 978-977-5015-09-9



9 789775 015099 >

لوحة الغلاف للمصمم الأمريكي:

فيليب وبستر

الخطوط للفنان المصري:

عبد الغني شعير

ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هايو بوليس غرب - القاهرة - مصر
f dartinweereg

www.dartinweer.com



أفكار خارج القفص

عبد الرحمن أبو ذكري

أفكار خارج القفص

بَنَوْر
للنشر والإعلام

الطبعة الأولى

٢٠١٤م/٤٣٦هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٩٤٩/٢٠١٤

ISBN 978-977-5015-09-9



9 789775 015099 >

لوحة الغلاف للمصمم الأمريكي:

فيليب وبستر

الخطوط للفنان المصري:

عبد الغني شعير

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

لَا يَجُوزُ طَبْعُ، أَوْ نَسْخُ، أَوْ تَرْجَمَةُ أَيْ جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، أَوْ خَزْنُهُ بِوَاسِطَةِ أَيْ نِظَامٍ لِحَزْنِ الْمَعْلُومَاتِ إِلَّا بِإِذْنِ كِتَابَتِي مِنَ النَّاشِرِ.

الْأَرَاءُ الْوَارِدَةُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لَا تُعَبِّرُ بِالصُّرُورَةِ عَنْ وَجْهَةِ نَظَرِ النَّاشِرِ.

دَارْتانوير

للنشر والإعلام

ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١

هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر

البريد الإلكتروني: info@dartanweer.com



dartanweereg

www.dartanweer.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"وَمِنْ أَحْسَنِ قَوْلٍ مِّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمَلٍ صَالِحٍ وَقَالَ إِنِّي مِّنَ الْمُسْلِمِينَ"

صَلَّى اللَّهُ الْعَظِيمِ

(فصلت : ٣٢)

الإهداء

إلى أيام الشدة والإدبار قبل أيام الرخاء والإقبال؛

إلى أيام ألم وعناء عشتها وسأعيشها وحيداً، كما ولدت وحيداً وسأمت وحيداً؛

إلى أيامي ... إلى تاريخي، وما سيصير تاريخي؛

إلى أثقال الوعي التاريخي المبرح.

قد أحببت هذه الحياة التي وهبتني يا رب؛

وأحببت هذا التاريخ باختلاط الطبك فيه بالنابل؛

أحببته بكل الألم الذي عانيته في تفتق الوعي وفي مكابדתه، وفي إنهاك الحركة داخل التاريخ.

أحببته لأنه مشيئتك التي ارتضيت؛ لأعرج لك بها ... سبحانه.

أحببته وإن تآقت نفسي لسكون لم تأذن لي به.

سبحانك ما عبدتك حقَّ عبادتك؛ فهبني الرضا بك وعنك، وانظر إليّ بعين اللطف والعفو.

إهداء خاص جداً

إلى التي هداني الله بها لخير ما جبله في نفسي؛
إليك يا هُدى روحي ووجعها.

خطبة الكتاب *

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، نحمده على عظيم نعمائه، وجميل بلائه، ونستكفيه نوائب الزمان، ونوازل الحداث، ونرغب إليه في التوفيق والعصمة، ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله يقيناً يملأ الصدر، ويعمر القلب، ويستولي على النفس، حتى يكفها إذا نَزَّغَتْ، ويردها إذا تطلعت، وثقة بأنه عز وجل الوَزَرُ، والكالئُ والراعي والحافظُ، وأن الخيرَ والشرَّ بيده، وأن النعم كلها من عنده، وأن لا سلطان لأحد مع سلطانه، نوجّه رغباتنا إليه، ونُخلِص نياتنا في التوكل عليه، وأن يجعلنا من همّه الصدق، وبُغيته الحق، وغرضه الصواب، وما تُصحّحه العقول وتقبله الأبواب، ونعوذ به من أن ندعي العلم بشيء لا نعلمه، وأن تُسدي قولاً لا نلجمه، وأن نكون ممن يغرّه الكاذب من الثناء، وينخدع للمتجوز في الإطراء، وأن يكون سبيلنا سبيل من يُعجبه أن يُجادل بالباطل، ويُموّه على السامع، ولا يُبالي إذا رآج عنه القول أن يكون قد خلط فيه، ولم يُسدّد في معانيه، ونستأنف الرغبة إليه عز وجل في الصلاة على خير خلقه، والمصطفى من بريته، محمد سيّد المرسلين، وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين، وعلى آله الأخيار من بعدهم أجمعين.

(*) خطبة كتاب «دلائل الإعجاز»، للإمام العلامة عبدالقاهر الجرجاني.

مدخل

لم أتردد طويلاً في نشر هذا الكتاب، برغم قلبه وشكله غير المألوفين، وبرغم أنني حين شرعت في ملء الشذور والقصاصات التي تكوّن منها، لم أكن أفعل ذلك بنية جمعها ونشرها كما هي؛ بل كنت أدوّن تأملاتي، والأفكار التي تطرأ لي، وملخصات تعليقاتي على بعض الكتب والشخصيات، وملاحظاتٍ على أهم القضايا اليومية، وذلك حتى لا أنساها؛ ولأعيد استخدامها فيما أكتب.

لذا، فهذا الكتاب ليس أول ما كتبت، وإن كان أول ما يُنشر باسمي بين دفتين اثنتين. ورُبّما لكلّ هذا لا يُمكن تحديد تاريخ كتابة هذا الكتاب ولا حتى بعضه على وجه القطع، فقد كتبت بعضه على هاتفي الجوال، وبعضه على الحاسوب، وبعضه الآخر على قصاصاتٍ متناثرة، وبعضه على صفحتي على الفيسبوك، وبعضه في كراساتٍ خصصتها لهذا الغرض. لكن يمكن القول أن هذا الكتاب بعض عُصارة عشرة أعوام (٢٠٠٣-٢٠١٣م) على وجه التقريب.

وهو بعض العُصارة لأنني لم أنشر كل الأفكار والملاحظات التي تمخّضت عنها السنوات العشر، ولا ربعها ولا حتى عُشرها، برغم أنني قد سعيت لذلك -عَبثاً- فترةً من الزمن! فقد كنت أتوهم إمكان التوقّف لفترةٍ عن كتابة شيءٍ جديد؛ حتى أنقح كل ما كُتِب وأنشره. ثم اكتشفت بعد برهةٍ وجيزة أن هذا الوهم الطوباويّ غير ممكن إلا بتوقّف أنفاسي ومفارقتي للحياة نفسها! وحتى حال مفارقتي للحياة، فسوف أخلف -مثل غيري- رُكامًا غير منشور. إنها سُنّة الحياة التي لا نستطيع

إيقاف تدفق نهرها، ولا نعرف حتى موعدًا لتوقف هذا التدفق. فلا كمال لحَيٍّ ولا حتى لفعله التاريخي. فاعمل لنديك كأنك تعيش أبدًا، ولا خرتك كأنك تموت غدًا.^(١)

السبب الثاني لكوني لم أنشر كل ما تمخّضت عنه السنوات العشر هو أني آثرت استخدام البعض الآخر في كُتبي وأبحاثي التالية؛ رُبّما لأن نُضج تلك الأفكار قد بلغ به الدرجة لتشكيل أنساقٍ مُستقلّة. لكن هذا لا يشترط بالضرورة كون المقولات التي يحويها هذا الكتاب لم تُستخدم من قبل ولا من بعد. بل لا أغالي إن قلت إن أكثرها من الأفكار التي اتخذت لها مواطن في أنساقٍ مُستقلّة، وإن كنت قد لمست فيها قوّة بذاتها، فطرحتها للقارئ في صورتها شبه الأوليّة؛ علّه يُفيد منها في بناء مقدرته المنهجية: التفكيكية والبنائية.

استحال أيضًا نشر كل عُصارة حياتي القصيرة خلال هذه السنوات لسببٍ لا يقلُّ أهميّة عن سابقه، وهو أن منها أفكارًا راجعتها فطوّرتها أو تخلّيت عنها، ومنها ما هو في مراحل التشكّل المختلفة: بذورٌ أو جذورٌ أو ثمارٌ نصف ناضجة.

لكن هذا لا يعني أن كل الأفكار التي يضمّها الكتاب تمثّل الصورة الأخيرة لفكري، فناهيك عن تعارض ذلك مع الصيرورة الإنسانية المفتوحة، فهو عارٍ عن الصحة. إن الأفكار والتأملات التي يُدوّنُها امرؤٌ طوال عشر سنوات تعكس مسيرة تطور رؤيته بأكثر مما تعكس موقفه «النهائي» من القضايا التي تتناولها، وإن كان هذا لا يمنع من أن كثيرًا من هذه الأفكار تمثّل رأيًا أو موقفًا أو وجدانًا لم يتغيّر تغيرًا يُذكر خلال عقد من الزمان. وحين نفّحت بعض هذه الأفكار وجمعتها بين دفتي كتاب، فإن ذلك كان يعني تحقّقها بالحد الأدنى من التعبير عن فكري وتطوّره. وكما أسلفت؛ فبعضها يُمثّلني اليوم، وبعضها كان يُمثّلني بالأمس ولا زلت أعتقد في صحته، وبعضها يُمثّلني منذ عامٍ ولا زلت أعتقد بصحّة الشطر الأكبر منه، وبعضها

(١) رواه ابن قتيبة في غريب الحديث، ١/٤٦/٢؛ حدثني السجستاني حدثنا الأصمعي عن حماد بن سلمة عن عبيد الله بن الصفر عن عبد الله بن عمرو أنه قال «الرواية»؛ فذكره موقوفًا عليه إلا أنه قال: «أحرث لنديك... إلخ».

يعكس شعوري منذ خمسة أعوام ولا زلت أجد صدقه مُعبرًا عني بشكل أو بآخر. خلاصة الأمر؛ أن هذه الأفكار تُمثِّلني حتى لو غيَّرت موقفي من بعضها، فهي تُمثِّل الرحلة التي تغيَّر فيها موقفي من بعض القضايا، وصولًا إلى موقفي «النهائية»؛ إن كان ثمت! إنها تعكس ذاتي التاريخية، بمكان من قوَّتها ونقاط ضعفها، بما أحبه فيها وما أسعى لإخفائه منها.

وبما أن الأفكار التي أفصحتُ عنها في هذا الكتاب ليست مُرتبةً حسب تسلسل كتابتها ولا مؤرَّخةً وفقًا لزمان كتابتها، لذا؛ فأفضل طريقة هي قراءتها على التوازي وعلى التوالي في آن. على التوازي لتحقيق قدرٍ من التكامل بين الأفكار ومن ثم الإفادة منها منهجيًا، وعلى التوالي لإدراك الطبيعة الإنسانية المركَّبة ومقدرتها الفطرية على الانتقال بين الموضوعات المختلفة والمتنوعة ما استوى منهجها في النظر.

وقد يشعر القارئ في بعض المواطن بالتناقض بين فكرتين أو أكثر، ويظن أنها لا تُعبران عن نفس النسق. لكن هذا التناقض الظاهري سببه التنوع الموجود في الواقع أولًا، وهو تنوعٌ لا ينفي الوحدة الكامنة، وأن المقولات تُجسِّد جزءًا من صيرورة فكرية إنسانية ثانياً. فإذا أمعن النظر، فسوف لن يعود لذلك التناقض وجود إلا في حدود اللاوعي الإنساني، وسوف يكتشف -مثلاً- أن بعض المقولات أقلُّ نُضجًا من غيرها على مستوى كفاءة التعبير عن النسق، وأن هذه المقولات قد نضجت في مطارحات وملاحظات ومواضع أخرى من الكتاب؛ حتى ليبدو النسق بعد القراءة المتأنية مُطرَّدًا في شكل تطوُّر تاريخيٍّ أكثر منه مُحملاً بالتناقضات.

سيجد القارئ أيضًا آياتٍ أو أحاديث أو أبيات شعرٍ أو مقتطفاتٍ لم أعلق عليها، وتركتها كما هي. ذلك أني وجدتها مدعاةً لتأمُّلٍ عميقٍ في ذاتها، ووجدت أن تأمل القارئ الذكي سيستنطقها كما استنطقتها، فتركها كتدريبٍ عمليٍّ لجهده التأويلي والذي سيحدد النسق العام للكتاب ملامح اتفاقنا واختلافنا في النتيجة التي وصل إليها.

لقد استلهمت تجربة أستاذنا علي عزت بيغوفيتش في كتابه الذي تُرجم تحت عنوان هروبي إلى الحرية «بالإنكليزية نوتس فرُم بريزُن Notes From Prison»، والذي شرعت بإعادة ترجمته منذ بضع سنوات، وحالت ظروفٌ دون إتمامه^(١). استلهمتها في الشكل وفي المضمون معاً؛ فالكتاب عبارة عن أفكارٍ عُرضت في أقل مساحةٍ ممكنة، فجاءت كثيفةً إلى درجةٍ قد تستلزم أحياناً إعادة القراءة عدّة مرّاتٍ لسبر غور الفكرة. صحيحٌ أن هناك كتاباتٍ أخرى قد تكون أسهمت في رسم هذا الشكل وترسيخ طريقة بناء المضمون، بغير وعيٍ، ومنها كتب الأدب العربي القديم وعلى رأسها «العقد الفريد» ومؤلفات الجاحظ - خصوصاً كتاب «البيان والتبيين» الذي صحبته طويلاً - أو كتابات نيتشه وعلى رأسها كتابه: ما وراء الخير والشر، أو كراسات السجن لغرامشي؛ إلا أن أثر أيّهما - لو صح - فهو كامنٌ في اللاوعي. أما الأثر المقصود والشكل المنشود، فقد كان كتاب علي عزت بيغوفيتش المذكور.

في هذه الفقرات عرفت الفارق بين أنواع الكتابة: الكتابة كجذبة صوفيّة، والكتابة للارتزاق، والكتابة كحرفة يدويّة أشبه بالحفر على النحاس أو الخشب، والكتابة كهواية. ووجدت أن الكتابة تُثقل إلزاماً شخصياً للمجذوب؛ إنها سبيله الوحيد لاكتشاف الذات والوجود. إن شغفه بها أشبه بشغف المدمن بالخمر التي يُعاقرها، شغفٌ لا ينبُع من العقل؛ بل من الظمأ... الظمأ الغامض إلى الكشف. لكن الفارق بين جذبة السكّير وجذبة الكاتب أن الأول يُريد الذوبان في قنيتته، بينما يُريد الثاني التجسّد بين الصفحات. إن كلّاً من السكّير والكاتب يعرفان بشكلٍ واعي أن ثمة تبعاتٍ لفعلهما، لكن التوهُّج الذي يصدرُ عنه الفعل في لاوعيهما هو التبعّة وهو المآل. إنه لا يستطيع التوقّف أمام النتائج والمآلات المترتبة على هذا التوهُّج. إنه تحقّقٌ من حيث هو حالةٌ نهاذجيّةٌ؛ إنه معنّى بذاته. معنّى تتصاغر أمامه كل المعاني الأرضيّة وكل الأغراض والمصالح الدنيويّة. إنه أشبه ما يكون بالقنوت.

(١) عسى أن أتمكن من إتمامه قريباً. فالكتاب تجربةٌ ثريّةٌ للمترجم قبل أن يكون كذلك للقارئ. إنه يحتاج لمكابدة حقيقيّة حتى تخرج الترجمة معبرةً عن روح المؤلف وتركيبيةً رؤيته وثقافته الهائلة، وبعيدة عن الالتصاق الرياضي الميّت والسخيف بحرفيّة الألفاظ؛ كما فعل من ترجموه من قبل.

إن هذا الكاتب حين يُؤلِّد مقولاته الخاصّة، فإن هذه المقولات ليست هدف الكتابة الأصلي؛ إنما هدفٌ تابعٌ يترتب على فعل الكتابة. إنه يكتُبُ أصلاً ليشحذ بصره وبصيرته، أو ليدافع عن ضميره كما يقول أحمد مطر. إن الكتابة في هذه الحال أحد صور التحقق الذاتي بالإيمان، ونتيجتها النهائية هي صورة الدعوة التي تتحرّك ذاتياً بتزكية الداعي لنفسه. تتحرّك به كدعوة حيّة على الأرض. وأظن أني جمعت بين الكتابة كجذبة وكحرفة يدويّة. فإني أعنى كثيراً باختيار اللفظ عنايتي ببلورة المعنى؛ وأتبع مدلولات الألفاظ المحوريّة وتطوّر استخداماتها في العربية وما يقابلها في بعض اللغات الأخرى. باختصار؛ فإن الكتابة عندي جمعٌ بين العمل الفني والعمل الفلسفي. وأنا في ذلك أشكل نسقي اللغوي ومعجمي الخاص بشكل تدريجي؛ يتجلى أشد ما يتجلى في المقالات الطويلة، وفصول كتبي التي لما تنتهي بعد. إنه نسقٌ يجمع بين التكثيف الذي أفدته من كتابة القصة القصيرة، وبين فن الفسيفساء اللغويّة ذي الطابع الشعري، والذي يُشكل مشهداً فلسفياً/ فنياً كاملاً من أجزاء لغويّة بالغة الصغر؛ أجزاء تتكوّن بطريقةٍ مخصوصةٍ لتُشكّل نسقي الخاص؛ لذا، فاللغة في كتاباتي لا تنفصل عن الموضوعات التي أتناولها بها في الغالب الأعم، فهي ليست مجرد قوالب مصممة بل تكوينٌ فنيٌّ حيٌّ أكابده مكابدي للأفكار. وفي هذا قد أشبه أوائل مُتكلّمي المسلمين؛ الذين كانت الآلة الكلامية عندهم آلةً لغويّةً صرفةً، مثلها في ذلك مثل الآلة الأصوليّة المبكّرة.

لذا، فإن هذا الكتاب ليس للمتعة الذهنيّة المجرّدة، وليس الغرض منه نيل رضا القارئ وموافقة وتصفيقه واستحسانه؛ بل الغرض منه تعليمه التفكّر، ومساعدته على تكوين ملكة للنظر والنقد والحكم. كل ذلك بطريقةٍ غير مباشرة. فحين يُعاین القارئ المتفحّص منهج النظر ذاته وهو يُفكك الفكر السياسي ثم يُقرأ به الأدب ثم تناقش به بعض مسائل العقيدة والفلسفة ثم يتشكّل به دعاء يستلهم سير الأنبياء؛ فإنه سيُدرِك -ولو بشكل غير واع- وحدة المعارف الإنسانيّة، ومن ثم أهميّة وحدة منهج النظر والرؤية الكونيّة الحاكمة والمهيمنة على تناول. وسيُدرِك

أيضاً أن الفصل المصطنع بين العلوم والمعارف الإنسانية مجرد فصل مدرسي إجرائي لا قيمة له، ولا يتم تكريسه إلا لتوثيق حقل من المعارف أو الافتراضات التي بُنيت عليها بعض النظريات «العلمية».

وقد يجد القارئ، رغم ذلك؛ بعض التشجيع في محدوديّة مساحة تناول كل موضوع/ فكرة، ويعتبر ذلك موافقاً لنمط حياته المتسارع. لكن حذار من توهم إمكان التعاثر مع الكتاب بمنطق اقتطاف مصطلح من هنا وفكرة من هناك، فإن الكتاب على كثرة الأفكار التي يتناولها يعكس وحدة نسقيّة منسجمة إلى حدّ كبير.

إن هذه الأفكار كالأحجار؛ قد تصلح لبناتٍ للبناء فقط، وقد تصلح كعمالٍ للهدم فقط، وقد تصلح لهدم يعقبه بناءٌ. ومن ثم كان قطف مقولة واحدة بغير إدراك عميق للنسق، مسبباً لتشوش الرؤية وداعياً للبلبلّة؛ خصوصاً إذا ما سعى القاطف للوك المقولات كدياجاتٍ جاهزة يصبّ فيها رؤى مغايرة. إن نصيحتي بقراءة الكتاب على التوازي تُراعي هذا البعد، فالأفكار تُفسّر وتُضيء بعضها بعضاً. وربما عثر القارئ بمناقشة لمسألة عقديّة أو واقعة تاريخيّة تُفسّر لها ملاحظة على رواية أو واقعة مُعيّنة. إن القارئ الذي سينخدع في السهولة الظاهريّة للكتاب، وقصر بعض مقولاته، لن يقع في فخ تسطيح الفهم والأدلجة فحسب، بل ستغيب عنه كليّاً مستويات أعمق من المعنى لا يُمكن إدراكها إلا بالقراءة المتأنية، والمتكررة. إن هذا الكتاب يهدف لتنشيط العقل وشحن الوجدان والإسهام بقسطٍ صغيرٍ في استعادة الإنسان. فاقراه واهضمه، ثم وافقه أو انبذه، المهم أن تعيشه أولاً. ساعتها يكون قد حقق ما أُخرج لأجله.

أخيراً وليس آخراً؛ فهذا ليس كتاباً فلسفياً ولا كتاباً عن الفلسفة، لكنه كتاب عن الحياة في ظلال الوحي كفلسفةٍ ومنهجٍ مطردٍ. وسيجد القارئ بين طيات الكتاب رفضاً واضحاً قاطعاً للمذاهب والأنساق المعرفية والعقدية والفقهية والفلسفية والكلامية المغلقة، كما سيجد شغفاً واضحاً بآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام. شغفاً وعشفاً وولاءً أكره أن أتوارى بهم بعد إذ أخرجني الله بهم من ضيق

الأفهام إلى رحابة الإسلام. شغفًا وعشقًا وولاءً لمكانهم من رسول الله ﷺ قبل أن يكون لصلة دم ونسبٍ شرفني المولى سبحانه بها.

وفي النهاية أحب أن أشكر أخوين إلى قلبي قرييين؛ أخوين ساهمت حواراتي معهما مجتمعين ومنفردين في إثراء مادة هذا الكتاب وتطوير كثير من أفكاره بشكل لا يُمكنني إنكاره، ولا الوفاء به. الأخ المهندس أيمن عبدالرحيم، والأخ الدكتور محمد صفار: أخوين ومُعلمين وصديقين مُخلصين من أهل العلم والنظر. كما أتوجه بجزيل شكري للأخت الكريمة؛ الباحثة الجزائرية النابهة: عومرية سلطاني؛ لقراءتها مسودة هذا الكتاب، ولعمق ملاحظاتها القيّمة والشديدة النفع التي أبدتها على المحتوى، فهي القاريء الذي به أتعرف عليّ. والشكر موصول لكل من قرأ مسودة هذا الكتاب وزودني بتعقيبٍ، ومنهم أخوي أحمد سالم (أبو فهر السلفي) من مصر وأسامة غاوجي من الأردن. وما كان من خيرٍ فيما سطرت فهو من الله، وما كان من شرٍ فمن نفسي؛ فأسأل الله أن ينفع بالخير ويأجُرني به وأن يُعني خلقه عن الشر ويعصمهم منه ويغفره لي. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبدالرحمن محمد أبوزكري

مصر الجديدة، القاهرة،

فجر الخميس الخامس والعشرين من شهر شعبان ١٤٣٤ من هجرة المصطفى،

الموافق الرابع من يوليو ٢٠١٣ بالتقويم الغريغوري،

صبيحة الانقلاب العسكري على محمد مرسي وعزله.

الكتاب

١- كَرَّمَ اللهُ بني آدم، وفضَّلهم بالمعرفة على كثيرٍ من خلقه. فالمعرفة أساس الاختيار، والاختيار الحُرُّ هو عين تحقق إنسانيتك. وتحقق الذات الإنسانية هو مُنتهى التكليف الربَّاني وغايته. وليس للمعرفة طريقٌ سوى الألم.

٢- إذا جعلت السعادة هدفاً مُجرّداً، فستشقى دهرَكَ، ولست ببالغه. لكنَّ السعادة ذاتها ستسعى إليك إذا حققت هدفاً وجودياً، وتحققت إنسانياً.

٣- قال بعضُ السلف إن الزُّهد هو: خلوّ القلب مما خلت منه اليد. وقال آخرون: هو ألا يغلب الحرامُ صبرَكَ، ولا يغلب الحلالُ شُكرَكَ. أما عبد ربِّه الفقير، فيقول إنه: خلّو قلبك من الدنيا، مع امتلاكك لها في يدك؛ فإنما يكون الزُّهد فيما قدرت عليه، مع يقينك بها في يد الله ﷻ. عَمَّا مَكَّنْ مِنْهُ يَدَكَ، تصديقاً لقوله ﷻ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ^(١).

٤- يكْمُنُ الكمالُ البشري في إدراكنا للنقص كمْوْنٍ أساسيٍّ في التركيبة الإنسانية، وتعويض هذا النقص بالحضور الوجداني الدائم للمعيّة الإلهيّة؛ تحقيقاً للتعايش مع هذا النقص البنيوي. وقد كان إدراك بعض السلف لهذه الحقيقة جلياً في قول مُعاوية بن أبي سفيان: لا تُدْرِكُ نعمةٌ إلا بفواتِ نِعَمٍ. إن الإنسان منقوصٌ لا يكتمل بذاته، ولا بُدَّ من انضوائه تحت كمال الوجود بذاته حتى يتحقق التعايش.

٥- قال لي ربِّي: يا عبدي، أرزُقكَ من وراء حجابٍ، ولو شئتُ لأمطرْتُ عليك الذهب والفضّة. لكنك حبيسٌ دار الحُجُب، وأنا أسوق لك رزقي بين يدي الأسباب. فإن أيقنت بحكمتي؛ أرضيتك بِقِسْمَتِي، ثم رزقتك ما لا خطر على قلب بشرٍ، وما أنقص ذلك من مُلكي شيئاً.

٦- إن الزعم بأن طموحات الإنسان وأحلامه أكبر من قدراته إنها هو وهمٌ. فغالبًا ما يكون الطموح أعظم من جرأة صاحبه، وأكبر من إرادة الفعل لديه.

(١) سورة النحل؛ الآية ٩٦.

٧- يشقى الإنسان في ابتغاء القوة المادية المفرطة، فإن أدركته؛ كانت نفسه أولى صحاهاها.

٨- من أرق، وأروع، وأقوى ما نظم أبو القاسم الشابي:

سأعيشُ رغم الداء، والأعداءِ كالنسر فوق القمّة الشمّاءِ
أرنو إلى الشمس المضيئة هازناً بالشّحب، والأمطارِ، والأنواءِ
لا أرمقُ الظلّ الكئيب، ولا أرى ما في قرار الهوة السوداءِ
وأسيرُ في دنيا المشاعير حالمًا غردًا، وتلك سعادة الشعراءِ
أصغي لموسيقى الحياة، ووحيتها وأذيب روح الكون في إنشائي
وأصيحُ للصوت الإلهي الذي يُحيي بقلبي ميتَ الأصداءِ

ولو أن بعض الألفاظ توحى بالسذاجة الرومانتيكية، إلا أن إصراره على التجاوز والتحقّق لا يُمكن أن يمرّ بغير أن يلمس شيئًا في داخلك. إنه يُخاطبُ الإنسان في أي زمان ومكان.

٩- إن الحقائق الكبرى لا تُدرك، بل تُتذوّق. والذين ينكرون وجود الروح الإنساني لا يُمكنهم تذوّق تجلّياتها الإبداعية الحقيقية. إنهم أصحاب ذائقة سقيمة، وفطرة مطموس عليها. لقد التصقوا بالطين. بل اتّحدوا به، ولم يعودوا قادرين على تجاوزه. وهذا هو الموت الحقيقي.

١٠- كان العلامة السنهوري رحمه الله مُحقّقًا حين قرر أن الألم والشهوة هما الفارق بين البشر والملائكة. فتوظيفهما، واحتمال تبعاتهما، وتنظيم آثارهما؛ هو ذروة تحقّق الذات الإنسانية. وبذا فضّل آدم عليه السلام وذريته على الملائكة الذين ﴿لَا يَصُونُ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

١١- قديمًا قيل: ما استحقّ أن يؤكّد من عاش لنفسه فقط. لكن هناك فارقًا ضخّمًا بين أن تعيش لنفسك، ولو على حساب الآخرين (وهي الأنانية المحضّة)،

(١) سورة النحر؛ الآية ٦.

وأن تعيش بنفسك (فثُحِقْهَا إنسانياً). فالأولى فرديةٌ محضةٌ تتمركز فيها حول ذاتك (إلهك الوثني)، والثانية تُلبِّي مطلبيّ الوجود الإنساني، فالإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ، لكنه بنفس الوقت فردٌ مُتميِّزٌ خاصٌّ، وليس في ذلك إلا التكاملُ المعجز.

١٢- يزعمُ السطحيون أن القوةَ الحقيقية هي تضخُّمُ قُدرات الجسد الماديَّة، والنفعيُّون يزعمون أنها امتلاكُ كنوز المال. ولكن على النقيض من ذلك كُلُّه تكمنُ القوةُ المطلقة. إنها طاقة الأرواح التي استحوذت عليها فكرةٌ ساميةٌ، ولاكها هدفٌ نبيلٌ؛ فأولداها جبلاً من إيمانٍ راسخٍ، مُستظِلٌّ بإصرارٍ واعي مُتبصِّرٍ.

١٣- سأل الوليد بن عبد الملك أباه يوماً: يا أبت، ما السياسة؟ فیردُّ الطاغوت الداهية عبد الملك قائلاً: هي هية الخاصة مع صدق مودَّتِها، واقتيادُ قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع. وتأمل البون الشاسع بين بداية الانحدار في الفكر والممارسة السياسيَّة الإسلاميَّة، وبين الحضيض الذي تردُّنا فيه. ففي عالم اليوم يُمكن تعريف السياسة بأنها: خِسةُ الخاصة واشتداد حقارتها، واقتلاعُ قلوب العامة بانتهاب حقوقها والتكيل بها، وتكريس هفوات الصنائع ... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٤- ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي آلِيْعِنْدٍ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَات مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال؛ الآية ٤٢)

١٥- رُوِيَ عن بعض اللغويين قوله: كُنْ لما لا ترجو، أرجى منك لما ترجو، فإن الكليم موسى عليه السلام قد ذهب ليقبَس ناراً، فنوَدِيَ بالنبوة. وقريب منه قول المتنبي: أعلل النفس بالأمال أرقبها - ما أضيّق العيش لولا فُسحة الأمل.

١٦- ليست الحكمة أن تسعى دائماً للحدِّ من الطعنات الموجهة إليك. لكنَّه عمَلٌ أحياناً على أن تجعلها أقلَّ إيلاماً في كُلِّ مرَّةٍ، ومن ذلك قول المتنبي:

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتى فؤادي في غشائٍ من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابتنى سِهَامٌ تكسرت النصال على النصال

١٧- إن القصاص ضرورة إنسانية مشروعة، لإقامة ميزان العدل الرباني. لكن إذا تحولت هذه الرخصة الاجتماعية إلى رغبة شخصية؛ انحرف ميزان العدل.

١٨- الشجاعة مزيجٌ من الحكمة والإقدام. فإذا اختل ميزان الحكمة في هذا المزيج كانت الحماقة. وإذا اختل ميزان الإقدام تبدى الجبن.

١٩- من دعاء لأعرابي: اللهم إن لك عليَّ حقوقاً، فتصدق بها عليَّ، وللناس تبعاتٌ، فتحملها عني، وقد أوجبت لكل ضيفٍ قرى، وأنا ضيفك، فاجعل قراي في هذه الليلة الجنة.

٢٠- قال السنهوري رحمه الله: إذا اعترف رجلٌ بنقيصةٍ فيه محتاراً، فذلك لأنه غالباً بدأ يشعر أنه قد أصبح أقوى منها. فانظر كم من نقائصك تُنكرها!

٢١- إذا أصبحت وما لك سرورٌ إلا في مواطئ القدر، فأنت المتوكل على الله.

٢٢- مما يُنسب لأمير المؤمنين الشهيد علي بن أبي طالب عليه السلام، قوله: أشق الأعمال على النفس ثلاثاً؛ الجود من قلة، والورع في الخلوة، وكلام الحق عند من يُرجى ويُخاف^(١).

٢٣- يقول المفكر الشهيد علي شريعتي رحمه الله: إن لكل ثورة رسالتين؛ رسالة الدم ورسالة الكلمة. فالذين استشهدوا قد قاموا بالعمل الحُسني، وعلى الباقين أن يقوموا بالدور الزيني، وإلا فإنهم يزيديون.

(١) نسبه ابن عساكر للشافعي في تاريخ دمشق؛ قائلاً: أشد الأعمال علي النفس ثلاثة: الجود من قلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى ويُخاف.

٢٤- الظلم كثيران المجوس؛ لا يُطفئهما إلا صفاء التوحيد.

٢٥- إذا أردت أن تصل لموقعك من الوجود، والذي لن يشغله سواك؛ فيجب أن تضع! بالطبع لم تُخطيء التهجنة، فإن المفارقة المأساوية تكمن في اكتشافك ذاتك وأنت في التيه.

٢٦- التفكير المستقيم هو آلة المعرفة السليمة. والتصور هو حاصل تلك المعرفة. وتماهي هذا التصور مع الوجود المادي هو ما يصنع الأيديولوجيا بتحجرها.

٢٧- يقول المفكر والفيلسوف الراحل علي عزت بيغوفيتش رحمه الله؛ إن ثمة أناسٍ يلتهمون الكتب التهامًا - كالخمار يحمل أسفارًا - لكنهم لا يفيدون مما قرأوه البتة. وقد ميز علي شريعتي - في نفس السياق - بين التحصيل والإدراك. فليس كل مُحصل للعلم، بمُدرك. فالإدراكُ مرتبةٌ لا يصل إليها إلا القلة. وصدق الرسول ﷺ حين أمرنا: **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، قُرْبَ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ^(١)**.

٢٨- فرق كبيرٌ بين مراتب: المعرفة، والإدراك، والتذوق. فالأولى يقدر على تحصيلها كُلُّ أحدٍ إذا توفرت له الفرصة. والثاني موهبةٌ خاصةٌ، تستلزم جهدًا ذاتيًا لا يقدر عليه أغلب بني البشر. أما الثالث فهو منحة إلهية لخواص الخواص. وسبحان من علم ذلك من خلقه، فجعل مُجَرَّد المعرفة؛ منطًا للتكليف المُلزم الذي يتساوى فيه بنو الإنسان. واقتضت حكمته أن تنفر طائفةٌ محدودةٌ من كل فرقة للقيام بفرض الإدراك^(٢). وكانت عطيته للمُحسنين من عباده هي إعلان حُبِّه لهم، فهم قد عرفوا ضعف الناس، فكظموا غيظهم، وأدركوا ما أعدَّه الله؛

(١) الشق الأول أخرجه البخاري: (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلَيْسَ مِنِّي مَقْعَدًا مِنَ النَّارِ».

وأخرج البخاري الشق الثاني من الحديث: (١٧٤١)، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، قُرْبَ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فَعَفُوا عَمَّنْ أَسَاءَ لَهُمْ مِنْ خَلْقِهِ، وَذَاقُوا حُبَّ نَجَاتِهِ نَتِيجَةً إِحْسَانِهِمْ لِمَنْ أَسَاءَ إِلَى ذَوَاتِهِمْ^(١).

٢٩- إِنْ الْحَقَائِقُ الْكُبْرَى لَا تُدْرَكُ، بَلْ تُتَذَوَّقُ بِحَسِّ الْفَنَانِ.

٣٠- رُويَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ، وَمَتَعَلِّمٌ، وَهَمَّاجٌ! وَالهَمَّاجُ فِي النَّارِ، فَانْظُرْ إِلَى أَيِّهِمْ تَنْتَمِي!

٣١- إِسْلَامِيَّةُ الدَّوْلَةِ لَا تُفْرَضُ بِسُلْطَةِ الْقَانُونِ الْفَوْقِيَّةِ، بَلْ بِقُوَّةِ تَمَسُّكِ سُكَّانِهَا بِدِينِهِمْ. وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْمَصْرِيِّينَ الْمَهْزُومِينَ يَهَاجِمُونَ الْمَادَّةَ الثَّانِيَةَ مِنَ الدِّسْتُورِ الْمَصْرِيِّ؛ وَالتِّي تَقْضِي بِأَنَّ دِينَ الدَّوْلَةِ هُوَ الْإِسْلَامُ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ التَّنْظِيرَ لِفَقْهِ سِيَاسِيٍّ إِسْلَامِيٍّ فِي هَذِهِ الْمُبَازَّةِ؟! إِنَّهُ لَنْ يَكُونَ فَقْهًا افْتِرَاضِيًّا، وَإِنَّمَا اعْتِبَاطِيًّا! إِذْ إِنَّ إِسْلَامِيَّةَ الدَّوْلَةِ لَيْسَتْ بِنِيَّةٍ طُوبَاوِيَّةٍ مَادِّيَّةٍ كَدَوْلَةِ الْيَهُودِ، بَلْ هِيَ بَنِيَّةُ عِلَاقَاتٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَشَعُورِيَّةٍ، وَمَرْكَبٍ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ. تَوْفَّرَ الْعَدْلُ لِرِعَايَاهَا غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا لِلْمُسْلِمِينَ. الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَيْسَتْ هِيَ طُوبِيَا إِقْبَالٍ وَالْمُودُودِي وَالْحَمِينِي، وَلَا هِيَ بِالطَّابُورِ الْخَامِسِ كَالدَّوْلَةِ السَّعُودِيَّةِ. الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَدْ تَكُونُ هِيَ مُحَاوَلَةٌ عَلَيَّ عَزَتْ بِيَغُوفِيْتِشِ التِّي أُجْهَضَتْ. إِنَّ مُحَاوَلَةَ التَّنْظِيرِ لِدَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ بِغَيْرِ تَحْقِيقِ الْحَدِّ الْأَدْنَى مِنَ الْإِجْمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى وَجْهِةٍ مُعَيَّنَةٍ^(٢)؛ إِنَّمَا هُوَ هُرَاءٌ مُحَضٌّ. فَالْإِجْمَاعُ هُوَ الَّذِي سَيَصْنَعُ الْكُتْلَةَ الْخُرْجَةَ الَّتِي سَتَحْمِلُ الْمَجْتَمَعَ، وَتَتَحَرَّكُ بِالدَّعْوَةِ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ.

٣٢- إِنْ أَشَقَّ لِحَظَاتِ الْوُجُودِ وَطَاءَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ هِيَ اغْتِرَابُهُ فِي مُحِيطَةِ الْمَأْلُوفِ، فَتَمَّةٌ مَا يَفْتَقِدُهُ، وَإِنْ كَانَ - غَالِبًا - لَا يَدْرِي كُنْهَهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ! إِنَّهَا لِحَظَاتُ تِيهِ عَنِيفَةٌ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي مِثْلِهَا:

(١) ﴿وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ النَّبِيِّ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُشْكِينَةَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

(٢) (الوجهة هنا أعني بها الإله. إن اختيار الجماعة البشرية للإله الذي ستعبده هو الذي يحدد شكل الدولة ودورها ووظيفتها).

إحساسٌ بالغربة يَهْتِكُ وجداني
إحساسٌ بالغربة يُثْقِلُ أجفاني
إحساسٌ بالغربة جَدَّدَ أحزاني
فتموت الكلمة قبل ولادتها فوق لساني



إحساسٌ ينبُعُ من أعماق الأعماق
إحساسٌ يملأ دُنْيَايَ إلى الآفاق
إحساسٌ يبدو جليًّا في الأحداق
فَيَفِرُّ لساني يشكو مرارًا للأشداق



أنبش أيامي، فلا أجد بديلا
و أجوب الزمن لا أملُ رحيلًا
أحلامي احتبست، إلا قليلا
فيا هول الغصَّةُ تُرَدِّدُنِي قتيلا



للنار هيبٌ ... قد أحتمل
للسوط هيبٌ ... قد أحتمل
للوَجد هيبٌ ... قد أحتمل
للكلمة تخنقها العَبْرَاتُ هيبٌ ... لا
أحتمل

٣٣- قال الأحنف بن قيس: المؤمن بين أربع؛ مؤمنٍ يحسده، ومنافقٍ يبغضه، وكافرٍ يُجاهده، وشيطانٍ يفتنه.

٣٤- نحن دومًا نملك الخيار؛ أن نكون خيارًا أو أن نكون أشرار. إن خياراتنا هي التي تصنعنا، حتى لو اخترنا ألا نختر!

٣٥- اللهم إنك تعلم نقصي وعجزني، وتعلم تقصيري وضعفي؛ فاجبر اللهم نقصي بإخلاصٍ ترزقنيه، وتعصمني به من أن أشرك بك أو معك أحدًا فيما علمت من أمري.

٣٦- حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين.

٣٧- إن مسئوليةَ المسلم يُحددها الوعي والإيمان، وليس القدرة والإمكان. فالله لم يجعل كثرة الأتباع والتمكين في الأرض مقياسًا للحق. إن المسلم مُقَدِّرٌ بالله، ولو كان وحيدًا فردًا مُجَرَّدًا من كُلِّ قوَّةٍ ماديَّة. إن انتصاره -بقدر الله- مرهونٌ بحُسن استقامته على المنهج، ومدى تحقُّقه في نفسه. ولم يكن انتصار المسلم يومًا مرهونًا بحجم قوَّة الباطل، أو مدى بطشه.

٣٨- تجاهل الأسباب فسقٌ، والتوكُّل عليها كفرٌ.

٣٩- يُروى عن الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام أنه قال: ليس من الحزم أن يصمت الرجل عند إيراد الحجَّة، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالحنأ، ويصوِّر الكذب في صورة الحق افتخارًا بالكذب وجرأة على الإفك^(١).

٤٠- حين يقول لي ربِّي: ﴿وَيَسِيحُ الرَّعْدُ يَحْمَدُوهُ﴾^(٢) أجدني أنتفض وجلاً، وذلك برغم أن الرعد يُسَبِّحُ مأمورًا مقهورًا. لكنني حين أصغي لتسبيح الإنسان الذي كَرَّمَهُ رَبُّهُ بالحرية والوعي والإرادة مُتَحَارًّا عن علم وتصديق، فإنني أسجُدُ عرفانًا بالحكمة الإلهية التي اتخذت بني آدم خُلَفَاءَ في الأرض، وأسجدت لهم الملائكة. وليست التمتعة باللسان هي التي أعني حين أتحدث عن التسبيح؛ بل هو تسبيح الجوارح كُلِّها، وعملها بمقتضى هذا التسبيح في تقويض الألوهيات الزائفة؛ إعمالًا لمقتضى التوحيد في عالم الشهود.

(١) ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد، باب محاسن المفاخرة، ١/ ١٣٣.

(٢) سورة الرعد؛ الآية ١٣.

٤١- إن المعرفة إذا حُبست في إطار الثقافة العقلية المجردة كانت عبئًا على صاحبها ومن ثم على الإنسانية؛ بتبديد طاقتها الذهنية. إن المعرفة الحقة (العلم النافع) هي ما انعكس أثره على سلوك الفرد، وحوله لطاقة دافعة لحركة المجتمع. إن كل معرفة لا يبنّي عليها عملٌ صالح، فلا قيمة لها. وصدق القائل: *الإيمان هو ما وقر في القلب، وصدقه العمل*^(١).

٤٢- القدر لا ينفي مسئولية البشر.

٤٣- تأكد بأنك ستري كل الناس عمالقة ما دُمت تجلس تحت أقدامهم.

٤٤- رُوِيَ في الأثر أن اللسان عضو؛ فإن مرّته مرّن، وإن تركته حرّن.

٤٥- قيل إن أربعة تولّد المحبة: حُسن البشر، وبذل البرّ، وقصد الوفاق، وترك النفاق.

٤٦- قد تكون تجربة الحدّاة عقلانية رشيدة في سياقاتها الغربية. لكنها - بنفس المعايير الفلسفية المادية - إذا أُخرجت من سياقاتها تحوّلت لمتالية إجرائية لا عقلانية. لقد انتبه بعض مفكري عصر النهضة إلى أن العقلانية الغربية تحمل في داخلها بذور اللاعقلانية ما بعد الحدّاتية. ونشأة الدولة القومية الحديثة، ومشروعها الكولونيالي الكلاسيكي - من نفس المنظور المادي - عقلائيٌّ تمامًا؛ وذلك للتخلّص من الفوضى البشري، وفتح أسواق جديدة للمنتجات التي تحتاج لتصريف، وتأمين مصادر المواد الخام. أما محاولة استنساخ الدولة القومية الحديثة - الناصرية مثلاً - فإنها - من نفس المنظور المادي - لاعقلانية تمامًا؛ فتدمير بنية الاقتصاد الزراعي المتفوّقة إنتاجيًا، والتي كانت - رغم كل عيوبها - تكفل الاكتفاء الذاتي. تدميرها في سبيل بناء صناعة ثقيلة لم تُفد البلد منها بشكل جدّي، وإدخال الكهرباء إلى الريف، وتفتيت الرقعة الزراعية، وتقويض المؤسسات الوسيطة - التي يمكن أن تُساهم في «ضبط» الأداء

(١) لا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولكن ثبت عن الحسن البصري رحمه الله بلفظ: «ليس الإيمان بالتعني ولا بالتخلي، لكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل»، السلسلة الضعيفة ٣/ ٢١٧.

الاجتماعي- بذات الوقت. كُلُّ ذلك لا يُمكن إسباغ صفة العقلانيّة عليه من نفس المنظور المادّي. بل هو فجٌّ في عبثيّته؛ لأنه لم يُعبّر عن تطوّر اجتماعيٍّ حقيقيٍّ كما حدث في الغرب، ولا أثمر حتى معشار ما أثمره في أوروبا. الملمح اللاعقلاني الثاني هو الاستنساخ الناصري للنمط السياسي للدولة القوميّة الحديثة؛ بالتدخل في شئون الدول الأخرى سياسياً وعسكرياً، كاليمن والكونغو. وهذا الاستنساخ للدولة المطلقة التي استعمرت الداخل، وأرسلت جيوشها لاستعمار الخارج يبدو عبثياً في السياق الناصري؛ لأن الدولة الناصريّة لم تكن مُنتجّة لأيّ شيءٍ، تحرص على تصديره - حاشا الجعجعة الإعلامية بالطبع! - لقد كانت تجلّيات الوعي الناصري الكامن بتركيب الدولة المطلقة ودورها؛ عبثيّة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. إلا لو اعتبرنا التعاون مع المخابرات الأمريكية سلعة تُباع وتُشتري، وتُفتح لها الأسواق!

٤٧- برغم أن الحداثة الغربيّة هي مُجرّد حزمة، أو متتاليّة إجرائيّة تاريخيّة لا قداسة لها، إلا أن الحداثيين العرب -الذين يُحاولون عبثاً التفلّت من المقدّس!- يُسبغون القداسة على الحداثة باعتبارها «مُنتجاً» نهائيّاً، ووثناً جديداً يُقرّبون له القرابين بدلاً من المقدّس «التقليدي» الذي تفلّتوا منه!

٤٨- أحد التجلّيات العبثيّة لاستنساخ تجربة الحداثة الغربيّة في مجتمعاتنا هي تفشّي زراعة الفواكه وما أُسمّيه بـ «محاصيل الرفاه»، في مُقابل تقلّص زراعة القمح والأرز والذرة والقطن. ويتم ذلك في إطار ما يُسمّى بتقسيم العمل الدولي داخل النظام الرأسمالي اللعين؛ فنحن نزرع تلك المحصولات للغرب في نظير أن يُطعمنا! الكارثة أن حتى هذه الفواكه ومحاصيل الرفاه ترتفع أسعارها بشكل جنونيّ نتيجةً لسياسة التصدير الجائر، ومن ثم لا يعود أمام الإنسان سوى أن يبحث عن طعامه في القمامة؛ بعد أن أصبح الاكتفاء الذاتي أسطورة رجعيّة!

٤٩- في رواية «اللس والكلاب»، التي نُشرت عام (١٩٦١م)، تتجلى عبقرية نجيب محفوظ؛ ليس كأديب مُرهف ذي قلم سيّال فحسب، بل كمؤرخ اجتماعي عبقرٍ؛ تنفّذ بصيرته إلى عمق الأحداث يُسرّ. فهذه الرواية تُعتبر معلماً بارزاً على

طريق التشخيص المبكر لأزمة المجتمع المصري؛ الأزمة التي أدت إلى هزيمة عام (١٩٦٧م). تلك الأزمة التي فرضت نفسها على كتابات محفوظ ردحاً من الزمن، وبلغت ذروتها في كتاباته برواية «ثرثرة فوق النيل»، التي نُشرت عام (١٩٦٦م)؛ حيث يُنفق «أبطالها» ما بعد الحداثيين أوقاتهم في ثرثرة جوفاء مُتلفعة بأدخنة المخدرات في انتظار «غودو» الذي لا يجيء أبداً، وبدلاً منه تحل الهزيمة الصاعقة! إنه إن اعتبر البعض رواية توفيق الحكيم «عودة الروح»، المنشورة عام (١٩٣٣م)؛ تنبؤاً مبكراً بـ «الثورة» التي كانت تعتمل في أحشاء مصر، فإن «اللص والكلاب» كانت الإنذار المبكر بتقويض هذه «الثورة» وتفكيكها، واستيلاء المرتزقة عليها.

٥٠- يقول السنهوري رحمه الله: «إن الديكتاتور هو الرجل الذي يُتيح له الحظ أن يُنشئ ويجمع ويدخر أقواتاً كثيرة؛ ثمَّكُنْهُ من ارتكاب أخطاءٍ كبيرة دون أن ينكشف!» وتساؤلي: أهو «الحظ»؟ أم أنه استخفَّ قومه؛ فأطاعوه بما كانوا يفسقون^(١)؟!

٥١- ليست الرغبة الجنسية اختراعاً، وإنما هي اكتشاف الحاذق! فالزوج المُحنَّك هو الذي يستطيع الكشف عن مكامن هذه الرغبة، فيُحسن استغلالها و تليتها؛ تنميةً للمودة.

٥٢- التقية رُخصة، والإفصاح بالحق فضيلة. الأولى لأهل البقاء، والثانية مزية أهل الفداء.

٥٣- الحُبُّ يولد جنيئاً هش التكوين، فإن لم نتعهده بالرعاية والغذاء؛ تحطَّم على مذبح الأنانية والتمركز حول الذات.

٥٤- ليس الحُبُّ ألا ترى أو تشتبهى إلا سواها؛ لكنَّهُ ألا تسكن إلا إليها.

٥٥- الحُبُّ كالْموت؛ تسمعُ عنه لكنك لا تجربهُ إلا بعد أن يفترسك! وإذا كان الموت طريقاً لا رجعة فيه، فإن الحُبَّ طريقٌ ذو اتجاهين، وإن كُنْتَ تعود منه مُثخناً.

(١) قال تعالى: ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وإن لم يكن بمقدور أحد أن يُنبئنا عن ماهية الموت، فإنه ليس بمقدور من خلص من برائن الحب أن يُنبئنا كيف هو! فناهيك عن كونها تجربة مُغرقة في الذاتية حد القداسة، إلا أنه ليس بمقدور المثخن أن يصف لك بهاء من أسال دمه!

٥٦- إن الحرية تقتضي الوجود المسبق للألوهية؛ فلا يمكن أن يوجد الإنسان الحر كما يؤكد علي عزت بيغوفيتش - إذا لم يوجد الإله الواحد القادر العلي. ﷻ فالله ﷻ هو وحده القادر على أن يخلق إنساناً حراً مستوياً، ويدعه لاختياراته، وإن خالفت المحبوب الإلهي. أما الآلهة الزئفة فإنها لا تستطيع ذلك، فهي تغار من «بروميثيوس» وتُصارعه بنديّة حمقاء، بل وتحقد عليه لسرقته نار المعرفة المقدسة! لكن الله ﷻ وتعالى يُدشّن حياة آدم بالمعرفة، فيُعَلِّمه الأسماء كلها؛ لتظلّ هذه المنحة الإلهية جوهر وعصب المهمة الموكلة لبني آدم في الحياة الدنيا. تلك المنحة التي أكدها المولى سبحانه في آخر اتصال مُباشر مع الإنسان، فكان أوّل ما تلقاه المصطفى ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١). فالمعرفة في الإسلام هي أصلاً باسم الله؛ لخلاقته سبحانه في أرضه.

٥٧- من الخطأ والخطر أن تُسقط منطقنا الخاص على الأشخاص، ولا نتعاطى مع كلّ موجود بمنطقه المتفرد. فناهيك عن كونه إمعاناً في التمرّكز حول الذات، ومن ثم سقوط في الشرك بإنكار التمايز المعجز؛ فهو سبب سوء فهمنا للآخرين، وعجزنا عن التعامل معهم باعتبارهم ذواتاً خاصّةً مُتفردة.

٥٨- قد يتغيّر السلوك الشخصي للإنسان لكن منطقَه الذاتي كبصمته الجينية؛ أبداً لا يتغيّر. إن المنحنى الشخصي هو روح الإنسان، ولا يمكن تغييره غالباً إلا بمحو الشخص نفسه من الوجود!

٥٩- لا تعني خصوصيّة المنطق الفردي افتقاد الإنسانية لفطرة مشتركة تجمعها، وميزان مرجعي تنوب إليه. كما أن الخصائص المشتركة لا تلغي التفرد في الرؤية، والتمايز في الفهم، والعُمق في تناول؛ إلا بين قطعان الأغنام!

(١) سورة العلق؛ الآية ١.

٦٠ - شوّهت الفرق الضالّة مفاهيم الإسلام في أذهان أبنائه. وأكثر هذه المفاهيم المشوّهة خطرًا على روح الأمة وحركتها، هو: تقديم الإسلام باعتباره استسلامًا جبريًا للأقدار، وليس تسليًا اختياريًا واعيًا للمشيمة القاهرة ... وشتان!

٦١ - المعرفة مسئوليةٌ ضخمةٌ. لذا، فهي غالبًا ما تكون «مؤذية» للمثقف الملتزم بقضايا مجتمعه. فعلى المستوى النفسي هي عبءٌ أشققت منه الجبال! وعلى المستوى الاجتماعي فإنها تستلزم الاصطدام بالمجتمع الغافل، وهو ما لا يطيقه إلا أولو العزم من الرُّسل ووارثوهم. ولا أجد أصدق من بيت المتنبي مُعبرًا عن مُعاناة المثقف الملتزم:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة يتنعم

٦٢ - قال الحسن بن عليٍّ عليها السلام: إن كنت كُلِّها رأيت قبيحًا تركت له حسنًا؛ أسرع ذلك في دينك^(١)!

٦٣ - قد تُحقّق بعض «المكاسب» الوقتية أو الإجرائية، لكنّ الأثني تخسر كثيرًا بتحدّيها الذّكر. إنها تفقد خصائصها المميّزة إذا ما حاولت التسابق مع الذّكر على أرضيته وفي ميدانه. إن بعض الإناث تدفعهن شهوة الانتصار المؤقت للتصارّع مع الذّكر، والتغلّب عليه في أحيان كثيرة؛ ليمسّخن! إن الثمن الذي تدفعه الأثني في هذا الصراع السخيف هو تحوّلها لجنس ثالث ... على الأقلّ نفسيًا. هذا الجنس المسوخ هو المسمار الأوّل في نعش أيّ مجتمع.

٦٤ - العلاقة الإنسانية، أيّا كان نوعها أو عمقها؛ لا تُعطينا حقّ نبش ماضي الطرف الآخر. فالماضي كتابٌ مُغلّقٌ له حرمةٌ لا يصحّ انتهاكها بحالٍ. وحتى صاحب هذا الماضي، فإنّ له شركاء ساهموا معه في صنّعه، فهو ليس ملكًا له وحده بل هو ملكيّةٌ مُشتركة مع آخرين؛ ومن ثمّ فالأفضل أن يظلّ خزانة مُقفلة ما دام الشركاء لم يأذّنوا بفتحها.

(١) وتنسب للحسن البصري؛ الجاحظ في البيان والتبيين، ٥٢/٢.

٦٥- يُذَكِّرُنِي التنويريون في بلادنا بقيصر روسيا المقبور: بطرس الأكبر؛ الذي كان في شبابه مُبتعثًا للدراسة في هولندا التي بهرته بنظافتها ورقّيتها، وجعلته يحزن على «خراب» روسيا و«انحطاطها». وبعد أن قدح الرجل زناد عبقريته؛ توصّل إلى أن سبب ثروة هولندا و«تحضُّرها» يكمن في كون رجالها مُنظّمين وذوي شخصيّات مرموقة؛ لأنهم يخلقون لحاهم بالموسى كُلّ صباح! على العكس من شعبه؛ الذي تسببت لحاه الكثرة المُدلّاة في «تدهور» أحواله! وما أن استوى على العرش حتّى أمر باجثاث اللحي الخائنة، عدوّ الأُمّة الروسيّة؛ وراح جنوده يُلاحقون الملتحين بمُعدّات الحلاقين! لقد كانت روسيا تطمح بالقفز لمصاف الدول الصناعيّة الغنيّة في أوروبا الغربيّة^(١)، فكانت النتيجة الواقعيّة التي تحققت هي: تضخّم أرباح الشركة الهولنديّة المُنتجة لشفرات الحلاقة!

ولا يختلف ذلك كثيرًا عمّا فعله الأحقّان: مصطفى كمال في تركيا، ورضا خان في إيران، ومن قبلهما الخديو إسماعيل في مصر.

٦٦- أيها الإنسان الطامع بالحكمة، الراي إلهيا بولّه الدرويش؛ هل تعلم أنك تطلّب الفناء، وتقضي على بهجة الجهل بالشقاء؟!

٦٧- إن نقيض الحُب ليس الكراهية؛ بل التجاهل واللامبالاة. فإذا كُنت تكرهني، فإن ذلك يعني أنك لا زلت تعبأ بي وبأثري في صيرورتك. لذا فما أسهل أن تتحوّل الكراهية إلى حُبٍّ، والعكس صحيحٌ.

٦٨- النجاح مُعلّمٌ مُخادعٌ؛ فهو يُغوي الإنسان بالاعتقاد باستحالة الفشل.

٦٩- هناك نوعٌ من البشر كالشموس؛ يُشع نورًا ودفئًا فيما حوله ومن حوله. لكنّ الاقتراب منه يجب أن يكون محسوبًا بدقّة؛ تجنّبًا للاحتراق.

(١) بغير وعي بالسياق التاريخي والاجتماعي، وبحقيقة التراكم الإمبريالي الذي حققته هذه الدول على جُثث مستعمراتها.

٧٠- إذا فقدت الثروة، فإنك لم تفقد شيئاً. وإذا فقدت الصحة، فقد فقدت شيئاً. أما إذا فقدت نفسك، فقد فقدت كلَّ شيءٍ.

٧١- إن العدالة الاجتماعية في الإسلام لا تستهدف خلق طوبيا لا طبقية، فهذا مُستحيلٌ عملياً، فضلاً عن تعارضه مع التكليف. وإنما يكمن هدفها في القضاء على الإحساس بالفقر وعلى معالم التمايز الطبقي، وذلك بتكريس التكافل كتكامل في إطار نمطٍ من الاعتدال والبُعد عن البذخ والسرف والتفاخر بالاستهلاك. إن حقَّ الله الذي يؤخذ من أغنيائنا ليردَّ على فقرائنا يُعصِّد المساواة التامة على أساس العبودية لله. في هذا المجتمع قد يوجد الفقر، لكن بغير أن يصحبه ذُلٌّ. وقد يوجد التفاوت الطبقي، لكن بغير أن يصحبه تمايزٌ في الحقوق ذات الطبيعة «القانونية».

٧٢- ليس لتنظيم وتهذيب مصارف شهوة الإنسان علاقةٌ بما يُسمَّى بالكبت؛ الذي هو إنكارٌ تامٌّ لهذه الرغبات. فالصراع الأخلاقي الجَوَّاني بين ما يحلُّ وما لا يحلُّ؛ هو ضرورةٌ إنسانيةٌ صحيَّةٌ، فمن خلاله تتحقَّق الذات الإنسانية. وقد يكون ارتكاب المُحرَّم - لا الحرمان - سبباً في احتدام الصراع، وتأزُّم الإنسان بين ما يعتقد وما يفعل!

٧٣- أحياناً تكون رغبة الآباء في الفخر بأبنائهم أقوى من رغبتهم في رؤيتهم فخورين بأنفسهم. وهي أنانيةٌ فظيعةٌ تطمس شخوص الأبناء تماماً، وتحوِّلها لأداة مُتَشَيِّئة لا إرادة لها؛ لينحصر دورها في تحقيق لذَّة التفاخر للوليِّ المريض!

٧٤- ما بين سعة الأفق وضيقه؛ شعرةٌ دقيقةٌ. فسعة الأفق دليل ثقتك بما تعتقد، وعظيم إيمانك بما تسعى إليه. أما ضيقُ الأفق فحالان: أحدهما ينمُّ عن إطباق جهلٍ تخشى افتضاحه، والآخر كون إبليس قد أثناكَ عمَّا كنت تبغني، فانصرفت غير آسفٍ ولا آيسٍ ولا مأجورٍ!

٧٥- الماضي لا يموت، لكنه يخبو قلقاً في الصدور يتحَيَّن الفرصة للقفز إلى صدارة الأحداث؛ والتوهُّج. فإن أنت منحتَه فرصةً للبروز كتجربةٍ تاريخيةٍ تُلتَمَسُ

منها العبرة المخلصة؛ قطعت عليه طريق تَسْلُطه على واقعك كمرجعية مادية حاكمة. إن قيمة الفعل لا تُستمدُّ من تاريخيّته - فلا قداسة للتاريخ - بل من مصدره ومرجعِيّته. فالمصدر فوق الحدث، والمنهج مُهيمنٌ على التاريخ، والنمط هو المحك، وإلا سقطنا في هوة الحلول بتقديس التاريخ.

٧٦- عجيبٌ أمر هذا الإنسان، فما أن يتعلّم الحكمة ويعرف طريقها؛ حتى يكون العُمر قد انقضى، وخياراته قد تحددت. ولو أنصف بنو آدم لأدركوا أن الحكيم من ينتفع بمن سبقه، وينفع من لحقه. فلو كان قادرًا على نفع نفسه لما كان إنسانًا. إن الحكمة لا تتأتى إلا بالتجربة، والتجربة تلتهم العُمر مُحلّفة ندوبًا غائرة في الروح. لكنها تورث راحة لا يُدركها الكثيرون، ولعلّها راحة اليأس المُكلّل بالإدراك.

٧٧- إن قيمة الأدب لا تكمن في لغة السرد أو سلاسته أو واقعِيّته - مع أهميّة ذلك كلّه - بقدر ما تتمثّل في دفع الإنسان لإمعان النظر في باطنه، في صيرورته وفي نهايته. إنه ليس دور الأدب تسجيل الماضي للتوقع فيه بل في استخدام نفس الماضي لاستشراف المستقبل، وتجاوز الواقع مَهْمَا كان ثقله.

٧٨- التاريخ لا يُعيد نفسه إلا في حسّ الجُهلّال. قد تتشابه بعض جوانب التجربة، أو الظروف المُحيطة بها مع غيرها. لكنّ الإنسان نفسه لا يقرُّ له قرارٌ، فهو يتقلّب بين الحكمة والرعونة، ويتبدّل قوّة وضعفًا. ولن يكون هو ذاته نفس الشخص إن مرّ بتجربة مُشابهة. ولن تكون استجاباته عينها، ولو تشابهت المؤثرات. ومن ثمّ، فلن يوجد الإنسان الذي يخوض تجربة ما مرّتين! وأنا هنا أتحدّث عن الإنسان الرّبّاني، أو الإنسان الإنسان بحسب اصطلاح أستاذنا المسيري رحمه الله. أما الإنسان الشّيء، أو الإنسان ذو البُعد الواحد - كما سمّاه هربرت ماركوز - والذي تم ترشيده ظاهريًا وباطنيًا، للتنبؤ بسلوكه وردود أفعاله - ككلب بافلوف - فليس محورًا لاهتمامي! سيظلّ الإنسان الرّبّاني مُحيطًا لا يُسر غوره، وكونًا قوامه التركيب. وسيظلّ مُستقبله غامضًا محفوفًا بالأسرار، لا يُمكن التنبؤ به في ضوء تاريخه، وإن أمكن فهم بعض مُعطيات شخصيّته من خلال قراءة هذا التاريخ.

٧٩- من قال إن الإنسان لا يختار ميته؟! إننا نختار الميتة حين نختار نوع الحياة. نختار الطريق، ونقطعه لنهايته. وقوله ﷺ في سورة لقمان: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾^(١)، يؤكد ذلك؛ لأن الدراية هي العلم المُسبق. قد تجهل المكان على وجه التحديد؛ لكن خيارك يسوقك إليه في ثبات.

٨٠- إذا كان الشك طريقاً أحد طرفيه اليقين، فالطرف الآخر ليس سوى التيه حتماً، فانظر أيهما خلّفت وراءك، وأيها تقصد.

٨١- إن كان اليأس إحدى الراحتين، فشقاء الأمل هو ما يجعل لحياتنا معنى.

٨٢- لا يفوق كراهيتي لتغيب وعي الإنسان إلا حُزني على جهله، واستسلامه لما يُفعل به. والغثيان الذي يولّده مرأى العبيد يحتفلون بـ «نصرٍ» كُرُوِيٍّ لا يخفف وطأته إلا دموعٌ حارقةٌ تتثال من أعماق الروح المجروح، لتزيد الوعي توهّجاً ومضاءً، وتفاقم مأساتي!

٨٣- ليست العلاقة الجنسية سبباً صلباً مُجرّداً للسعادة؛ لكنها مُكمّلٌ بشريٌّ/ طينيٌّ في ظل العلاقة الروحية.

٨٤- كتب العلامة السنهوري رحمه الله في مذكراته قبل هزيمة عبدالناصر بأسبوع (٢٩ مايو ١٩٦٧م): ما رأيت أنكى من أن يتصدى للدفاع عن الحق؛ رجلٌ قام على الباطل.

٨٥- تبدأ الحركة الإنسانية بالمكابدة الشعورية الجوّانية. فإذا سبقها النشاط الحسيّ، فاعلم أنها إلى زوالٍ قريب.

٨٦- السعادة كالدفع؛ إحساسٌ داخليٌّ ينبع من الإنسان ذاته. ومن يحاول استمدادها من خارجه، من الأشياء أو من الأشخاص المحيطين به؛ فلا يلبث أن يشقى.

(١) سورة لقمان: الآية ٣٤.

٨٧- التوق إلى العشق؛ عشقٌ ... مؤجل!

٨٨- الإنسان قطعاً لا يرى الحقيقة نفسها، ولا حتى ظاهرها. فحدود قدرته هي رؤية جزء من هذا الظاهر، وغالباً ما يرى الجزء الذي يرغب في رؤيته؛ المنسجم مع ميوله وأهوائه. وهذه الخصيصة سلبية وإيجابية، لكن إيجابياتها لا تظهر بوضوح إلا في حال الألق الفكري الذي يمتاز به نخبة المفكرين.

٨٩- أن تتذكر الرزاق، وأنت جائع؛ هو ما يحدث غالباً. أما أن تتذكر المنعم الذي أشبعك، فأمرٌ نادرٌ؛ فقليلٌ من عباده الشكور. إذا طعمت فقل: الحمد لله الذي منَّ علي بتجلي جوده من فيض خزائنه. الحمد لله الذي أطعمني، وسقاني بغير حولٍ مني ولا قوة. اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله.

٩٠- القراءة في جوهرها عملية إعادة تأليف لما نقرأ، وهو ما يجعلها تعتمد كلياً على الخريطة الإدراكية للقارئ، وعلى النموذج الكامن في لا وعيه. وقد كان جبران خليل جبران يرى أننا لا نكتسب معارفنا في هذا العالم، بل إن تجاربنا الحياتية تدفع فطرتنا لتفتق عن المعرفة المغروسة فيها منذ بدء الخلق. ولهذا يُمكنني الجزم بأن أعمال نجيب محفوظ الروائية -حتى التفكيكية منها- قد شحذت إيماني، ورسخت عمقه العرفاني.

٩١- ﴿وَلَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١). لا يمكن فهم هذه الآية إلا بفهم قوله ﷻ وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢). فالخلل المنهجي والمعرفي والشعوري الذي هو سمت أكثر أهل الأرض؛ هو المؤدي للضلال. يؤمن أحدهم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فإذا ابتلي في رزقه تراه يصرخ هليلاً: فلان يسعى لقطع رزقي! فأين توحيدك يا هذا؟! كيف يقطع أو يمنع من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً؟! إن جملةً بسيطةً كهذه قد انتقلت بتصوره من صفاء التوحيد

(١) سورة الأنعام؛ الآية ١١٦.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ١٠٦.

إلى درك الشرك بغير أن يُلقِي لها بالاً. ربِّها لهذا عَرَفَ رب العزة المهتدين الصابرين في سياق الابتلاء، بأنهم هم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١). فالإصرار على «القول» لأنه أول ما ينفث به الإنسان عن كربه، فإن ملكت لسانك ملكت ميزانك، وحفظت دينك.

٩٢- الحزن طاقة لا تَفْنَى ولا تُسْتَحْدَث. إنه روح الوجود الإنساني؛ ميراث آدم منذ عصى الله أول مرّة وأكل من الشجرة. فنحن لم نرث خطيئته، ولكن ورثنا حُزنه. ورثنا ندمه عائداً، وألمه آيئاً. إنه المصير الأزلي لبني آدم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٢). إن السعادة والراحة هما الاستثناء، أما القاعدة فهي المعاناة. وكما يقول أستاذنا علي عزت بيغوفيتش، فإن صراخ الطفل وشدة بكائه لحظة ميلاده؛ يكشف لنا طبيعة الحياة المفترض به أن يحياها!

إن الرضا الذي لا يذوقه إلا المؤمن، هو الملجأ والملاذ لبني آدم. إنه خيارهم. إن رضوا فلهم الرضا، وإن سخطوا فعليهم من الله السخط.

٩٣- أوقفني في الأعمال وقال لي: إنما أظهرتك لتثبت بصفتي لصفتك، فأنت لا تثبت لصفتي، إنما تثبت بصفتي، وأنت تثبت لصفاتك، ولا تثبت بصفاتك. (من مواقف سيدي ابن عبد الجبار النفري رحمته الله).
أي أنك لا تنفع ذاتك بذاتك وإنما بمدد قِيُومِيَّتِهِ عليه السلام، مع أنك لا تنفعه أو تُضره سُبحانه، لكنك عبدٌ إحسانه في طلبك النفع لذاتك، تلك الذات التي لا وجود لها بغير حفظه عليه السلام.

٩٤- أحياناً نألم ونعجز عن الكلام، وليس ذلك إلا لأن الإفصاح فعل تعرٍّ، فهو بطبيعته ليس مُمارسةً جماهيريةً يمكن اقترافها بمحضر كل أحد. إن الأصل ألا

(١) سورة البقرة؛ الآية ١٥٦.

(٢) سورة البلد؛ الآية ٤.

وربِّها لهذا السبب أبغض الاحتفالات وموسيقاها الصاخبة التي تزيدني اغتراباً، وأحبّ المآتم لأنها تُسبِّغُ على روحي سكوناً إنسانياً غامراً؛ سكون اليقين.

تتعري لمن يتعرى لك، تطبيقاً للقاعدة القرآنية: ﴿وَقَوِّ كَيْلَ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾^(١). فالإنسان يلجأ لمشورة شيخه أو معلمه، وليس لتلميذه -ولو كان نابغة- وذلك حفظاً للهيبة. ولا استثناء لهذه القاعدة إلا في حالاتٍ محدودةٍ كما يكون بين الأنداد -ولو كان بعضهم لبعضٍ مريدًا- أو بين الرجل وزوجه.

٩٥- إنا لا نجد في أعمالنا سوى أنفسنا؛ عاريةً بغير تزيينٍ ولا رتوشٍ. فعملك هو نزوعٌ شخصيٌّ؛ تحكمه أو يحكمك. وذلك راجعٌ لطبيعة شخصيتك، وقدرتك على قيادها أو الانقياد لها. ومدى سيطرة أشواقك على منازعك؛ سواءً كانت معلنةً أم مكبوتةً، يوجهها عقلك الباطن أو ذلك الواعي. فسبحان من اقتضت حكمته وعدله أن تكون أعمالنا مرايا وجوديةً صديقة! سواءً في لحظات ارتكاسنا وإخلاقنا إلى حماة الجبلّة الطينية، أو في لحظات تسامينا بالمعرفة تليها الرؤية. إنا في سعيينا الخيث لإحداث اتزان عنصريّ تكويننا؛ نحقق هدف وجودنا الأسمى. فتأمل كيف وجودنا محض صراع لإزالة تدّرن صورتنا وأوشابها من صفحات صحيفة إلهية؛ نرجو أن نلقاها بأيّماننا^(٢) مكرمين.

٩٦- قال الطاغوت الحجاج بن يوسف الثقفي عليه من الله ما يستحقُّ: إن امرأة ذهبت ساعةً من عمره في غير ما خلق له، لخليق أن تطول عليها حسرتة.

٩٧- لو أردت استخلاص منهج حياتي، لما وجدت أكثر دقةً من أبياتٍ للمتنبي يقول فيها:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيمٍ

(١) سورة يوسف؛ الآية ٧٦.

(٢) جمع أيان وهي اليمين.

٩٨- يُروى عن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن؛ عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة. فإن لم تجده في هذه المواطن؛ فاسأل الله أن يَمُنَّ عليك بقلبٍ، فإنه لا قلب لك.

٩٩- عن مولانا الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام أَنَّهُ قَالَ: الناس عبيدُ الدنيا، والدين لعقُّ بأطراف أَلستهم يحوطونه ما دُرَّت به معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء؛ قَلَّ الديانون^(١).

١٠٠- كُلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له؛ فمن خُلِقَ ليزحف لا يستطيع أن يطير، لكنه يستطيع أن يكون أفضل الزاحفين.

١٠١- الموت نهاية الحادث، ومن سُئِن الوجود آتَا نحرث أجدات الأجداد، لنغرس أقوات الأحفاد. إن الإنسان مُستأمنٌ؛ لا يحقُّ له تنمية وديعته إلا آكلًا بالمعروف حتى يُبعث أمينٌ جديدٌ. فعجبًا لخازنٍ يتبجح بقوله قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٢). ظانًا أنها أوتي ما لم يؤت العالمون؛ لمكانة تفرد بها كاذبًا. مُتناسيًا صيرورته جدنًا يُجرث وماءً يُشرب، بعدما جرى في موضع البول مرتين.

١٠٢- ووجدت أن الحبَّ ليس سوى علَّةٍ متوطنة! فأثما روح إلا تغشأها برقةٍ ونعومة خادعة حتى تلين لوطأته وتطمئن لمساكنته، ثم إذا هو قد كثر عن أنياب طاغوتٍ لا يرتضي بتوطيد أركان سلطانه وتثبيت دعائم هيلمانه بديلا، مُردداً قولة فرعون بلساني الحال والمقال في آنٍ جميعا: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣). غير عابئٍ بعوائقٍ أو عواقب. فإن أدركته رقةٌ لحال من افتقد أليفه، أو حيل بينهما؛ تعلق مُتخابثًا بقولة إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب، ٦/٢٦١٣.

(٢) سورة القصص؛ الآية ٧٨.

(٣) سورة غافر؛ الآية ٢٩.

فَأَسْتَجِبْتُهُ لِيْ فَلَا تَلُومُونِيْ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿١١﴾، فما عَجِبْتُ بعدها من قُدْرَةِ تلك العاطفة على إنزالِ أفدح الهزائم بأعنى الخلق.

١٠٣- إن الرحمة لا تلد سوى الرحمة، والتفهم لا يجلب سوى الراحة، والحدب لا يهديك إلا نفسه ولو تعددت المظاهر، فالباطن واحدٌ. إن هذا الجنس الشقي بما يستعبده لفي أشدّ الحاجة ليدٍ حانية حاسمة؛ تمسح على جروحه التي لا يراها، وإن كان يتلظى بألمها. صلى الله على مظهر رحمته، وعلى آله وصحبه وعترته.

١٠٤- اللهم إنك تعلم عجزنا عن حمدك بما يوافي بعض ما أسبغت علينا من فضلك؛ فاجعل مما تعلم شفيعاً لنا عندك مما يجب لك سبحانه.

١٠٥- اللهم إني أحمدك حمد من شرحت صدره ويسّرت أمره وحللت عُقدة لسانه؛ لتُنطقه بالحقّ وتقبله منه وتثقل به ميزانه، لتحسّرهُ خادمًا لنبيك وآله.

١٠٦- من حِكَمِ نجيب محفوظ العميقة، والمبثوثة في ثنايا رواياته:
- لا ينصلح حال قومٍ إلا إذا آمنوا أن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة.
- إن خرجنا سالمين فبرحمته، وإن خرجنا هالكين فهو العدل.
- ما بين كشف النقاب عن وجه العروس وإسداله على جثتها، لحظةٌ مثل خفقة قلب.

- جاءني قومٌ وقالوا إنهم قرروا التوقف حتى يعرفوا معنى الحياة، فقلت لهم تحركوا دون إبطاء، فالمعنى كامنٌ في الحركة.
- كُتِبَ على الإنسان أن يسير مُترنحاً بين اللذة والألم.
- الحمد لله الذي أنقذنا وجوده من العبث في الدنيا، ومن الفناء في الآخرة.
- ما نكاد نفرغ من إعداد المنزل، حتى يترامى إلينا لحن الرحيل.
- سيظلُّ الأملُ حيًّا ما دُمنا نُعجب بالأقوال الجميلة، ولو لم نعمل بها!
- الكمالُ حُلُمٌ يعيش في الخيال، ولو تحقّق في الوجود ما طابت الحياة لحيّ.

- كما نُحِبُّ تكون.

- علامة الكفر الضجر.

١٠٧- يقول سفيان الثوري: ليس للشيطان سلاحٌ مثل خوف الفقر؛ فإذا قُبِلَ منه أخذ في الباطل، ومُنِعَ من الحق، وتكلّم بالهوى، وظنّ برّبهِ ظنّ السوء.

١٠٨- من دعاءٍ لأعرابي: اللهم إني أعوذ بك من سقمٍ وعدواه، وذِي رحمٍ ودعواه، ومن فاجرٍ وجدواه، ومن عملٍ لا ترضاه.

١٠٩- يقول السنهوري رحمه الله: إن القانون لا يوجد إلا في تنظيم العلاقات فيما بين متكافئين؛ قوّة أو ضعفاً، أما حيث يتفاوتان، فالقانون هو القوة! (وجليّ أن الحديث هنا عن القانون الوضعي المنفصل عن أي مرجعيّة، فوظيفة «القانون» أصلاً -حسب الرؤية الكونيّة التوحيدية- هي حماية حق الضّعفاء).

١١٠- إذا كانت المصائب لا تأتي فرادى، فإنها تأتي طائفةً وتنصرف زحفاً!

١١١- لو كُلَّ كلبٍ عوى القمته حَجَرًا لأصبح الصخرُ مثقالاً بدينار!

١١٢- إن القُدرة على التجاوز تتطلّب خيالاً نشطاً، بل جامعاً في كثير من الأحيان. وهذا ما يفتقده غالباً أصحاب خطط الإصلاح الإجرائيّة من التكنوقراط والتنفيذيين حبيسي الواقع. إذ القُدرة على التجاوز هي أحد تجلّيات الرؤية الثوريّة ذات الطبيعة الرومانتيكيّة؛ إنها نزوعٌ راديكالي في جوهره، ومن ثمّ فهو يتعارض جُملةً وتفصيلاً مع نمط التكنوقراط المادّي الوقائعي الرجعيّ. لذا كانت قُدرة التكنوقراط على إحداث تغيير جذريّ، لصالح المجتمع؛ مُستحيلة. وأقصى ما يُمكن أن يطمحوا إليه هو إدارة الواقع بكُلّ عيوبه المثيلة وفساده المترسّخ.

١١٣- يُغازل لُطفي السيّد الاستعمار البريطاني صراحةً في مذكّراته، بل تصل به الرقاعة أن يتغرّل في اللورد كرومر، ويُثني على المعيّته وفضله على مالّيّة مصر. إن القارئ الذي لا يعرف «جنسيّة» لُطفي السيّد يتصوّرهِ بريطانيّاً للوهلة الأولى! وما

يزيد الطين بلةً أنه يحمل على فكرة الجامعة الإسلامية ودُعائها -بغير ذكر أسماء- برغم أنه يزعم التلمذ على الأفغاني ورُفقة مصطفى كامل، الذي أسرف في امتداحه بغير مسوغ! بل إنَّه يعتبر أن فكرة الجامعة الإسلامية ما تمخَّص عنها إلا دماغٌ سقيم؛ لأنَّ الناس «لا يجتمعون إلا على مصالحهم»! أما موقفه من عرابي فغاية في الطرافة؛ فهو ينتقد خروجه على الخديوي «الهادئ»، بغير مصلحةٍ عامةٍ للأمة! ويسخر من سذاجته وعدم قدرته على تقدير قوَّته، مما دفعه للوقوف بوجه الإنجليز! وهذا هو «أستاذ الجليل» الذي يُصدَّر للريادة، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

١١٤- من دُرر ابن الرومي التي تنضح حكمةً، قوله:

لا تعجبن لمرزوقي به هـوج حظاً نَحْطَى أصيلاً الرأي أطرافا
فخالقُ الناسِ أعراءَ بلا وبرٍ كاسي البهائم أوباراً وأصوافا

١١٥- الألم «فكرة» يُمكن مقاومتها بفكرةٍ أشدَّ منها إلحاحاً، وأقوى منها سيطرةً على النفس. واللذة سكرةٌ لا يُمكن مقاومتها إلا بوخز فكرةٍ مؤلمة!

١١٦- كُلُّما ازداد إبهارُ الصورة؛ انخفض مستوى المضمون إنسانياً.

١١٧- الفنُّ الحقيقي خلقٌ لا عقلائيٌّ بطبيعته؛ ينبثق من الحسِّ والشعور. إنَّه نزوع الضمير، ومرآة الروح الإنساني. لذا؛ فإن أي نقدٍ «عقلاني» يفشل في استكناه الظاهرة الفنية، وأقصى ما يطمح إليه هذا النقد هو تناول «المنتج» الفنيِّ البرَّاني، وليس العملية الإبداعية الجوانية. هذا المنتج البرَّاني -على أهميته- هو الأدنى قيمةً في العملية الإبداعية كُلِّها، بعد أن انفصل عن الفنان وأصبح له وجوده المادي شبه المستقل. إن جوهر العملية الإبداعية ولُبُّها هو حالة التوهُّج الشعوري المصاحب لعملية الخلق الفني؛ ففيه يكمن سرُّ العملية الفنية كُلِّها بل سر الإنسان نفسه.

١١٨- اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تُفقرني بالاستغناء عنك، واجعل دوام معيَّتكَ لي سنداً لا أحرمه، ونظركَ إليّ توفيقاً لا أفتقده. اللهم إني أسألك أن تبسط لساني بشكر النعمة منك، وأن تُثبَّت جناني عند الابتلاء بزواها.

١١٩- «الحق الأديب الفرنسي بلزك بأحد رواياته الشهيرة مُقدّمة أقل شهرة؛ حاول فيها تحليل الإنسان باستخدام أساليب علميّة وضعيّة. ومُقدّمة بلزك هذه مثّل مناسب على إخفاق المنهج العلمي في تناول الحياة الجوانية للإنسان. ولذلك وجدنا فصامًا تامًا بين ما وصف به المؤلف الحقيقة الإنسانية في روايته: الكوميديا الإنسانية؛ الذي كان وصفًا مُخلصًا حيًا، وبين التفسيرات الفكرية لمصائر البشر كما أوردها في مُقدّمة الرواية». (مقتطف من كتاب علي عزّت بيغوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب)

وتعليقي هو: تبدو هذه الثنائية أيضًا في أدب نجيب محفوظ، وآرائه الفكرية والسياسية. ففي حين ينبض أدبه بالحياة الحقيقية ويتجلّى بين ثناياه حسّه الفني الفطري الرفيع، فإن آرائه الفكرية تنضح بالسذاجة والسطحية، وتكشف عن تبنيّه لفلسفة مادية براغماتية تُهيئه للتكيّف مع الواقع أينما كان. وهذا هو الفارق بين المستويين: الفني الكامن، والفلسفي الواعي. فالمستوى الكامن عند الأديب أكثر صدقًا وإنسانيّة، بينما المستوى الواعي قد يعكس شخصًا ضحل الإنسانية، أو على الأقل ذي توجهٍ ماديٍّ - بالمعنى الفلسفي - متوحّش ومُعادٍ للإنسان. ولعلّ أسلوب مُحمّد المخزنجي - في خلطه للخيال بالواقع، والأدب بالوقائع - في مقالاته التي تعالج الموضوعات الفكرية والسياسية، هو المخرج العبقرى الوحيد من هذه المعضلة.

١٢٠- العلم ينتمي إلى عصره فحسب، أما الفن فيتنمي لجميع العصور.
(علي عزّت بيغوفيتش)

١٢١- الندم شعورٌ حارق، يكوي الفؤاد بصديد الغصّة التي يُسكنها الحلق. وهو شعورٌ يجعلك تحلم بالمستحيل؛ بأن يعود الزمان القهقري حتى تُعيد اختيارك، وتشطب ما كان في سجل الوجود. وبرغم سخافة الشعور بالندم، إلا أنه دليلٌ حيٌّ على إنسانيتك وحرّيتك ومسئوليتك عن أفعالك. ودليلٌ أكثر حيويّة على أن الإنسان كائنٌ حادثٌ مُتناهٍ؛ يتغيّر ويتبدّل، ويكتسب مزيدًا من المعارف والخبرات بمرور الزمن. لو كان الندم رجلاً لقتلته، ولو لم أكن إنسانًا ما عرفته!

١٢٢- كُلُّ أَصْحَابِ الرِّسَالَاتِ ذَلِكَ الرَّجُلُ. فَأَيُّا مُبَشِّرٍ بِرِسَالَةٍ إِلَّا وَقَدْ أَفْرَغَ لَهَا نَفْسُهُ حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ، دَارِسًا مُتَأَمِّلًا مُتَمَكِّنًا؛ ثُمَّ صَدَحَ بِهَا بَعْدَ أَنْ تَجَسَّدَتْ فِيهِ حَيَّةٌ تَنْبُضُ، قَدْ وَقَرَتْ فِي قَلْبِهِ وَصَدَّقَهَا عَمَلُهُ.

١٢٣- أَرَأَيْتَ إِلَى مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي بَلَغَ عَنْ رَبِّهِ، ثُمَّ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ عَنْ يَقِينٍ: ﴿ فَتَذَكَّرْتُمْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(١). يُخَبِّرُنَا ﷺ بِمَصِيرِهِ الْمَقْدُورِ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا مُبَاشَرَةً: ﴿ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سِجَّاتٍ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سَوْءُ الْعَذَابِ ﴾^(٢). فَاللَّهُمَّ اكْتُبْنَا مَن بَلَغَ عَنْكَ وَعَنْ رَسُولِكَ ﷺ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَرْضِيهِ، ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْكَ أَمْرَهُ بِهَذَا الْإِخْلَاصِ؛ فَوْقِيته بِحَوْلِكَ سُبْحَانَكَ سَيِّئَاتِ مَكْرِ الْمَاكِرِينَ.

١٢٤- النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: مُحْتَاجٌ لِلظَّلَامِ، وَمَعْتَادٌ عَلَى الظَّلَامِ، وَكَارِيَةٌ لِلظَّلَامِ. الْأَوَّلُ لَصٌّ قَحٌّ؛ يَسْطُو عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْعَقَائِدِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَفْكَارِ، بَلْ وَعَلَى بِلَادٍ بِأَكْمَلِهَا... وَهُمْ كُثُرٌ. وَالثَّانِي، وَهُمْ الْقَاسِمُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْقَطِيعِ الْبَشَرِيِّ الْخَانِعِ، ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ؛ الَّذِينَ اعْتَادَتْ أَعْيُنُهُمُ الظَّلَامَ فَتَكَيَّفُوا مَعَهُ، وَسَاهَمَ هَوَانُهُمْ فِي تَمْكِينِهِ الْمَشِينِ.

أَمَّا الصَّنِفُ الثَّلَاثُ فَهُمْ أَهْلُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ؛ الَّذِينَ انْقَسَمُوا بِدَوْرِهِمْ لِفَتْنَتَيْنِ: أَوْلَاهُمَا الْعَارِفُونَ لِلطَّرِيقِ؛ الْعَامِلُونَ الْمُجَاهِدُونَ. وَثَانِيَهُمَا اللَّاعِنُونَ الْقَاعِدُونَ عَنْ جُبْنٍ أَوْ عَنْ عَجْزٍ أَصِيلٍ... فَتَأَمَّلْ أَيْنَ تَقِفُ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ!

١٢٥- قَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ أَشْبَارٌ؛ فَمَنْ نَالَ مِنْهُ شَبْرًا شَمَخَ بِأَنْفِهِ وَظَنَّ أَنَّهُ نَالَهُ. وَمَنْ نَالَ الشَّبْرَ الثَّانِي؛ صَغُرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَعِلْمُ أَلَمٍ يَنْلَهُ. أَمَّا الشَّبْرُ الثَّلَاثُ؛ فَفِيهِاتِ لَا يَنْالُهُ أَحَدٌ أَبَدًا.

(١) سُورَةُ غَافِرٍ؛ الْآيَةُ ٤٤.

(٢) سُورَةُ غَافِرٍ؛ الْآيَةُ ٤٥.

١٢٦- إذا أجرى الله الحق على لسانك في محضر المعاندين من أهل الباطل؛
اتَّهَمْتَ بالطمع فيما عندهم!

١٢٧- لا تنظر لضيق المنظار ذاته، ولكن إلى سعة الأفق الذي يغطيه.

١٢٨- الخوفُ شعورٌ نبيلٌ، وهو يؤكد إنسانيتك ومحدودية قدراتك البشرية المجردة. ويظلُّ الخوفُ شعورًا مقبولًا، ما لم يُخالطهُ إحجامٌ ينقلُهُ مردولاً مُستهجنًا لخانة الجبن. ولا توجد طريقٌ مُحييُّكَ النكوص الجبان إلا حُسن استحضار المعية الإلهية. أن توقن بأنك لست وحيدًا في هذا الكون المترامي، وأن عين العناية تكلاًك حتى في أوقات غفلتك. إن العالم الخالي من الإله مَوَّغِلٌ في وحشته ثقيلاً وطائئ، داعيةٌ للإخلاد إلى الأرض استسلامًا للأوهام. لهذا حرص المولى سبحانه على تربية صحابة نبيه إيمانًا قبل أن يسمح لهم برد العدوان، فأمسى أغلبهم يرى الغيب ببصيرة الشاهد. وحين تم نُصَجهم جاءت سورة الأنفال عقب بدر الكبرى -أول اختبار عسكري حقيقي لهم مع الشرك- مُباشرة؛ تُحذِّرهم من التولي وقت الزحف إلا تحرفًا لقتالٍ أو تحيزًا إلى فئة^(١). فتساموا على شعورهم الإنساني، بل إن منهم من نسيه؛ لتتحقق حالة فريدة في التاريخ الإنساني. فهُمْ لم يتبلَّدوا جرأً طول مُعايشة القتال، ولكنهم نسوا مخاوفهم قبل بدئه أصلاً. صلى الله على من ربَّاهم.

١٢٩- قال لي ربِّي: انظر يا عبدي. هذا عبدٌ مثلك، تنساه؛ فيسخطك. وأنا الذي لا إله إلا أنا، تنساني؛ فأذكرك.. تغفل عني؛ فأحلمُ عنك.. تعجز عن شكري وتقعد عن معرفتي؛ فأشملك بعين رعايتي.. فهل عاينت بعضًا من كرمي؟

١٣٠- لا يُمكن إدراك المعنى الحقيقي للحرية في ظل غياب الإله. لماذا تكتسب الحرية هذه القيمة كمثال ذي طبيعة ميتافيزيقية يطمح إليه كلُّ أحد؟ ما الذي يجعل الإنسان يرنو إلى التحرُّر من المادَّة إذا كان ابنًا فحًا لها وعبدًا لصيرورتها؟! إن الحرية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الْفِرْعَوْنَ فَكْرُوهُ إِذْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ أَكْبَرُ ۖ فَلَا تَقُولُوا لَهُمْ أَلَا نَحْنُ بِالْأَكْبَرِ ۚ﴾ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِدُبُرِهِ إِلَّا مَنْحَرًا لِقَائِهِ أَوْ مُتَحَرِّيًا إِنْ يَنْتَرِ فَقَدْ بَدَأَ بِفَضْسٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَشَى الْفُجُورَ ﴿[سورة الأنفال: ١٥، ١٦]

تقتضي الخلق؛ خلق آدم على صورته والنفخ فيه من روح الله. وهو ما لا ينسجم مع أوهام «التطور» الداروينية؛ التي يُمسي فيها الإنسان جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة؛ مفعولاً به وضحيةٌ أبدي الخضوع للظروف المادية البرانية. إن الذي يُحرك الإنسان لطلب الحرية وتجاوز واقعه ليس طينه، بل نفخة الله: ذلك السرُّ الأزلي. إن كلَّ مؤمنٍ بالحرية صادق الإيمان هو مؤمنٌ بالالوهية؛ سواءً عرف أم لم يعرف، أراد أم لم يُرد.

١٣١- يذكر الشيخ حافظ سلامة في مُذكراته حادثة ذات دلالة غاية في الأهمية. فحين بدأ العدوان الإسرائيلي على مُدن القناة إبان حرب الاستنزاف وتمَّ تهجير أغلب السُكَّان؛ كان موظفو الأوقاف في طليعة المهاجرين، وذلك في الوقت الذي كان المرابطون هناك بأشد الحاجة لهؤلاء الدعاة/ الموظفين! وهذا هو حال الدعوة إلى الله حين تُحتزل في وظيفة/ مؤسسة يقتات منها الإنسان، ليتوارى أصلها الرسالي. العكس تماماً يورده المجاهد الجليل في مُذكراته عن الإمام عبدالحليم محمود، والذي لم يكن يتقاضى راتبه من الأزهر؛ بل كان يوزعه على الطلبة المعوزين، ويُنفق على أسرته من ثمن بيع أرض ورثها عن والده بناحية بليس.

١٣٢- لحياتنا الدنيا أبعادٌ ثلاثة: طولٌ، وعرضٌ، وعمقٌ. فإن كُنَّا لا نستطيع التحكم في طولها لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن نأتي ونذهب بغير اختيار - وإن لم نعدم الإنذار - فإننا نملك دوماً القدرة على تغيير مقاييس البُعدين الآخرين، من حيث كونها المؤثرين بشكل مباشر في تشكيل نمطنا الحيويِّ مناط التكليف. فكلُّنا يمتلك قدرةً على أن يميزاً عريضاً حافلاً بالأحداث، ووجوداً ثرياً بأفكارٍ ومشاعر عميقة مُتجذرة، أو أن نختار حياةً خاملةً راكدةً محدودة الاهتمامات، كشخصياتٍ سطحية لا تكاد تشغل حيزَ الهامش!

١٣٣- كل الشخصيات القلقة في تاريخ الإنسانية هي شخصياتٌ عظيمةٌ، إن عاجلاً أو آجلاً! وذلك بشرط أن يكون القلق وجودياً حقيقياً مُتعلقاً بتحقيق الإنسان، وبموقعه من الوجود. وهذه الشخصيات لا تولد غالباً في البيئات الهادئة

الهائلة، بل تشكّل في خضم أحداث وتحوّلات اجتماعيّة كبرى تختلط فيها وطأة العام بمرارة الخاص؛ فتصهرها المعاناة لتكشف جوهرها الثمين. وقريبٌ من ذلك ما ذهب إليه أستاذنا علي عزت بيغوفيتش من أن كُلاً من الدين والثورة يزدهران في مخاض من الألم والمعاناة، ويحتضران في الرخاء والترف.

١٣٤- الفن - حتى المنحط منه - تجربةٌ دينيّةٌ في جوهره، فقد سمّى الله ﷻ مكاء المشرّكين وتصدّيتهم عند المسجد الحرام،^(١) بالصلاة!

١٣٥- الفن خلقٌ وإبداعٌ، وكل خلقٍ وإبداعٍ إنساني وليد شعورٍ بالنقص والحاجة لمفتقّد، للمتوفر لا نحتاج لإيجاده.

١٣٦- الإنسان لا يثور بسبب الفقر أو الظلم كمجرّداتٍ فلسفيّةٍ أو حتّى كوقائع ماديّةٍ على الأرض، بل يثور حين يستشعر الفقر أو الظلم كأنهما وقعا عليه، وإن لم يحدث هذا فعلاً. وبعبارة أخرى، يُمكننا سحب تعريف القدماء للأدب بأنه «تجربةٌ شعوريّةٌ»؛ يُمكننا سحب ذات التعريف على فعل الثورة. فالثورة بالأصل هي تجربة شعوريّةٌ جوّانيّةٌ تبدأ بالانفعال والاهتياج الشعوري، ولا تبدأ من التطلّعات أو الوقائع الماديّة، فقد تكون الثورة لظلم وقع على «الغير» لكن الثائر يستشعره موجّهاً له ولإنسانيته. إنه لا يسعى لتحقيق غرضٍ ماديٍّ محدّد، بل للثأر لمن وقع عليه الظلم؛ حالة «كلنا خالد سعيد» في مصر أنموذجاً. يؤكد ذلك الفيلسوف الراحل علي عزت بيغوفيتش؛ حين يذهب إلى أن كلّ ثورةٍ حقيقيّةٍ هي عضوٌ في أسرةٍ كبيرةٍ تميّز بسمات: الإيمان، والشعور المتضخّم بالقوّة، والأهميّة، والرغبة الجيّاشة في التضحية، والموت. إنها مشاعر أبعد ما تكون عن نطاق المصلحة الماديّة الضيّقة. إن أي شخص كان له دورٌ في ثورةٍ أو تابعَ تطوُّرها عن قُرب؛ يستطيع أن يؤكّد هذه الملامح الأخلاقيّة. إنّه يرى الثورة كقصيدةٍ ملحميّةٍ ذات طبيعةٍ ميتافيزيقيّةٍ، وليس فقط كآليّةٍ لتدمير أو تغيير الآلة الحاكمة. وهذا يُفسّر لنا حماس الشعراء والفنانين والمتديّنين للثورة. إن

(١) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ سورة الأنفال؛ آية ٣٥.

المُجتمع الذي تُسيطر عليه مشاعر التضامن، والتضحية، والمصير المشترك؛ يُعتبر في حالة دينية. إن المجتمع العاجز عن التدنُّين، هو أيضًا عاجزٌ عن الثورة. والبلاد التي تُمارس الحماس الثوري؛ تُمارس نوعًا من المشاعر الدينية الحية. إن مشاعر الأخوة، والتضامن، والرغبة في العدالة هي مشاعر دينية في صميم جوهرها، مشاعر توجهها الثورة لتحقيق العدالة، وإقامة «الفردوس الأرضي»!

١٣٧- إن مأساة الإسلاميين في الثلث الأخير من القرن العشرين لم تكن ممارستهم للعنف، بل إنهم لم يستخدموا ما يكفي من العنف في مواجهة الدولة المطلقة التي قوّضت الإنسان من المحيط للمحيط! وكلُّ العنف الذي مورس باسم الإسلام إمّا كان موجّهًا من أجهزة الاستخبارات لاتخاذ ذريعة لضرب الإسلاميين، أو وجّهه الفقه الساذج باتجاه المدنيين العزّل. لو كان هذا العنف قد أُحسِن توجيهه منذ ثلاثين عامًا، لما كانت الحركات الإسلامية اليوم مفعولًا به، ثمّ فاقداً لمُبرر وجوده بعد اندلاع الثورات الشعبية التي قوّضت الأنظمة العميلة. إن «الثورات» العربية برغم إجهاض مسيرتها؛ قد كرّست نمط التيارات الاجتماعية الأفقية، وقوّضت عملياً نمط التنظيمات الهرمية الوثنية؛ إلى أجلٍ مُسمّى!

١٣٨- سألتُهُ: هل ستظلُّ تُحبّني بنفس الحرارة، أم ستبرُد عاطفتك يوماً؟ فأجاب: بل ستبرُد حتماً يا حبيبتي، فهي من الطين للطين، والطين يُبرُد بعد الحصاد. فسألتُهُ في هلع: أوجرؤت على نُطقها؟ فأجاب بأسماً: أوأملك تغييرها يا حبة القلب؟ أليس يعقُب الليل النهار؟ أوليس لهيبُ النار إلى خمودٍ مهما طال استعارُهُ؟ إنها لو لم تبرُد في حياتي، فستبرُد بموتي. فنظرت إليه في حزنٍ راجية: لا تتحدّث عن الموت! فاحتواها بعينيه وقال: بل أتحدّث عن الخلود يا عين الحياة. إن الموت والحياة أعراضٌ زائلةٌ، وأنا أحلُم بالخلود. إن رماد هذه النار الخامدة هو التربة التي سنحرثها لنغرس قوت الأحفاد. فيتعاقب الليل والنهار ليُنضجاً ويحصدًا. إن البذر والحصاد أعراضٌ، وأنا أريدك في وجود لا بذر فيه ولا حصاد، ولا أعراض فيه ولا فساد، ولا حرارة ولا برودة... الوجود الأمثل.

١٣٩- الرغبة المرضية في الهروب والبدء من جديد، من نقطة صفر افتراضية، من عالم مستو أملس بدون نتوءات ولا بروز؛ هي رغبة إنسانية فطرية لها صفة الديمومة عند من تُمسك بخناقها، وهي فرعٌ عما سَمَّاهُ أستاذنا المسيري بالنزعة الجنينية... آه من عالم ما فيه إلا الكبد.

١٤٠- «النساء كقطرات الندى؛ يقع بعضها على غصنٍ ناضرٍ فيمتصّها ونحيا له، ويقع البعض على غصنٍ جافٍ إذا هزّه الهواء سقطت عنه إلى الأرض»؛ خليل مطران.

١٤١- ما أشدَّ غرور وسخافة البشر؛ يُسمُّون الشيءَ عدماً لانعدام قدرتهم على إدراكه، وقد يكون عند خالقه سبحانه وجوداً أكمل لا تُحيط قدراتنا بصفاته.

١٤٢- كان قابعاً في الظلال، لأنه إلى الظلال يعود! (وصفٌ مسرحيٌّ من مسرحية لا أذكرها).

١٤٣- الحكيم هو الشخص الذي ارتكب كُتاً ضخماً من الحماقات، وظلَّ حيّاً حتى فقد القدرة على ارتكاب المزيد؛ فما ندم على إنسانيّته، بل تحسّر على فوات قدرته!

١٤٤- اللهم استعملني ولا تستبدلني، وأجر الحق على لساني وثبت جناني، واقبضني راضياً بك مُشتاقاً للقائك.

١٤٥- لا تُعرف قيمة الشيء إلا بفقده، وكم تُفاقم حسرة الجهالة من ألم الفقد!

١٤٦- الموت والحبُّ والشعر يُضفيان المعنى على الوجود الإنسانيّ. الأوّل عينُ اليقين؛ نفرُّ منه لتلاقيه. والثاني عينُ الوهم؛ نطلبه ليملاً وجودنا المؤقت بالحياة. والثالث هو سيرةُ تأرُّجنا بين الوهم واليقين!

١٤٧- إن إجلال بني آدم، حتى أعتى الملحدّين منهم، واحترامهم للموت؛ هو إيمانٌ خفيٌّ ظاهره احترام الحياة الإنسانية (النزعة الهيومانية)، وباطنه تمام الإذعان

للمشيئة الإلهية القاهرة. إن الإنسان لا يستطيع أن يكون مُلحدًا قحًا ولو أراد، لكنّه قد يكون مُشركًا، فالشرك أقرب لتركيبته الإنسانية وتكوينه الربّاني!

١٤٨- الاستسلام للهوى يؤجج صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، أما الانشغال بالصراع مع النفس (صراع الخير والشرّ الجوّاني) فهو مفتاح السلام البرّاني مع الآخرين. لذا بدأت كل الدعوات الدينيّة بالإصلاح الجوّاني؛ تقويم الخلق واستقامة الطويّة، فهذا هو الباب الإنساني الوحيد للسلام البرّاني. أن تمتنع عن إيذاء أخيك الإنسان رحمةً به، ألا تمكّن عينيك إلى ما مُتّع به غيرك صوتًا لقلبك من الحقد والحسد، أن تُعطي من رزقك تزكيةً لنفسك ... إلخ. إن الذين ينقادون لأهوائهم/ شهواتهم هم أصحاب رؤية طوباويّة عميقة؛ فالخير والشرّ عندهم برّانيّان، ومن ثمّ كان الصراع مع «الآخر» برّانيّا، وهذا هو جوهر المنظومات الوثنيّة والشركيّة على مدار التاريخ: الثنويّة البرّانيّة!

١٤٩- لُفّقت «الوسطيّة» تلفيقًا لمواجهة «السلفيّة» المختلفة، ولا بواكي للإسلام في هذه المباءة!

١٥٠- كانت وثنيّة العرب في جاهليّتهم الأولى تنطوي على قدرٍ من التجاوز، فقد عبّدوا الكواكب التي كانت رؤيتها ممكنةً بالعين المجرّدة في تلك السماء الصافية. لقد منحهم صفاء نفوسهم قدرًا من الصدق مع نفوسهم، فاعترفوا بشركهم وبأسبابه، وأصرّ بعضهم عليه كبرًا وعنادًا، لذلك كانوا خيارًا في جاهليّتهم وفي إسلامهم كما شهد بذلك الصادق المعصوم. فخلف من بعدهم خلف ذابوا بالكامل في «لذة» استهلاك سلع الغرب؛ التي حجبت آفاقهم بسُحب كثيفةٍ من التلوث البيئي والروحي، فعبّدوا «لذتهم» التي صارت آلهتهم الجديدة. إنهم لا يستطيعون رؤية السماء، فدون ذلك بطونٌ وفروجٌ، و«شركاتٌ» معبودة! إن جاهليتنا الحاليّة أسوأ وأكثر إظلامًا وضلالًا من جاهليّتنا الأولى؛ إنها جاهليّةٌ يظنّ طليعتها أنهم «مهيدين» في طريقهم للتمكين. إنهم يصدّون عن سبيل الله من حيث يحسبون أنهم يدعون إليه. إنها ردّةٌ خفيةٌ بغير إيمان أبي بكر، و«فتوحٌ» للعالمية مكدوبةٌ بغير قوةٍ عمر، وثرواتٌ طائلةٌ بغير نظافةٍ عثمان، وفتنةٌ بغير تقوى عليّ. ولا حول ولا قوةٌ إلا بالله.

١٥١ - ليس الإخلاص بهدفٍ إيمانيٍّ نسعى للوصول إليه، ومن ثمَّ الإبقاء عليه أو تجاوزه. إنما الإخلاص هو محاولتنا الدائمة والأبدية داخل التاريخ، لتصفية النية وإخلاص العمل لله وحده؛ قد ننجح مرَّةً ونفشل مرَّاتٍ. إن المحاولة المخلصة في حدِّ ذاتها هي ما تعبَّدنا الله به، وليس النتيجة. إن الكبد المخلص في العروج إليه، وليس الوصول إليه ﷻ؛ هو عين التكليف. فالإخلاص ليس «حلًّا نهائيًّا»، وليس طويلاً يُمكن بلوغها داخل التاريخ فتنتهي بها كل مشاكل المؤمن. إن الإخلاص ليس مقامًا، بل هو حال الساعي أبداً لإدراكه.

١٥٢ - كان سيِّدنا الشافعيُّ رحمه الله، يقول: من العصمة ألا تجد (يعني ما تعصي الله به). ويُضيف الفقير لرحمة ربِّه ومغفرته أنه: من العصمة ألا تغترَّ بالعصمة، فوالله ما حملت على عاصٍ (بغير مراعاة لضعفه الإنساني كما يفعل بعض المنتطِّعين) إلا كُسرَتْ بذات المعصية. وما نظرتُ في ذنوب الناس بروح الربوبية إلا أذلني الله بمعصية تُعيدني مُنكسراً لحظيرة العبودية. وصدق المسيح ابن مريم عليهما السلام، فيما رُوِيَ عنه؛ أنه قال: لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيدٌ، فإنما الناس مُبتلى ومعافى. فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

١٥٣ - في مثنويِّ العبقريِّ الفدَّ نجيب محفوظ أرثي لجيلٍ كاملٍ من المصريين؛ الذين مُسخت لُغتهم وانحطَّت تصوُّراتهم. إن الجيل المنكود الذي حمل كلام سيِّد قُطب على أنه تكفيرٌ للمجتمعات؛ هو نفسه الجيل المتشعَّى الذي وقف بعضه على ظاهر نصوص نجيب محفوظ واعتقد بكُفْره. بل ولم يكتف بذلك، فاعتبر الكُفر ذاته مقامًا نهائيًّا ذي طبيعة طوباوية، ومن ثمَّ فهو ليس قابلاً للنقض ولا للمراجعة. إن هذا الجيل يعشق اللغة الفقهيَّة الرياضية اللانسانية، والتي يلتصق فيها الدالُّ بالمدلول، فوعيه قاصرٌ عن إدراك اللغة الإنسانية/ القرآنية. إنَّه جيلٌ ذو بُعدٍ واحدٍ لا يعرف رحابة الإنسان ومن ثمَّ رحابة لغته الإنسانية/ القرآنية، لذا فهو غير قادرٍ على تذوقها، ولهذا السبب كانت محاولاته «النهضويَّة» عبثية؛ تصطدم بواقع مادِّيٍّ لا يستطيع تجاوزه، فيتهاهى معه ويخضع له، ويُصبح جزءاً منه لا يتجزأ. إن الجيل

الذي لم يعرف التغيير كحركة شعورية جَوَانِيَّة يتشكّل بها الوجدان قبل أن تصطدم بالأوثان، ولم يؤمن بقدرتها على خلق واقعه، هو جيلٌ ليس بقادرٍ على تذوّق الأدب الرفيع، ولذا فهو عاجزٌ عن تدبُّر القرآن. لقد كان هذا الجيل السقيم الذهن نكبةً على الأُمّة، ولا أمل في صلاح أحوالها إلا بانقراضه. وقد انعقد أُملي على جيلٍ قادمٍ آمن بالتربية كتغيير، وعرف معنى تجاوز الواقع بتزكية نفسه ولو ارتكس العالم من حوله في الإثم؛ فذاق حلاوة إنسانيّته التي فطر الله الناس عليها. إن مثل هذا الجيل لا بُدَّ عائدٌ للقرآن طال العمر أم قصر. سنّة الله في خلقه.

١٥٤- «الناس» طاغوتٌ خسيسٌ، والخروج على الحاكم يجب ألا يكون في سبيلهم، بل في سبيل استعادة القيم الإلهية؛ الحرية والعدل للجميع، وعلى رأسهم العبيد الخانعين، والمنافقين، والمبطين، بل والمشرّكين. إن أمانة استعادة هذه القيم والحفاظ عليها كحقٍّ أصيلٍ لكلّ بني الإنسان هو واجب العُصبة التي ابتعثها الله لهذا وهياها للقيام به. إن رضا الناس وسعادتهم لا يجب أن يكونا هدف هذه العُصبة المربطة. إنه ليس هدفنا التماهي مع الواقع أو مداعبة شهوة الإخلاق إلى الأرض التي تجذب بني آدم إلى الطين. إن هدفنا هو الارتقاء بالناس للإنسانيّة الحقّة؛ بإرشادهم لاستكمال عبوديتهم لربهم الحق. إن هذه العبودية تتحقّق بمُجرّد ضمان هذه القيم لبني الإنسان؛ ولو توجّهوا بشعائر العبادة لغير الله؛ فأشركوا معه أو من دونه شيئاً. إن عبوديتهم لله تتحقّق برّد الأمانة، وليس بإكراههم على الديانة.

١٥٥- في عالم سائل بلا مركزٍ، يتحوّل مشروب «بريل» لمركز بديل للشارب؛ مركز يحمل نفس الدلالة الذكوريّة المسوخة أصلاً! وفي نفس العالم الذي يتشياً الإنسان فيه وتآكل حياته الخاصّة بعد أن تحوّل لكائنٍ «عموميّ»، تصير برامج تلفاز «الواقع» وألعاب الواقع الافتراضي، بديلاً يتحقّق من خلاله الضحيّة/ الإنسان الشيء، بعد أن عجز عن التحقّق في الواقع! إنّه نفس عالم الخلاص الفردي البيوريتاني/ السلفي ذي الطبيعة البرّانيّة، عالمٌ متمتّز فيه اللحى الكثة بالبرغر والقهوة الأمريكيّة! وهو ذاته العالم الذي تُروّج فيه أسطورة البروتستانتية/ الإخواني الذي

قام بترشيد نفسه فحقق «الترأحم» الرأسمالي، ليتنقل من لبس المسوح إلى بيع أفخر الحلل الغربية! إِنَّهُ عالمٌ كتيبٌ موحشٌ ممسوخٌ لا أحب أن أعيش فيه، وسوف أقوم بتغييره!

١٥٦- أشد القلوب قسوةً هو أشدها غفلةً عن ذكر القدوس. والذكر الذي أقصده ليس تمتات الشفتين فحسب، بل عمل الجوارح في طاعته ﷺ بإخلاص. إنه ذكرٌ من صميم الذكر، وعبادةٌ من صميم العبادة. وقد ذكر رب العزة أن قلوب بني إسرائيل كانت كالحجارة أو أشد قسوة، وما ذلك إلا لغفلتهم الكاملة وإخلادهم إلى الأرض، وتعلق قلوبهم بالأسباب حتى عبدوها من دون المسبب. ذلك الغلو الذي جاءت رسالة المسيح ﷺ لَتُخَفِّفَ منه، بذكر المولى سُبْحَانَهُ والحث على الزهد توكُّلاً يُعيد القلب إلى مداره الفطري طَوَّافًا في آيات الله. إن قسوة القلب مُعلَّقةٌ بقضاء الشهوات؛ الطعام والسلطة والثروة. وكلها تفعل الشيء نفسه حين تُقضى. لكن الشهوة الوحيدة التي لا يقسو قلب مُلَبِّئِها، بل يرقُّ؛ هي الزواج.

١٥٧- واللا دينيون العلمانيون ومنتقدو الإسلاميين هم أكثر منهم جهلاً وأكثر سطحيةً للأسف. ودنوا لو كان من هؤلاء من جاء بخلفيةٍ فقهيةٍ أو كلاميةٍ، ليكون لنقده وزنٌ وقيمةٌ يُعتد بها برغم الخلاف.

فإذا كان الإسلاميون يجهلون حقوق الكافر الاجتماعية، فإن أعداءهم يجهلون معنى الكفر أصلاً، بغض النظر عن «ممارستهم» إياه. وإذا كان الإسلاميون يتخبطون بمفاهيم مُلتبسةٍ عن الجهاد، فإن أعداءهم لا يعرفون عن الجهاد إلا أنه حربٌ صليبيةٌ «مُقدَّسةٌ» على النمط الغربي. وإذا كان الإسلاميون يعبدون تاريخ أسلافهم من دون الله، فإن أعداءهم يعبدون بعض أسلافهم ويتخذونهم مصدرًا للتشريع. فأياً «قَوَاد» تحدث عن الحجاب -مثلاً- قال: لم تكن أمهاتنا ترتديه، وقد كُنْ مسلماتٍ (على عَهْدَةِ القَوَاد!) ... وهل أملك من أمهات المؤمنين ليكون عملها دليلاً يا ابن الفاعلة!!

وإذا كان الإسلاميون يعتمدون في بناء معارفهم وتشكيل وعيهم على ما يكتبه مستشرقون جُدد في مدح الإسلام، أو ما «يجود» به شيخ طائفي أو مُفكر مُتخزب، فإن أعداءهم أجهل من الدواب للأسف. ولا يمكن قبول نقد الأدنى للأعلى ولو كان الأعلى بدرجة ابتذال الإسلاميين المعاصرين. ربما لهذا السبب لا تُثير آلاف الصفحات التي يُسوِّدها أكثر هؤلاء أدنى شغفٍ عندي. فهم ليسوا جاهلين بما ينتقدون فحسب، بل جهلهم بما يزعمون اعتقاده واعتناقه أبشع وأفحش.

إن معرفة الواحد من هؤلاء عن الإسلام لا ترقى لمعرفة مستشرق درجة ثالثة أو حتى لتلميذ في أحد أقسام الدراسات الإسلامية في أوروبا أو أميركا. وربما كان في ذلك الكثير من التجني على الطلبة والمستشرقين الأماثل... فإنما يكشف الواقع عن جهلٍ دونه جهل «أم قويق»...

وقد روى لي صديقٌ صدوقٌ أن أستاذنا الدكتور سيف عبدالفتاح -متمعه الله بالعافية- كان يتحدث عن رغبته في تدشين «علم العيال» بعد أن باد الرجال الذين لأجلهم ظهر «علم الرجال»؛ ترجمةً وتحقيقاً وتوثيقاً. لكن يبدو أننا ننحدر درجةً أخرى باتجاه «علم النغال» في عصر الرويضة... حيث الجهل والتشويش هما القاعدة.

١٥٨ - الحلم بالطوبيا هو تجلّ عذابات بني آدم داخل التاريخ. فأدم الذي هبط من الفردوس إلى الأرض والتاريخ والكبد والمعاناة، هذا الأدم نفسه هو الذي يحلّم بالطوبيا؛ يحلّم أبداً بتوقّف التاريخ والعودة للفردوس. وشتان بين الفردوس في التصوّر الإسلامي والجاهلي. إن فردوس المؤمن في قلبه، إنه فردوس مالكوم إكس القابل للتحقق في العالم الجوّاني، والذي يمنحه الطمأنينة في عالم مُحوش ويُحفره على تجاوزه. إنَّها الشؤف الدائم لما ينبغي أن يكون. أما طوبيا الجاهليّ فهي ماديّةٌ بحتةٌ، تتحقّق -نظريّاً- في عالم الأشياء، الآن وهُنا؛ إنها فردوسُ أرضيٍّ يطمع الجاهلي في أن يلجه في الدنيا ليكشف في كُلِّ مرّة -بعد أن يدفع الثمن غالياً- أنّه كان واهماً.

١٥٩- إن هناك نصوصاً منهجية مؤسّسة في الفكر الإسلامي؛ عاشت واستعيش مئات السنين، وربما الآلاف. ومثل هذه النصوص تكتسب قُدْرَتها على الحياة والتأثير المُتجدد باقترابها من روح وجوهر القرآن، وكفاءتها في العبور بك للوحي والأخذ بيدك إلى رحابه. إن هذه النصوص تكتسب -بغرضها هذا وبنسبٍ مُتفاوتة- بعضاً من صفات الوحي المبين، فتزدهر بتكرار القراءة، وتزداد ثمارها وتتجدد؛ فهي فروع دوحية مُتجددة أبداً. إن هذه النصوص ليست بديلاً عن القرآن، ولا يصح أن تكون كذلك؛ لكنّها مدخلٌ لازم تزداد أهميّته يوماً بعد يوم، بتفاقم أزمة فساد الألسنة وانطِماس البصائر. إن أشرف ما قد يجنيه كاتبٌ أن يُخلف صفحةً من هذا النوع؛ لترقى به بعد وفاته وترفع بإذن الله درجاته، بأدائها وظيفة البلاغ عنه. إن من يسوّدون عشرات الصفحات الميّتة؛ لن يخسروا مُبلغاً عنهم في المحيا والممات فحسب، بل سيُسألون فيم بددوا قرائحهم وآمالهم. إن الكتابة من هذا المنظور قد تكون شرفاً لمن يرضى الله عنه ويُلهمه رشده، لكنها بذات الوقت عبءٌ ثَقِيلٌ تنوء به الجبال، فمن أين لي باليقين أن ما قَدَّمْتُ يداي سيصحبني إلى قبري ليكون حُجَّةً لي لا علي؟! وأنه لن يصرف الناس عن الوحي، بل سيُعِيدُهم إليه؟! إن اليقين في عملي وثوابه مستحيلٌ، لكن اليقين فيما عند الله واجبٌ مستطاعٌ. اليقين في رحمته بعد تحري إخلاص الوجه له.

١٦٠- دارسو الهندسة والرياضيات والفيزياء والكيمياء، والقانون والفقه والاجتماع و«العلوم» السياسيّة، وما إليها مما أُسميه بـ«المعارف التقنيّة»؛ هؤلاء يُطوِّرون -لا شعورياً- رؤيةً ماديّةً آليّةً نتيجة تغذّيهم على وهم «السيطرة الكاملة» على الواقع، وذلك لأن مجالات اهتمامهم إجرائيّة/ تنظيميّةٌ بحثيّةٌ. ومن ثمّ، فهم أقرب فلسفيّاً لتبني أنساقٍ «حزبيّة» مُغلقة، مُشبَّعةٌ بالتحيز ومعاداة الإنسان، وذلك على المستوى الكامن. ونصيحتي لهؤلاء هي إمّا اللجوء لدراسة وقراءة الآداب (شعرًا ونثرًا) أو التصوّف والرفائق، أو كليهما، وذلك بُغية أنسنة رؤيتهم للوجود... ولذواتهم المنكودة!

١٦١- كان لا بُد أن تفشل تجربة أسامة بن لادن كما فشلت من قبل تجارب البنا والمودودي والخميني رحمة الله عليهم أجمعين، وذلك بسبب زيادة العناصر الطوباوية الكامنة في تصوراتهم؛ والتي ترجع أصلاً لكون مشروعاتهم ومشروعات «حدائث» أكثر مما هي مُعبّرة عن التصوّر الإسلامي. لقد فشل هؤلاء العباقرة المجاهدون في أسلمة الدولة الحديثة، وحين زادت الجرعة الطوباوية تحوّلت مشروعاتهم لتخبّطات «إسلاميّة» مُعادية للإسلام.

١٦٢- في عالم ما بعد الحداثة الذي اختفى فيه المركز تمامًا، وسادت حالة من السيوّلة التامّة (وهي الحالة التي لا يُمكن أن يحتملها الإنسان طويلاً) صار الحُبُّ مركزاً يُجَاهَد عبثاً ليظلّ مُتجاوزاً، وليمنح الإنسان الذي أكله القلق؛ بعض الطمأنينة!

١٦٣- ذكّرتني جسارة الجيل الذي خرج على مبارك في يوم الخامس والعشرين من يناير، بقصّة نبي الله موسى عليه السلام. فكما رُبّي موسى في حجر فرعون، ثمّ جعل الله هلاك الطاغوت على يد ربيّه، النبي المُقاتِل؛ فإن هلاك الإمّعة كان على يد الشباب الذي رُبّي في ظل نظامه، وشوّه تعليم وإعلام عهده الأسود. إن السنن الإلهيّة الثابتة مُعجزة مُرعبة في حتميّتها. وما أن يبدأ الإعداد الحقيقي حتى يأتي النصر من عند الله؛ كأنّه كان بالانتظار.

١٦٤- التأمّل في قصّة بني إسرائيل في القرآن مُخيف. فهي قصّة الإنسان في كلّ زمانٍ ومكان. إن مبارك لم يُطح به سوى بضع مئات من ولدوا في ظل حكمه ورُبوا في كنفه، ولم يعرفوا غيره. لكن الذي لا يتبّه إليه الكثيرون أن بني إسرائيل لم يخرجوا من عبادة الطاغوت إلى الملكوت مباشرة. بل خرجوا إلى التيه؛ أربعين عامًا حتى يفنى الجيل الفاسد، وينشأ جيلٌ مؤمنٌ. لقد أنجى الله بني إسرائيل من الطاغوت، وهو يعلم بكُفرهم. وهو يعلم أنهم سيقولون لموسى: «أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَنُؤْمِنُ

بَعْدَ مَا جِئْتُنَا^(١). أنجاهم وهو يعلم أنهم سيتخذون من حليهم عَجَلًا له خوار^(٢). أنجاهم وهو يعلم أنهم سيحتنون للعدس والبصل، ويرغبون باستبدال الذي أدنى بالذي هو خير. أنجاهم وهو يعلم أنهم سيردون على دعوة الجهاد بالسخرية: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٣)... لكن الذي أنجاهم أراد أن يتخذ من أصلاهم جيلًا مؤمنًا بعد فناء هؤلاء المشركين في تيه سيناء. لقد أنجى الله المؤمنين وهم في ظهور آبائهم، وكانت نجاة آبائهم إقامة للحجة على الجيلين معًا، وكان ذكرُ القصّة في كتابنا الذي نتعبّد بتلاوته تذكيرًا لنا بانحرافهم. فإن اتعظنا، دخلنا تحت قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(٤). وإن لم تفعل العبرة في ردنا للطريق، حق علينا القول، وحق علينا التيه إلى ما شاء الله.

١٦٥- السُّلْطَةُ لا تصنع التغيير، ولكن التغيير هو الذي يصنع السُّلْطَةَ.

١٦٦- إن قصّة الإنسان واحدةٌ منذ بدء الخليقة وإلى يومنا هذا، قد تختلف التجليات والآليات، وظواهر الأسباب والمسببات؛ لكن الداء والدواء لم يتغيرا أنملة. وسبحان من يخلق ما لا تعلمون.

١٦٧- يُروى عن المأمون العباسي أنه قال: الجود بذل الموجود، والبخل سوء ظنٌّ بالمعبود.

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَأَسِيرُوا إِلَى الْأَرْضِ يَدْعُو إِلَهُكُمْ مِنْ يَمِينِهِمْ وَوَعْدَكُمْ وَمُسْتَوْدَعَكُمْ حِينَ تَقُوتُوا مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنِّي أَخَذْتُ بِالْعُدْتِ وَأَنَا لَمُتَّكِفٌ﴾ [سورة: الأعراف؛ ١٢٨-١٢٩].

(٢) قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مِّنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْفِيهِمْ وَلَا يَنَالُهُمْ سَبِيلًا أَخَذُوا بِأَعْيُنِهِمْ﴾ [سورة: الأعراف؛ ١٤٨].

(٣) قال تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة: المائدة؛ ٢٤].

(٤) سورة البقرة؛ الآية ١٣٤.

١٦٨ - ما بين أداء الصلاة وإقامتها بونٌ شاسع. فالأول إتمامٌ للأركان والشروط التي يسقط بها الفرض (على مستوى الحكم الفقهي). أما الثاني؛ فهو تحقق هدف الصلاة في عالم الشهود (على مستوى الاعتقاد والفقہ تابع له)؛ بأن تكون تجديداً فاعلاً مؤثراً للعهد الإنسان مع ربه، فينعكس أثرها فيما ينعكس أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّكَ أَفْكَؤَةٌ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).. كل إقامة للصلاة هي أداء لها، وليس كل أداء إقامة.

١٦٩ - لا تُقاس قوتك بحجم تسلطك على الآخرين، لكنها تتبدى في مدى امتلاكك لزام نفسك وقدرتك على التحكم في انفعالاتها. وذلك كما بيّن المصطفى ﷺ: ليس الشديد بالصرعة، بل إنه من يملك نفسه عند الغضب^(٢).

١٧٠ - قال أعرابي: لقد أصبح لنا من فضل الله ما لا نحصىه مع كثرة ما نعصيه، وما ندرى ما نشكر؛ أجهل ما نشر أم كثير ما ستر، أم عظيم ما أبلى أم كثير ما عفا. غير أنه يلزمنا في كل الأمور شكره، ويجب علينا دوام حمده.

١٧١ - قال لي ربّي: يا عبدي، لو كان هذا الأمر يُصلِحُكَ لساعته؛ لعجّلت لك به ويسرته لك، ولسخرت لك أسبابه من حيث لا تدري ولا تحتسب، ولو اجتمعت الإنس والجنُّ على غير ذلك. أولست أنا القاهر فوق عباده؟ ومن ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر له؟ لكن كل شيء عندي بمقدار. ولو اطلعت على ما في علمي، لاخترت ما قضى به حكمي.

١٧٢ - «إن لم تكن شاهد صدق على عصرك، على صراع الحق والباطل في مجتمعك؛ فقد تساوى بعد ذلك مكانك ... سواء كنت عاكفاً في محرابٍ أو غائباً تعافر الخمر»؛ علي شريعتي.

(١) سورة العنكبوت؛ ٤٥.

(٢) عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الشديد بالصرعة» قالوا: فالشديد أيم هو يا رسول الله؟ قال: «الذي يملك نفسه عند الغضب». رواه البخاري: ٦١١٤، ومسلم: ٢٦٠٩.

١٧٣- تحوّل الألم من عادة إلى عبادة لا يُغيّر حقيقة السكين؛ سواءً كانت تمزق الروح عشوائيًا، أو تشدّها بمنهجية. فالأثنين يظلُّ مُصاحبًا كما النزيف مُلازمًا!

١٧٤- ما بين وجوب القتال وانعدام الإمكان لافتقار القوة؛ يسقط انعدام الإمكان بآيات الأمر بالجهاد، لكن الوجوب لا يسقط كما يُقرر علي شريعتي صادقًا.

١٧٥- كيف أطلب ممن لا ينسى ولا يغفل؟ كيف أطلب ممن يرزُق من لا حيلة له؟ كيف أطلب ممن قال: من شغله ذكرى عن مسألتي؛ أعطيته ولا أبا لي؟ كيف أطلب ما لم يتعبّدني به؟ كيف أطلب ما ساوى فيه بين المؤمن والكافر؟! كيف أطلب منه أن يُقيم أودي وقد تكفل بهذا حتى للبهائم؟! أأطلب الرزق وقد كفله لكل حيٍّ؟! فقيم كان تكريم بني آدم إذن؟! إني أستحي الطلب ممن كفّلني قبل أن يُعلّمني كيف أطلب. إذ كيف أسيء الأدب باستعجال ما كتبه؟! والله لا أسيء أدبي معه ﷺ أبدًا، ولا أطلب منه إلا ما يليق بكرامة أصلي الذي منّ علي به. وأولى بي تحقيق شرط الرزق -إن استبطأته- بالتماس السبب، ويقيني فيه ﷺ قبلها وبعدها هو ما يبقى على حياتي، فقد جعل ربي لكل شيء قدرًا.

١٧٦- ألا فليهنأ المتوكلون.

١٧٧- فشلت مسرحيّة «المغنية الصلعاء» ليوجين أونسكو، أحد آباء مسرح العبث؛ حين عُرضت في باريس للمرّة الأولى عام (١٩٥٠م). لكن المسرحيّة التي ليس من بين «أبطالها» أي مُغنيات، ناهيك عن صلعهن؛ قد أصابت نجاحًا مُدويًا بعدها بعقدٍ من الزمان حين عُرضت في مسرح «الكوميدي فرانسيز» عام (١٩٦٠م). كان تحوّل أوروبا من العقلانيّة المادّيّة إلى اللاعقلانيّة المادّيّة، والذي بدأت إرهاباته تظهر في حقبة ما بين الحربين؛ قد اكتمل، فتوارى صنّاع التاريخ من الأبطال الملحميين الذين ميّزوا حقبة التحديث المادّيّة البطوليّة، لحساب «الأبطال» ما بعد الحداثة المستسلمين لمصائر مجهولة، وقوّضت الحرب الإنسان المتأله لحساب الإنسان/ الشيء المفعول به. إن عبقرية المسرحي، الروماني الأصل؛ لا تكمن في

مسرحيّاته ذاتها، بل في توقيت كتابتها. فقد كان، كدأب أي فنانٍ مُخلص؛ يعكس ما يعتَمَل في أحشاء مُجمّعه، ويستشرف النتيجة التي سيثول إليها قبلها بزمان.

١٧٨- إن كان الرضا عن النفس ذنبًا، فإن رضاك عن ربك من رضا ﷻ عنك. اللهم ارض عنا وأرضنا بك يا قُدوس. ذلك أن رضاك عن ربك لا يَصْدُرُ منك إليه، بل يَصْدُرُ من رضا هو ﷻ عنك، واطمئنان نفسك في كنفه ﷻ. فمنه الفضل والمن، وعليه الهدى والتُّكلان.

١٧٩- أنهيتُ لتوّي قراءة النسخة الكاملة لرواية «قمر على سمرقند»، لمحمّد المنسي قنديل. لقد استوعبني الرواية تمامًا كأنها أسطورة من أساطير ألف ليلة وليلة تجسّدت كحياةٍ دافقة، فشملت روائحها النفاذة بنشوة الألفة، ووطئت أماكنها الحميمة بأقدام عراها الشوق، وصحبت شخوصها الفريدة في رحلةٍ إلى أعماقي. إن جمع العمل الفني بين الحسيّة المتوحّشة والروح المتوهّجة؛ جعله يستكشف الإنسان في صديق وإخلاصٍ شفوق، فلا ينجل مما يُعْرِيه وإن رفضه؛ وإنّا يحتضنه ويقبله وإن سعى لتجاوزه. وهذا هو جوهر الانسجام بين المتناقضات الإنسانية الجوّانيّة، والذي يتولّد عن الرؤية التوحيدية.

١٨٠- بحُكم العادة وبفعل ثقل وطأة الواقع على الحسّ الإنساني؛ غالبًا ما تكون كآبة ذلك الواقع أكثر حميميّة من وحشة الفردوس الموعود/ المتخيّل. لذا تستسلم الغالبية للملوفاتها، بغضّ النظر عن طبيعة وحُجيّة وحَقّانيّة تلك المألوفات، فتخلّد إلى الأرض عاجزةٍ ليس عن تجاوز الواقع المادّي، بل عن تجاوز صورة ذلك الواقع في شعورها. إن الإنسان لا يُمكن أن يعجز عن تجاوز الواقع المادّي الذي جُبِل على تجاوزه وكُلّف به، ولكنّه قد يعجز عن تجاوز استسلامه لهذا الواقع. قد يعجز عن تجاوز أوهامه وضلالاته. قد يعجز عن تجاوز نفسه!

١٨١- لماذا اهتمت الكنيسة جان دارك بالهرطقة؛ ثمّ اعترفت بها بعد ذلك كقدّيسة؟؟!

١٨٢- رَبِّمَا لَمْ يَكُنْ النعاس هو أكثر ما يدفعني إلى النوم، بل الاطمئنان. الركون إلى إله لا تأخذه سنة ولا نوم. سبحانه ربِّي ولا تُقال إلا لك.

١٨٣- عَيَّرْتَنِي بِالشَّيْبِ وَهُوَ وَقَارٌ لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بِيَا هُوَ عَارٌ
إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذَّوَابُّ مِنِّي فَالْإِيَالِي تُنِيرُهَا الْأَقَارُ
(المستنجد بالله العباسي)

١٨٤- كَانَ الْمُتَنَبِّيُّ هُوَ مَنْ عَلَّمَنِي التَّجَاوُزَ قَبْلَ أَنْ أَقْرَأَ الْفَلَسَفَةَ وَعِلْمَ الْكَلَامِ.
وقد حفرت أبياته قداصة هذا الفعل في نفسي، وطبعت بقوافيها سلوكي. فرضي الله
عن أبي الطَّيِّبِ وأجزل له المثوبة.

١٨٥- لَيْسَ الْفَقْرُ هُوَ الْجُوعُ إِلَى الْمَأْكَلِ وَالْعُرْيُ إِلَى الْكِسْوَةِ،
الْفَقْرُ هُوَ الْقَهْرُ،
الْفَقْرُ هُوَ اسْتِخْدَامُ الْفَقْرِ لِإِذْلَالِ الرُّوحِ .
(الفتان العظيم صلاح عبد الصبور مُستنطقاً الحلاج في سر حَيْتِهِ الشهيرة)

١٨٦- كُلُّ نَصٍّ بَشْرِيٍّ لَا يَعْبُرُ بِكَ لِلْوَحْيِ، فَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ.

١٨٧- إِذَا سَأَلْتَ كَرِيماً فَأَمْهَلْهُ يُفَكِّرُ وَيُدَبِّرُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِي خَيْرٍ. وَإِذَا سَأَلْتَ
لُثِيماً فَعَاجِلْهُ؛ فَإِنَّكَ مَا أَمْهَلْتُهُ إِلَّا حَالِ لُؤْمٍ طَبَعَهُ دُونَ قِضَاءِ حَاجَتِكَ.

١٨٨- كَانَ وَجْهَ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ السَّجَّادِ (زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ) تَعْلُوهُ صُفْرَةٌ بَعْدَ الْوُضُوءِ، فَلَمَّا سُئِلَ: مَا هَذَا الَّذِي يَعْتَرِكُ يَا إِمَامٍ؟ أَجَابَ:
أَمَا تَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ أَتَوِي الْقِيَامَ؟!

١٨٩- فَطُوفَانُ نُوحٍ عِنْدَ نُوحِي كَأُدْمَعِي وَإِقَادُ نِيرَانِ الْخَلِيلِ كَلَوْعَتِي
فَلَوْلَا زَفِيرِي أَغْرَقْتَنِي مَدَامِعِي وَلَوْلَا دُمُوعِي أَحْرَقْتَنِي زَفِيرِي
(عمر بن الفارض)

١٩٠- آفة البشر اعتبار الوسائل غايات. وداخل دائرة التوحيد، فإن كُلَّ مُختلفٍ فيه وسيلة في ضوء وحدة الغاية: معرفة الله، والتحقيق بتلك المعرفة. أما في عالم الشرك، فليس ثمة فارق واضح بين الوسائل والغايات، فهي دائرة مغلقة وصيرورة مادية لا نهائية؛ صيرورة تتبادل فيها الوسائل والغايات المواقع كل حين. فقد تحولت وجهة الإنسان من السماء إلى الأرض.

١٩١- يفقد الإنسان نصف عقله حين يلغ إرادياً في حماة السياسة، ويفقد النصف الآخر إذا أُجبر على الخروج من «فردوسها»!

١٩٢- رحم الله عمرو بن العاص الذي قال: لا أملُ ثوبي ما وسعني، ولا أملُ زوجتي ما أحسنت عشري، ولا أملُ دابتي ما حملتني؛ إن الملل من سئ الأخلاق.

١٩٣- يرى أستاذنا علي عزت بيجوفيتش أن الإسلام في مجمله دعوة للالتصاق بالفطرة الإنسانية؛ فلا يُبدد الإنسان جهده طمعاً بأن يُمسي ملاكاً معصوماً لأن ذلك مستحيل، ولا يُدني نفسه لدرك الحيوان لأنه لا يجدر به ذلك. وأنا أهدي هذه المقولة لمن يتسمون بالسلفية والعلمانية (بكافة طوائفهم وأنواعهم)؛ والذين يتفوقون في الكثير برغم اختلافهم الظاهري. فعلى حين يرى الأولون أن «المؤمن» كائنٌ ملائكيٌّ لا يُذنب ولا يأثم، فإن الآخرين يظنون أن السقوط هو القاعدة، وأياً امرئٍ تاب ورجع عن خطيئته عيروه بـ«أصله» كأن الذنب وصمةٌ لا تزول^(١)! إن هؤلاء وأولئك يُذكرونني بالمجتمع المنحط الذي اصطلاه «جان فلجان» بطل رائعة «فيكتور ايغو»؛ البؤساء. إنه نفس المجتمع الذي ضحى بالحلاج ورضي بسجن ابن حنبل وكفر ابن رشد. إن ما يجمعهم هو التصور الطوباوي (نسبةً للطوبيا) للإيمان أو للكفر، باعتبارهما حالات رياضية نهائية يصل إليها الإنسان ويستقر فيها، وهو ما يُسميه الصوفية مقاماً. إن السلفية (وبعض الشيعة وغلاة الصوفية) هي في جوهرها مقلوبٌ للعلمانية؛ مقلوب الديباجات الحداثيّة الإلحادية بنفس التصورات. إنهم

(١) هؤلاء غالباً يلوكون ديباجات وكليشيات فلسفية غريبة صادرة عن بيئة ذات خلفية مسيحية تؤمن بالخطيئة الأصلية.

يختزلون الإنسان في بُعدٍ واحدٍ؛ روحٌ أو جسدٌ، ويرفضون الإنسان الربّاني المركّب
كأنه جُذامٌ!

١٩٤ - كُلُّ ما يفسد يُداوى بالملح، فيا ويلتأه إن فسد الملح! (شعرٌ فارسي)

١٩٥ - يا هُدى الحيران في ليل الضنى؛ أين أنت الآن، بل أين أنا؟
(سؤالٌ قديمٌ قدّم الحيرة الإنسانية، وإجابته قديمةٌ قدّم الحقيقة الربّانية، لكن آفة
حارتنا النسيان!).

١٩٦ - الصاحب رُقعةٌ في قميص الرجل، فلينظر أحدكم بم يُرَقّع ثوبه!

١٩٧ - إن صانع التاريخ هو المربّي. قد لا يصنع الأحداث، ولكنه يربّي صنّاعها.
وقد لا يحمل اللواء، لكنه يُربّي من يُطيق حمله.

١٩٨ - اللهم إنا نحمدك حمد الرضا بحُكمك، لليقين بحكمتك. ونعوذ بلطفك
ورحمتك أن تجمع على عبادك ابتلاءين. ونسألك إن ابتليت بفقرٍ أن تُعافي من الدّل،
وأن تُجنّب من بلوته ظاهر الشرك وباطنه، فلا يطمع إلا في ما عندك؛ فيتخذ من
طاعتك سبيلاً.

١٩٩ - شتّان بين استقبال الفجر واستدباره. بين أن تبدأ يومك بصلاة الفجر،
وأن تختتمه بها. شتان بين أن تخرُج قبله لتشرّب نفحات السّحر الربّانية، فلا تسمع
إلا خطاك تنقُر دروب الغفلة، وبين أن تعود بعده لتتوي لفراشك. إن مما يجعل لهذه
الساعات متعةً خاصّةً عندي هو مجالسة المسنين من أهل الحي، قبل وبعد الصلاة،
للاستماع إلى حواراتهم والاستمتاع بمزاحهم، وتشرب كثيرًا من شعورهم الصوفي
العميق الذي لوثته -للأسف- سنوات الخنوع، ولا رتشاف كنوس من حكمة الحياة
التي أحنت ظهورهم. إنه لا يعادل حبي لهؤلاء الشيوخ سوى حبي للأطفال؛ نفس
البراءة والتلقائية. غير أنها عند المسنين لها طعمٌ خاصٌّ؛ طعم الكبد الإنساني. فإذا
كان الطفل أقرب للإنسانية من البالغ، وإذا كان النضج والتجربة والكبد يُفقدانا

براءتنا الفردوسية رويدًا رويدًا؛ فإن من بلغوا مبلغ الحكمة هم أطفال استعادوا براءتهم ثانية، ولكن هذه المرة بعد أن فطنوا لتساوي تبرها وتراها. إن الطفل بريء بالنشأة والأصل؛ أما المسن فإنه بريء بالاختيار واليقين. أن تبدأ يومك من حيث انتهت حياتك كثيرة؛ هذا معنى ضخّم لا يُدركه الكثيرون. معنى يُضفي جمالاً خاصاً على صباحك.

٢٠٠- نحنُ عيالٌ على اللطف الإلهي، بل إن مدد القيومية الإلهية الدائم هو الذي يُقيمنا كما يُقيم الأكوان. هذا حقٌّ لا مرأى فيه، لكنّه ليس عقيدةً بالمعنى «الكلامي»، ولا هو من المعلوم من الدين بالضرورة بالمعنى «الأصولي»، بل هو ذوقٌ بالمعنى «الصوفي»؛ حالٌ لا يصلُ إليه كُلُّ أحدٍ، ولا يستقرُّ فيه مُقيماً إلا آحاد المصطفين الأخيار من أوتاد الأرض. ومحاولة فرض هذه الحال - معرفياً - على من لم يذقه ضربٌ من الخبل. إنّه فرضٌ لنوع من «المعرفة» على من لم يمتلك مصدرها، فهو لا بُدَّ جاحدها. إن هذا الفرض القسري خلطٌ وغلوّ ورثناه عن متأخري المتكلمين «المؤدلجين». فقد تعبّدنا الله بألوهيته والتي من لوازمها الخلق من عدم على غير مثالٍ سبق، لكن الكلام عن ماهية الخلق ومضارعه ذوقٌ وليس عقيدةً. وبعبارة أخرى، فقد تعبّدنا الله بالمبدأ وليس بالتفصيل الذي جنح إليه المتكلّمون؛ يهرفون بما لا يعرفون. وهناك مثلٌ شهيرٌ على ذلك، يُنسب للإمام مالك حيناً ولحجة الإسلام أبي حامد الغزالي حيناً آخر؛ حين سُئل عن «الاستواء على العرش»، فقال: الاستواء معلوم (ومُصدّق به بظاهر الكتاب) والكيف مجهولٌ (لأن الكتاب حمّالٌ أوجهٌ ولا يستطيع فردٌ أن يزعم أنه أتى بتفسيرٍ نهائيٍّ ما لم يكن ذلك مما صحَّ من سنة رسول الله) والسؤال عن المسألة بدعةٌ (فهو تبديدٌ للجهود البشري بعيداً عن مجال التوجيه الرباني). وقياساً على ذلك: فالقدرة الإلهية الطليقة على الخلق معلومةٌ، وكيفية ذلك وماهيته مجهولةٌ، والسؤال عن ذلك بدعةٌ. فقد تعبّد الله العالمين بظاهر كتابه وليس بأحوال الصوفيّة.

٢٠١- إن جهل ذراري المسلمين بحجم الشر المتربص بهم، لا يعدله سوى جهلهم بحجم الخير الذي طويت عليه نفوسهم.

٢٠٢- قال لي ربي: يا ابن آدم هذا نبي يونس أهمته تسيحي، لأنجيه وأرزقه بهذا التسيح يقطينة شفاء وغذاء. وهذا نبي أيوب صبر بحولي على بلائي، فأدرسته نعمائي وقلت له: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١). فيا عبدي؛ إني قد جعلت زوال همك وشفاء سقمك مُعلَقًا بها لا تُدركه من الأسباب. فاقصد من يحلّ الوصف عن الإحاطة بعظمته، لتلحقك فيوضات رحمته.

٢٠٣- يقول البعض أنه لولا المربي، لما عرفت ربي. لكنني أرى هؤلاء يجعلون من المربي واسطةً وحجابًا، وأزعم أنه لولا حجاب كشفه ربي عن قلب محجوبٍ مربّي؛ لما عرفه كلانا.

٢٠٤- إذا استنفذت أسبابك وخلت جُعبتُك و أوشك اليأس أن يملكك، فتذكر حال يوسف عليه السلام، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

٢٠٥- إن الملح الذي يستعمرني كلما سمعت خطابه عليه السلام: ﴿قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣)... هذا الملح المورق لا تخف وطأته قليلاً - وإن ظلّ كامناً- إلا باستحضار الحقيقة التكوينية التي قررها عليه السلام: ﴿رُبَّنَّ لِلنَّاسِ ضُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾^(٤)، فاللطيف

(١) سورة ص؛ الآية ٤٢.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ٢١.

(٣) سورة التوبة؛ الآية ٢٤.

(٤) سورة آل عمران؛ الآية ١٤.

الخبير الذي يعلم من خلق، ﷻ؛ هو نفسه الرحمن الرحيم الذي يعلم ضعفنا وغلبة الشهوة المغروسة في جبلتنا الطينية. أليس ﷻ من قرر في موضع آخر: ﴿...وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (١)؟ لكن الآيتين اللتين تسبقانها مباشرة توضحان طريق مغالبة ذلك الضعف: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ (٣) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٤) ... إن ملاك الاعتدال يكمن في استلھام العبرة من قبلنا في ضوء الإرشادات الإلهية المعينة، وهو طريق التوبة والغفران اللذان يبعدُ بها المولى عز وجل. لكنه غفرانٌ مشروطٌ - كما نستنبط - بصدق المكابدة وحرارة المعاناة، في سبيل التغلب على جاذبية الجبلية الطينية.

٢٠٦ - ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ رِعُونَ وَمَلَآءَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (سورة يونس؛ الآية ٨٨).

٢٠٧ - رقيق الحال الذي وصفه ربه بأنه لا يسأل الناس إلحافاً هو أحقُّ الناس بركاتك، رغم أنك قد تحسبه غنياً من تعفُّفه عن السؤال. لقد وصفه ربه بعدم الإلحاف لأن سلوكه ومظهره يشي بحاله، فهو يسأل بلسان الحال. يسير مُطرقاً في خجل؛ رث الثياب نظيفها، خفيض الصوت في رضا مشوبٍ بحُزنٍ، حريصٌ على صلاة الجماعة. فاحرص على صيانة ماء وجهه في كل وقت.

٢٠٨ - قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): عجبت لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع. عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٣)،

(١) سورة النساء؛ الآية ٢٨.

(٢) سورة النساء؛ الآية ٢٦ - ٢٨.

(٣) سورة آل عمران؛ الآية ١٧٣.

فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿فَانْقَلِبُوا يَنْعَمُوا مِنْ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَسْئَلْهُمْ سُوءٌ﴾^(١). وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأَفْرُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤)، فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾^(٥). وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٦)، فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿إِنْ تَرَوْهُ فَقَدْ جَاءَكُمْ بِهِ بَأْسٌ كَبِيرٌ﴾^(٧).

٢٠٩- نعمتان لا تعدلها كنوز الدنيا: الصبرُ في يقين، والثبات على الإخلاص.

٢١٠- السلطان بلا دين فرعنة، والدين بلا سلطان رهينة.

٢١١- يُروى أن امرأة العزيز قالت بعد أن حصحص الحق ببراءة الصديق يوسف عليه السلام: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بالطاعة.

٢١٢- تحدّث أستاذنا عبد الوهّاب المسيري في مذكّراته عن ذئاب (شهوات) ثلاث كانت تُناوشه وتسعى لاقتراسه وتقويض إنسانيته المركّبة؛ وهي الذئب الهيجلي المعلوماتي (نسبة للفيلسوف الألماني الشهير: هيغل)، وذئب الشهرة، وذئب الثروة. ولن يؤت الجليل الحالي من شباب ٢٥ يناير إلا من قبل ذئب الشهرة. إذ إن

(١) سورة آل عمران؛ الآية ١٧٤.

(٢) سورة الأنبياء؛ الآية ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء؛ الآية ٨٨.

(٤) سورة غافر؛ الآية ٤٤.

(٥) سورة غافر؛ الآية ٤٥.

(٦) سورة الكهف؛ الآية ٣٩.

(٧) سورة الكهف؛ الآيات ٣٩، ٤٠.

الذين خرجوا أمام القوة الغاشمة بصدور مفتوحة واضعين أرواحهم على أكفهم ليسوا طالبي ثروة، كما أنَّ أكثرهم من الناشطين الحركيين وليسوا من الباحثين الأكاديميين الذين قد يُمثّل الذنب الهيجلي المعلوماتي خطرًا حقيقيًا عليهم. إن مكمن الخطر الأكبر هو ذنب الشهرة والأضواء الذي يستدرجهم واحدًا بعد الآخر للظهور الإعلامي في هذا البرنامج أو ذاك، أو لكتابة تعليقاتهم وآرائهم في هذه الصحيفة أو تلك. إن هذا الاستدراج الإعلامي سوف لن يجعلهم أسرى لذنب الشهرة فحسب، بل سيُحيي عندهم الذئاب الكامنة ومنها ذنبا المعلومات والثروة. إن الناشط الحركي حين يتحول لضيف دائم على الإعلام سوف يحجب معينه بعد وقتٍ جد قصير، فإن ألت الشهوة عليه سعى جاهدًا لامتصاص ديباجات سطحية تمنحه قدرًا من التجدد ومن ثم القدرة على الاستمرار. إن هذا «الإدمان» الإعلامي سيُحوّل الظهور لغرضٍ في حد ذاته، ثم لوسيلةٍ للتربُّع السهل. إن هذه الطريق سوف تؤدي لإحياء الذئاب الثلاثة بالتدرّج في نفوس من انزلقوا إليها.

٢١٣- وليتها إذ فدت عمرًا بخارجة فدت عليًا بمن شاءت من البشر! (١)
من الأبيات القليلة التي تُبكيني كلما ذكرتها. فحين تأمر الخوارج على قتل الإمام عليّ وابن العاص وابن أبي سفيان؛ نفذ القضاء في الإمام عليّ الذي يُروى أنه كان يُمَرُّ بالشقيّ ابن ملجم يوميًا، فيسأله: أما آن لك أن تضرب هذه (مشيرًا إلى جبهته) فتخضب هذه (مشيرًا إلى لحيته)؟ ولم يعتقله بالشبهة ولا تحفظ عليه لأنه خطرٌ على «أمن الدولة»!! أما عمرو فقد مرض ليلة قتله، واستخلف على الصلاة صحابيًا مغوارًا هو الشهيد خارجة بن حذافة رضي الله عنه. ولم يكن القاتل يعرف عمرًا. فأراد الخارجيّ عمرًا وأراد الله خارجة، فذهبت مثلاً.
فليت الأقدار إذ فدت عمرًا بخارجة، فدت عليًا بمن شاءت من البشر. والله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) البيت من قصيدة شهيرة مطلعها:

الدمرُ يفجّع بعد العين بالأثر فيما البكاءُ علي الأشباح والصور
للشاعر الأندلسي، أديب عصره؛ ابن عبدون الفهري، الشهير بذي الوزارتين.

٢١٤- من أبرز معالم الجيل المتصدّر من الإسلاميين المتحرّزين:

أولاً: حساباتهم السياسية الكارثية على طول الخط. ينبطحون حين يجب التصعيد، ويصطدمون بالسلطة، لحسابات شخصية غالباً؛ حين تكون الدعوة في أضعف حالاتها.

ثانياً: هيمنة نموذج الهندسة الاجتماعية الإلحادي على عقولهم، وتوهم إمكان تحقّق الدين في النفس والمجتمع بمجرد تقنين بعض الأحكام الفقهية لضبط الواقع البراني.

ثالثاً: هيمنة فكرة بلوغ السلطة كطريقٍ أوحّد للتغيير. وعلى عكس ما يظن الكثيرون، فإن العريان والظواهري -مثلاً- يلتقيان في وهم «الدولة الإسلامية»، وخلافهما مجرد خلاف في الإجراءات ومجال عمل الدولة. لكن النموذجين يدوران في إطار الدولة القومية الحديثة.

رابعاً: ربط نجاح «الدعوة» بالعلو في الأرض اقتصادياً وسياسياً. وهو مخالفة صريحة لظاهر المنهج القرآني، ولسير الأنبياء وعلى رأسهم المعصوم ﷺ. خامساً: اعتبار الحركة/ الجماعة/ الحزب/ الدعوة/ الشيخ/ الداعية ممثلاً للإسلام، ورويداً رويداً يُمسي هو الإسلام ذاته. ومن ثم يُصبح نقده هرطقة، والخروج عليه ومخالفته فسقاً وضلالاً.

٢١٥- يُخبرنا التاريخ أن الثورات تُخلخل موازين القوى؛ لتفرض واقعاً جديداً على الأرض. فإن كانت أضعف من ذلك وعجزت عن فرض واقعها المرتجى؛ تحوّلت لحركة احتجاجية وظاهرة صوتية عديمة الجدوى، لتجني مكاسبها أي من القوى التي تستطيع فرض واقعها الخاص على الفضاء السياسي. إن الثورة لا تُطالب كالشحاّذين وتنتظر من يقوم بعملها نيابة عنها، بل تُغيّر بنفسها؛ باليد.

٢١٦- أكثر العوام يعبدون القوة ويُقدّسون البطش! وما من طاغوتٍ في تاريخ الإنسانية إلا اصطفت وراءه الدهماء، تُصفّق وتدعم ... وتؤلّه!

٢١٧- للحياة معنى لا يمكن فهمه في أغلب الأحيان، ولكن يمكن دائماً الشعور به.

٢١٨- «لا زال أكثر المسلمين غير مُقتنعين بأنه لا يمكن إثبات وجود الله، عز وجل، بالإشارة إلى كتابه»؛ مراد هوفمان.

٢١٩- لا أذكر أين قرأت هذه القصة رغم عظم دلالتها: «سمعنا من بلاد فارس حكاية عن فأس ليس فيها عود ألقيت بين الشجر. فقال الشجر لبعض: ما أُلقيت هنا لخير! فقالت شجيرة صغيرة: إن لم يدخل في إست^(١) هذه عودٌ منكُنْ، فلا تخفنها!!

٢٢٠- يروى أن الإمام الصادق عليه السلام قال: من طلب ما لم يُخلق؛ تعب ولم يُرزق. قيل: وما ذاك يا إمام؟ قال: الراحةُ في الدنيا.

٢٢١- خُلق الإنسان ضعيفاً بشهادة خالقه ﷻ، ومع ذلك يغرُتُ بقوة متوهمة. وقد اختار بجهالته حمل الأمانة؛ ليستقط تحت وطأة ثقلها. اختار أن يقضي عمره القصير كـ«سيزيف». يدفع الصخرة لأعلى الجبل، فإذا ما أوشك على بلوغ قمته؛ تدرجت به للسفح ليتجدد عذابه ما دام التاريخ. فويلٌ له إن تركها، وويلٌ له إن لم يتغمده الله برحمته.

٢٢٢- لأننا لا ندرك الواقع الموضوعي كما هو، بل كما نتخيّله؛ لذا كان الحُبُّ أقرب للوهم منه للحقيقة، فهو يعتمد على الصورة الذهنية المتخيّلة للمحبوب؛ أي على خريطة الحُبِّ الإدراكية. وبرغم ذلك، فإن هذا الوهم هو محور حياة أكثر بني آدم!!

٢٢٣- ولن يُقيّم على ضيمٍ يُسام به إلا الأذلان؛ غيرُ الأهلِ والوُتدِ

هذا على الخسفِ مربوطٌ برُمتِهِ وذا يُشجُّ فما يرئى له أحد!!

(التملس الضبعي)

(١) الإست هو المؤخرة.

٢٢٤- كما لا يُمكن أن يُجيزك إلا من هو أعلم منك، كذا لا يستطيع تقييمك من كان دونك. وقد يجوز تقييم الندِّ إذا تحرَّد من الهوى، وهذا نادرٌ.

٢٢٥- اللهم ارزقني توكُّلاً قوامه اليقين فيما عندك عمَّا ملَّكتني، ثم ارض عني، واجعل تبرها وتُرباها في عينيَّ سواءً، ثُمَّ أرضني بك وخلِّ قلبي ممن سواك.

٢٢٦- يُفْضَلُ أكثر بني آدم العمى. بل يعشقونه لما يمنحهم من طُمأنينة، ولو كانت زائفةً. إذ إنَّ أَلَمَ تَفْتَقُ الإدراك واستنارة النفس أشدُّ حُرقةً من أَلَمِ الحواس! نعوذ بالله من هذا العمى؛ عمى البصائر.

٢٢٧- «يبدو أن تعاستنا تتناسب طردياً مع كثرة امتلاكنا للأشياء»؛ مولير.

٢٢٨- إن لم تستشعر أمومتها، فلا تتزوَّجها. وإن لم تكن لها أبا، فما أنت بروح كاملٍ.

٢٢٩- كان المجاهدون الأفغان أكثر حرصاً على الحياة من إخوانهم العرب. بل كانوا يهتمونهم أحياناً بالجنون بدعوى أنهم -أي الأفغان- يُريدون الشهادة في آخر العمر؛ بعد أن يكونوا قد أنهكوا أعداء الله وأذاقوهم الأمرين. فكان بعض العرب يُجيب باسمًا: وهل تأتي الشهادةُ إلا في آخر العمر؟!
سأموت حين ينتهي أجلي، وما موعد وفاتي إلا نهايةُ أجلي!

٢٣٠- حين لم يجد الخطيئة الشاعر من يهجوهُ؛ هجا نفسه! والله في خلقه شئون!

٢٣١- ليس الإنسان سوى باقة ذكريات. أحداث مُسلسلٍ تاريخيٍّ نهرب منه، لكننا نحنُ إليه؛ فتوقف بين أشواط الحياة لتُلقي نظرةً حانيةً على ذلك الماضي. نظرة شوقٍ حتَّى لاَلامه التي شُفيت مُخلِّفةً ندوباً غائرةً في الروح والوجدان. إن الإنسان كائنٌ تاريخيٌّ بكُلِّ ما تحمله الكلمة من معانٍ.

٢٣٢- من أشدَّ أبيات الهجاء قسوةً في نظري، برغم أنها قد تبدو للبعض هيئةً؛
قول دعبل:

أما الهجاءُ فدقَّ عرضكُ دونه والمدحُ عنك كما علمت جليل
فاذهب فانت طليقُ عرضكُ إنه عرضُ عززت به وأنت ذليل

٢٣٣- الفَتَّانُ الحقيقيُّ لا يُمكن أن يغلب شرُّه خيره، كما لا يُمكن أن يصير مُلحدًا ولو جهر بذلك! وإن سلمنا بإلحاده، جدلاً؛ فهو إلحادُ اليائسِ المُخَيَّبِ وليس إلحادُ المعانِدِ المُكابرِ... إذ لولا صدق تلك المعاناة، لما كان الفنُّ.

٢٣٤- كانت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، عائشة بنت أبي بكر رضي الله
عنهما؛ تستشهد ببيت شعر لـ «البيد بن ربيعة» يقول فيه:

ذهب الذين يُعاشُ في أكتافهم وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجرِ!
وكان ابن اختها، عُروة بن الزبير؛ الذي عمَّر بعدها طويلاً يَجْتَرُّ البيتَ في حسرة!
وظلَّت الأجيالُ تتداولُ البيتَ حتَّى رَواه لنا الأصفهاني وهو يكادُ يَشُقُّ جيوبه على
ما آل إليه حال الناس في زمانه! ولا أعرف أحداً سمع البيت أو قرأه؛ إلا وهو يراهُ
غَضًّا طريًّا صالحًا لزمانه، كأنه قيل لتوِّه! إن هذا البيت مثالٌ رائع على الصدقِ الفنيِّ.
مثالٌ على الفنِّ الذي يُعبِّرُ عن روح الإنسان في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ. إنَّه يحتذي الوحي
في إخلاص، وينقلك لرحابه في سهولةٍ وسلاسةٍ؛ أوليس الإنسانُ في خُسْرِ؟!

٢٣٥- اللهم إني أحُبُّكَ فأحِبَّنِي، وأحِبُّ معيَّتَكَ فلا تحرمنيها، وأرجو لقاءك
فتقبَّلني بقبولٍ حسنٍ.

٢٣٦- ندوب الروح أختامٌ على أوراق وجودك. إنَّها دليلُ حياتك؛ الدليلُ على
بقائك حيًّا رغم خوضك للعجيم. إن هذه الندوب تعني أنَّك قادرٌ على تجاوز ما
تصطليه!

٢٣٧- في يانصيب الأرواح فُزْتُ بالجمال الوحيد في عصر القُبْح. اقتطفْتُ
آخر وردةٍ قبل أن يُقفر الكوكب ويستحيل أرضاً يباباً تسكنها الأرواح المشوَّهة،

ويستطيل فيها الجمال المزيف. حينما أفكرُ فيكَ أشكرُ الباري الذي أعمى عنكَ عيون خلقه، لأرزقكَ! بل أشكرُهُ على الطريق الطويل الموحش الذي اجتزته مُثخنًا، فقد وجدتكَ في نهايته.

٢٣٨- اللهم إِنِّي أحمَدُكَ حمد من بسطت له الرزق فشكر، وأثني عليك ثناء من قَدَرَ عليه رزقه فصبر.

٢٣٩- الانفصامُ بين العمل والمعتقد تضيقُ للعُمر. فإن كنتَ تؤمنُ بشيءٍ، أي شيءٍ؛ فمارسه في الواقع حتى تقترب نفسك من حقيقة التوحيد، ولو كان فعلُكَ مُناقضًا للملة إبراهيم! إن لذلك ثمنًا ضخمًا، لكنه ليس أضخم من أن تُضَيِّعَ حياتكَ في فعل ما لا تؤمنُ به. إنكَ مُكلَّفٌ بالاختيار، فلا تُهدر إنسانيتَكَ بإهدار حقِّها في الاختيار. كُنْ شجاعًا واختر مصيركَ، ليتطابق ظاهرك وباطنك.

٢٤٠- كُنْتُ أَسْتَشْعِرُ اليُثمَ حَتَّى امْتَلَأْتُ بِحُبِّ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ؛ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام. وكثيرًا ما ظننتُ أَنِّي أَحْبَبُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَفِيدِهِ الْمُصْطَفَى الْعَدْنَانِ عليه السلام؛ حَتَّى اكْتَشَفْتُ أَنَّ عِلَاقَتِي بِكُلِّ مِنْهَا تَخْتَلِفُ كُلِّيًّا عَنْ عِلَاقَتِي بِالْآخَرِ. بل لَا يُمْكِنُ مُقَارَنَةُ الْعِلَاقَتَيْنِ أَصْلًا. إِذْ يُمَثِّلُ أَحْمَدُ اكْتِمَالِ النُّبُوَّةِ وَخَتَمِ الرِّسَالَةِ، وَإِحْكَامِ الصَّلَاةِ بِالْوَحْيِ الْحَاكِمِ، فَهُوَ قُدْوَةٌ وَاجِبَةٌ وَمِمَكْنَةُ الْإِحْتِدَاءِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ. أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَيُمَثِّلُ الْأَبَوَّةَ، لَيْسَ بِالْمَعْنَى الْبَيُولُوجِي السَّخِيفِ، وَلَكِنْ بِالْمَعْنَى الرُّوحِي الشَّفِيفِ. الْقُدْوَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي تُحِبُّ احْتِدَاءَهَا لِقُرْبَاهَا مِنْ طَبْعِكَ. إِنَّهُ يُعَبِّرُ عَنِّي وَعَمَّا يَشْغَلُنِي وَيَمْلَأُ شَعُورِي؛ يُعَبِّرُ بِحَرَارَةٍ وَتَلَقَّائِيَّةٍ فَرِيدَتَيْنِ. إِنْ تَحْفَظُ سَيِّدِي أَحْمَدُ يَسْتُرُ عَنِّي إِنْسَانِيَّتَهُ الْمُرْكَبَةَ شَعُورِيًّا، فَلَا أَشْعُرُ أَنِّي وَرَثْتُ مِنْهُ شَيْئًا بَرِغَمِ حُضُورِهِ الرَّاسِخِ فِي شَعُورِي وَوَعْيِي التَّارِيخِيِّ. أَمَّا حَرَارَةُ حُضُورِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، فَتَغْلِبُ فِيهَا إِنْسَانِيَّتَهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ فِي وَجْدَانِي، وَتَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِأَنِّي وَرَثْتُ مِنْهُ قَلْقَهُ الْوُجُودِيِّ الْمُضْنِي، وَلَهْفَتَهُ فِي الْبَحْثِ، وَسُخْرِيَّتَهُ مِنَ الشَّرْكِ وَاسْتِهَانَتِهِ بِسَدَنَتِهِ وَاسْتِعْلَائِهِ عَلَى مَظَاهِرِهِ، لِأَطْمَعِ بَوْرَانَةَ تَسْلِيمِهِ الْكَامِلَ لِرَبِّهِ. وَقَدْ أَدْرَكْتُ أَخِيرًا أَنِّي أَتَنَاوَلُهُمْ بِحَسٍّ فَنِيٍّ، فَإِنْ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ أُمَّةً؛ هُوَ فِي شَعُورِي شَخْصِيَّةٌ دَرَامِيَّةٌ ثَرِيَّةٌ.

٢٤١- التمرکز حول الذات هو مهرب أكثر أصحاب التجارب العاطفية الفاشلة. قد يكون دواءً ناجعاً للحظاتٍ يستعيد فيها المخذول المتخن توازنه، لكن دوامه كارثيٌّ.

٢٤٢- تشغل بعض الجماعات «الإسلامية» المسلحة بمُحاربة العدو الداخلي، فتحذو في ذلك حذو مدرسة ما بعد الكولونيالية وسائر التيارات الرومانتيكية؛ في محاولة تطهيرها للواقع من العناصر «المعادية» لأيديولوجيتها، وصولاً إلى «جحيم» الطوبيا المنشودة! على الجانب الآخر؛ نجد أن نبي الإسلام ﷺ قد أمر بقبول علانية المنافقين وإيكال سرائرهم إلى الله حفاظاً على تركيبة المجتمع الإسلامي وتنوُّعه، والتي اقتضتها المشيئة الإلهية ابتداءً، ربَّما لموافقتها لمغزى الكبد الإنساني داخل التاريخ. بل لقد اقتضت المشيئة الإلهية عدم مُلاحقة المنافق أو الكافر قضائياً -باصطلاحنا المعاصر- إلا إذا ترتَّب على اعتقاده أثرٌ ماديٌّ برَّانيٌّ، يُمكن قياسه؛ تهديد النظام العام للمجتمع الإسلامي.

٢٤٣- الضلالُ لُغَةً هو أن تكون صاحب غاية مُحددة، فتضلُّ عنها الطريق وتنحرف بك السُّبُل. إن الإنسان عابداً بفطرته، لكنَّهُ قد يضلُّ طريقه إلى الله؛ فينحرف مُشركاً به أو معه، وهذا حال الكثرة. نعوذ بالله من الشرك ما ظهر منه وما بطن.

٢٤٤- ظلت أبيات لنزار قباني، من قصيدته التي رثى فيها زوجته «بلقيس»؛ تُلحُّ عليَّ كأنها تسألني ردّاً، وهي التي يقول فيها :

هل يولد الشعراء من رحم الشقاء،
وهل القصيدة طعنة في القلب ليس لها شفاء،
أم أنني وحدي الذي عيناه تختصران تاريخ البكاء؟
والآن أجيئه بملء فمي :

... هم للحق عين الولاء،
أحرارٌ وأبرارٌ في سوح البغاء،

أبيائهم تجلد نفوس الخائعين،
وسكونهم اتهامٌ يفتك بالغباء.
قومٌ ما لهم من راحةٍ رواء،
وما هنيء العيش لأوجاعهم بدواء،
ولولا تجرُّعُهم حنظل الأيام عذبًا؛
ما كان لدنياههم من بقاء.
هم المخلصون إذا أعلوا في البكاء،
والآلامهم تحدو الأمم نحو الشفاء،
فَهُمُ الفداء على نُصْبِ العذاب ...
نعم ... «يولد الشعراء من رحم الشقاء»!

٢٤٥- يا للمتنبّي، كم بيتًا عبَّرَ به عن مكنون صدري ...
أقلَّ اشتياقًا أيها القلب ربما رأيتك تُصفي الود من ليس صافيا
خُلقتُ ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقتُ شبيبي موجع القلبِ باكيا

٢٤٦- للآمم أعمارٌ وأطوارٌ كالبشر. فالعقيدةُ تحدو الأمة أو لا ريثما تمتلك قوةً ماديةً
لدعمها. ثم يزدهر العلم جنبًا إلى جنبٍ مع القوة المادية في ظلال العقيدة. ثم تنفصل
القوة المادية كهدفٍ مُجرَّد، ويسعى العلم في خدمة الهوى، وتذبل العقيدة في النفوس
شيئًا فشيئًا حتّى لا يبقى سوى الترف ينخرُ في بنيان الأمّة، ويحدوها للانحطاط.

٢٤٧- قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: السيفُ أنمى للعدد ... !

٢٤٨- الحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، وأقام علينا حُجَّتَه خير الأنام، وحفظ
لنا صراطه بيّنًا بالقرآن؛ ليهتدي به من شاء من إنسي أو جان. الحمد لله رب كل
شيء، القاهر فوق كل شيء، من يعلم ما جاشت به الخواطر، وانطوت عليه السرائر.
الحمد لله الكبير المتعال، مُقلِّب القلوب من حالٍ إلى حالٍ، من هيمنت ربوبيته على
كل مخلوق، ولو أنكر ألوهيتهُ جاحدٌ عقوق. الحمد لله ذي العزّة والجبروت، الحي
الواحد الذي لا يموت.

٢٤٩- قال المختار المعصوم عليه السلام؛ صادقاً: كل مولود يولد على الفطرة (الإسلام)، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو يُنصرانه^(١). أي لو ترك الوليد بفطرته غير تشويه؛ لاختار الإسلام حتماً... لكن كثيراً من المصريين -وأكثرهم من المسلمين!- يلوثون فطرة أبنائهم ويُنصرونهم عامدين متعمدين! نعم... يُنصرونهم؛ لكن ليس على ملة المسيح عليه السلام، ولا حتى على خرافات المجمع... إذ للمصريين فهم شاذ، فهم يُنصرون أبناءهم ليُصبِحوا ناصريين! أي ينتسبون إلى عبد الناصر، الطاغوت المهزوم - عليه من ربه ما يستحق - فينشأ المغفلون منا على أن ناصر الصهاينة هو بطل العروبة والإسلام المغوار! والذي لم يأت الباطل من بين لحية أبداً... كيف وتاريخنا ما بدأ إلا به؟! وما تعرّفنا إلى العزة والكرامة إلا بعد أن سلبنا إياهم؟! لينشأ البعض مدنيين له بوجودهم، ولخلفه الأندال بالتبعية! وقليل ما هم؛ من يكشف لهم ربك زيف ما انتحلوا، فيروحون يُصلحون عقائدهم لُتراق دماؤهم وتنتهك أعراضهم، وهم يسعون لاستنقاذ أمة غافلة؛ تسلى بمنظر القتل في بلاهة!

٢٥٠- في مرحلة الهضم يحدث تنزيل للمعرفة على الواقع. فيُفكك الواقع ويُحاكم للقيم التي اعتقناها. لذا، فإن وصف المرض وأعراضه ونقد مسلك المرضى وإهالمهم؛ هو المرحلة السابقة مُباشرةً على توصيف العلاج إتماماً لدورة الأفكار في المجتمع.

٢٥١- استقال الأستاذ كمال الهلباوي من جماعة الإخوان المسلمين بعد ٢٥ يناير بحوالي العام، لاحتجاجه على تهافت مواقف الجماعة وأنانيتها. إن كارثة هؤلاء المستقلين -ومنهم عبد المنعم أبو الفتوح ومحمد حبيب- أنهم يعتبرون ظاهرة الانحراف الإخواني التي تُعبّر عن نمط واضح مُطرد؛ مجرد انحراف سلوكي مُتعلّق بإجراءات اتخاذ القرار أو إنفاذه، وليس ثلثة حقيقة في التصور الإسلامي. وهم معذورون في ذلك أشدّ العذر، إذ لا يُمكن للإنسان الاعتراف -ولو لنفسه!- بأنه

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعًا، هَلْ تُحْسِنُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟» ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَافَرُوا إِنْ شِئْتُمْ: «فُطِرَتِ اللَّهُ أَلَى فُطْرَتِ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» [الروم: ٣٠].
أخرجه البخاري: ١٣٨٥، ومسلم: ٢٦٥٨.

ضَيَّعَ عُمُرُهُ فِي وَهْمٍ، بَعْدَ أَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي صَفُوفِ التَّنْظِيمِ. وَهُوَ مَا قَدْ يَتَجَاوَزُ نِصْفَ الْقَرْنِ فِي حَالَةِ الْبَعْضِ. إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْاعْتِرَافِ يَحْتَاجُ لَشَجَاعَةٍ مَعَ النَّفْسِ، شَجَاعَةٍ فَائِقَةٍ قَدْ لَا يَمْتَلِكُهَا أَصْلًا أَيُّ مَنْ أَبْنَاءُ ذَلِكَ الْجِيلِ الْمُنْكَودِ. شَجَاعَةٍ أَدْبِيَّةٍ وَقُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ تَحْفَظُ عَلَى صَاحِبِهَا عَقْلَهُ حِينَ يُهْبِلُ التَّرَابَ عَلَى عُمُرِهِ الْمَهْدُورِ. وَلِذَا، فَإِنْ أَكْثَرُهُمْ يُفَضِّلُ - لَا إِرَادِيًّا فِي الْغَالِبِ - شَخْصَةَ الْمَوْضُوعِ وَتَصْوِيرَ نَفْسِهِ فِي صُورَةِ ضَحِيَّةِ الْمُؤَامَرَاتِ عَلَى شَخْصِهِ؛ الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي لَا تَطْعَنُ فِي تَصَوُّرَاتِ الْجَمَاعَةِ بِقَدْرِ مَا تَوْنِسْنَهَا. فَكَأَنَّهُ اتِّفَاقٌ ضَمْنِيٌّ؛ يَحْتَفِظُ بِمَوْجِبِهِ الْمُنْتَشِقِ بِسَلَامَةِ عَقْلِهِ وَاتِّزَانِ نَفْسِهِ بَلْ وَتَقْدِيرِهِ لِذَاتِهِ «الْمُنَاضِلَةَ» «الْمُضْطَهَدَةَ»، وَتَحْتَفِظُ الْجَمَاعَةُ بِتِمَاسُكِهَا التَّنْظِيمِيَّ؛ لِيَخْرُجَ مُحَمَّدٌ غَزْلَانٌ إِلَى الْعَلَنِ بِصَفَاقَتِهِ الْمَعْهُودَةِ زَاعِمًا أَنَّ الْهَلْبَاوِيَّ لَمْ يَكُنْ عُضْوًا فِي الْجَمَاعَةِ، ثُمَّ يُصَرِّحُ خَيْرَتِ الشَّاطِرِ بِأَنَّ الْهَلْبَاوِيَّ لَمْ يَكُنْ قِيَادِيًّا مُهْمًا!!

٢٥٢- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو قَائِلًا: اللَّهُمَّ إِنْ ذُنُوبِي لَا تَضُرُّكَ، وَرَحْمَتُكَ إِيَّاي لَا تُنْقِصُكَ، فَاعْفِرْ لِي مَا لَا يُضُرُّكَ، وَهَبْنِي مَا لَا يُنْقِصُكَ.

٢٥٣- رُزِقْتُ مَرَّةً بَغِيرَ حِسَابٍ، ثُمَّ اسْتَسَلَمْتُ لِنَفْسِي بَعْدَهَا وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ التَّفَكِيرُ فِي قِلَّةِ مَا فِي يَدَيَّ، وَقَلَقْتُ عَلَى الرِّزْقِ الْمَغْيِبِ؛ أَيَأْتِي؟! فَلَمَّا أَفَقْتُ إِلَى جُرْمِي قُلْتُ لِنَفْسِي: وَيْلَكَ؟! أَرَزَقْتُ نَفْسَكَ فِي الْأَوَّلَى فَتَقْلِقِينَ عَلَى رِزْقِهَا فِي الثَّانِيَةِ؟! وَمَا كَانَ بَيْنَ الْحَالِ الْأَوَّلَى وَالثَّانِيَةِ إِلَّا «كُفْرٌ/ غَفْلَةٌ» لِحِظَةٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يُفَدِّدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(١). وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ.

٢٥٤- ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. (سُورَةُ الطَّلَاقِ: الْآيَةُ ٣).

٢٥٥- حِينَ تُفْصَحُ الْكَلِمَاتُ عَنْ بَكْمٍ أَصِيلٍ وَتَفْقَدُ قَدْرَتَهَا الْمَأْلُوفَةَ، فَإِنْ بِمَقْدُورِنَا إِدْرَاكَ مَا وَرَاءَهَا؛ إِدْرَاكَ مَا لَمْ تَسْتَطِعِ الْحُرُوفُ الْقَاصِرَةُ الْإِحَاطَةَ بِهِ ... هَذَا فَقَطْ إِذَا كُنَّا نَنْتَمِي لِبَنِي الْإِنْسَانِ!

(١) سُورَةُ النُّحْلِ: الْآيَةُ ٩٦.

٢٥٦- حنوك على الآخرين ومشاركتهم أحزانهم يُحرِّرك من آلامك الشخصية، ويجعلك أكثر تجرُّداً.

٢٥٧- اللهم اكلانا بعين رعاية أوليائك، وسددنا بعلمك الأزلي الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرة، ويسر أمورنا بقدرتك على كل شيء، وبارك لنا في كل شيء، بفضلِكَ وكرمك وجودك يا حليم يا عظيم.

٢٥٨- ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨) قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَذُوكُمْ وَتَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يُحدد القرآن، على لسان الكليم موسى عليه السلام، معايير من يورثهم الله الأرض بإذنه. وبرغم أن الأمر منوطٌ بالمشيئة الطليقة القاهرة، لكن الله جعل له شروطاً واجبة التحقق في المستخلفين. إن الصبر وصحة الاستعانة بالله هما معيارا التقوى، فهما يتحقق الاستخلاف في النفس قبل أن يأذن الله بتحقيقه على الأرض. وليس الصبر والاستعانة بالله مرادفين للخنوع والذلة وطاعة المتغلب من العبيد، كما أساء كثيرٌ من ذراري المسلمين الفهم. إذ الصبر هو تحمُّل البلاء الذي لا تستطيع له دفعاً، تحمله في الله فقط، وذلك ما وصفه سعد بن معاذ عليه رضوان الله: إنا لصُبرٌ في الحرب، ولم يقل صُبر على الضيم! أما الاستعانة فهي سلامة اليقين في المولى ﷻ كما يُستفاد من حديث النبي ﷺ المشهور لابن عباس^(٢)، ومن قول صفيه وربيه؛ الإمام علي عليه السلام في تعريفه للتقوى بأنها: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل. إن وراثة المؤمنين للأرض حتمية قرآنية ومسئولية ربانية لا تتحقق إلا بتحقيق معنى الاستخلاف في النفس أولاً، ولا تتحقق بمجرد امتلاك سلطة

(١) سورة الأعراف؛ الآيات ١٢٨، ١٢٩.

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظُ اللَّهُ يُحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهُ نَجْدَهُ نَجَاهُكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَتِ الصُّحُفُ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. رواه الترمذي: ٢٥١٦، وصححه الألباني.

على الأرض بالمواءمات والمقاربات السياسية البراغماتية التي يجترحها من تسمّوا بالإسلاميين. إن الذين يحملون بسلطة فوقية تُقيم الشرع الإلهي هم في حقيقة الأمر واهمون مُضلّلون. ولو كان سيد الأنبياء حاضراً اليوم، لقالوا له مثلها قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾^(١)؛ إنهم يريدون غير ذات الشوكة. أو هم يظنون قزامة ما واجهوا وسخافة ما احتملوا هي ذات الشوكة! إنهم يجهلون أن ذات الشوكة، التي يُحقّ الله بها الحق ويُبطل الباطل؛ هي عملٌ ضخم ليسوا مؤهلين لخوضه بمنطقهم، منطق شعب الله المختار. إن منطق الشعب المختار يتحول بين هؤلاء وبين استفادة العالم منهم، بل يحول بين هذا الشعب المختار وبين تحقيق منطق الاستخلاف فيه.

٢٥٩- اللهم إني أسألك أن تبسط لساني بشكر النعمة منك، وكفى بسلامة البصيرة من نعمة تعبدتني بها ما كتبت عليّ الحياة في كنفك.

٢٦٠- عجبت ممن ضاق رزقه كيف لم يفزع إلى دُعاء الكليم موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٢)؛ فإن ابنة الرجل الصالح جاءت بعقبها تدعوه للقاء أبيها، ورزق بدعوته زوجاً وبيتاً وعملاً دام عشر سنوات!

٢٦١- البر شيءٌ هينٌ؛ وجهٌ طلقٌ، وكلامٌ لينٌ!

٢٦٢- مما يُنسب للكثيرين من أئمة هذه الأمة (العز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهما)؛ القول بأن: القتل شهادةٌ، والسجن خلوةٌ، والتشريد سياحةٌ، والنفي هجرةٌ. فتأمل كيف كانت حيوات هؤلاء الأولياء، الذين تشكّلوا بالعبودية الحقّة؛ تمثلاً صادقاً لقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمَالِكِينَ﴾^(٣)، وكيف أنهم لا يرون إلا رحمة الله في كلّ نازلة. فالقتل على حالهم شهادةٌ في سبيله،

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٢٩.

(٢) سورة القصص؛ الآية ٢٤.

(٣) سورة الأنعام؛ الآية ١٦٢.

والسجنُ خُلوةٌ يُتَقَرَّبُ فيها وبها إليه، والتشريدُ سياحةٌ في أرضه للنظر في ملكه والتعرُّف على بديع صنعه وعظيم آلائه، والنفي والإبعادُ من المنزل المألوف والموطن المعتاد هجرةٌ إليه تعالى. وصدق سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

٢٦٣- اللهم إنك أمرت أينا إبراهيم بالأذان فينا بالحج ونحن بعد في عالم الذر، وآليت على نفسك البلاغ؛ فاللهم بلاغاً لقلوبٍ لبَّت من قبل البلاغ؛ (البلاغ هو الإذن أو الدعوة بلغة المتصوفة).

٢٦٤- لا «تمنح» المحتاج صدقةً مقطوعة، ولا تُعوِّذه انتظارها وتوقعها. بل ولا «تمنح» طفلك شيئاً بلا مُقابل. إن ذلك لا يجعلُ المتلقِّي يعتادُ التبطلُ ويدمنُ الإلحاف ولا يستحي من إراقة ماء وجهه فحسب، فلا يشعرُ للرزق بقيمة. بل يجعلُك في حسِّه مركزاً/ رزاقاً يعطى بلا سبب، فينحرفُ توجُّهه لا شعورياً عن ربِّه متوجِّهاً إليك. ثم مُنحدرًا لا اعتبار ما يناله منك حقاً مكتسباً بغير جهد. فإن امتنعت أثر ذلك في دينه، وأجج العداوة بينكما. إن ذهنية الصدقة هي ذهنية المتلقِّي المفعول به التي نهى عنها النبي صلوات الله وسلامه عليه في قوله: *«اليد العليا خير من اليد السفلى»*^(٢). لكن أهدأ نهياً عن الصدقة بالمخالفة للأمر النبوي؟ بالطبع لا، ولكنني أريدُ تقييدها بشروطٍ مُستقاة من واقع فهمي لسيرة المصطفى وسنته. وما ذلك إلا بأن تجعل صدقتك أو هبتك مرهونةً بعمل، ولو صوري. حتَّى لو كان ذلك بحفر حُفرة ثم ردمها، ليرسخ في وجدان متلقِّيها ألا مناص من الكدح في سبيل الرزق. أمّا طفلك، فلترهن عطيتك له بتعلُّم شيءٍ جديد، أو إسداء يد للغير. تقَبَّلَ اللهُ مِنَّا ومنكم.

(١) سورة يونس؛ الآية ٦٢ .

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفَعَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ». رواه البخاري: ١٤٢٩، ورواه مسلم: ١٠٣٣ .

٢٦٥- من حِكَم العارف بالله سيدي ابن عطاء الله السكندري: شتان بين من يُسْتَدَلُّ به أو يستدل عليه؛ فالمستدلُّ به عرف الحق، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يُستدلُّ عليه، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي الموصلة إليه.

وقد كتبتُ على هامشها: إلهي؛ كيف أَسْتَدُلُّ على وجودك وأنت من يُسْتَدَلُّ به؟! ومن أكون حتى أَسْتَدُلُّ على وجودك بوجودي؟! وهل يُسْتَدَلُّ على الأكمل بالنقص؟!!

٢٦٦- يا من لا تُدْرِكُكُ الأبصارُ لكمالِ ذاتِكَ، وتُدْرِكُ الأبصارَ لإحاطةِ صفاتِكَ... رأيتُك يا ربَّ... رأيتُك في نفخة روحك التي أسكنتها الطين، فرفعت بها مقام الوحل لأمين... رأيتُك في نفسي؛ في طابع الخير القدسيِّ، وفي دَقَّةِ النفس... وعرفت كيف تزن عملي بنيتي، بإيمانٍ طبعته على خلجات نفسي، لا بحرفة راج بها دنسي... وأيقنتُ أن الغرس الذي تكلِّوهُ عين رعايتك باسمك القيُّوم قد أعيا إبليس وذريته بعدما درست القوانين وذابت المدونات وتهاوت البنى؛ لتزداد نصارته... فتحررت من كلِّ شيء، وتبرأت وبرئت من كلِّ حولٍ وقوةٍ إلا مشيئتكَ... لا إله إلا أنت لا شريك لك، ولا شبيه ولا مثل... تباركت وتعاليت، سبحانه أنت كما أثبتت على نفسك.

٢٦٧- حين يُقرر المولى سبحانه أنه قدر فيها أقواتها في أربعة أيام^(١)، ويبدأ «علم الاقتصاد» مباحثه بما يُسمِّيه «مشكلة الندرة»، فإن ذلك يعني فوراً، وبلا أدنى تردُّد؛ أن ما يُسمَّى بـ«علم الاقتصاد» ليس سوى تجهيل وتضليل واستعباد. إنَّه سبحانه يُقرُّ حقيقة تكوينية؛ وهي احتواء الأرض بإذن ربِّها على ما يكفي خلقه جميعاً من القوت، سواءً للسائلين؛ ما دام الليل والنهار. لكنَّ كفاية القوت لا تعني تساوي رزق العباد. ولو كان المولى سبحانه يتحدَّث عن طوبيا (فردوسٍ أرضيٍّ) لا كبد فيها ولا نَصَب؛ لتحَدَّث عن مساواةٍ في الأرزاق وليس في الأقوات. فالرزقُ هو كُلُّ ما

(١) ﴿وَقَدَرْنَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْإِنْسَانِ﴾ سورة فصلت؛ الآية ١٠.

يُرزقه الإنسان ولو كان فائضاً عن حاجته. أمّا القوت فهو ما يُقيم أوده ويحفظ عليه حياته. فكلُّ قوتٍ رزقٌ، وليس كلُّ رزقٍ قوتاً. والرزق أشمل لتعلُّقه بعباء الربوبية ونموّه بالسعي الذي يعكس الفروق الفردية، لكن القوت أضيق لتعلُّقه بامثال الغني للشرعية الإلهية، وعدم احتكاره للأقوات أو المغالاة في أسعارها، فضلاً عن أداء زكاتها. إذن فالحديث عن الثدرة كُفّر بالنعمة وتدلّيس على الأفهام وتكريس للإفقار، ورُبّما كان الحديث عن الأثرة والاحتكار وسوء التوزيع أكثر تفسيرية وأقرب للحق. لكن حتى فكرة سوء التوزيع نفسها تقتضي مركزاً كامناً تتحقق من خلاله العدالة المنشودة بدافع قسريٍّ برّاني؛ لا يُنصف إلا بظلم! أمّا الإسلام فإنه يتحدّث عن الفعل الإنسانيّ الذي يُحرّكه وازعج جَوَائِيٍّ؛ فعلٌ ضمير حيٍّ لا يبخلس الناس أشياءهم التي قدّرها الله لهم بالميلاد. إن كفاية القوت هو أهمُّ تجليات سلامة التصوّر التوحيديّ في المجتمع، وانتفاء استعباد العبيد للعبيد، وإعادة توجّه الكلّ إلى ربّه الحقّ. فقد أرسل الله رسلاً بالتوحيد، ليقوموا بين الناس بالقسط. ورضي الله عن أبي ذرّ الذي يروى أنه قال: عجبت ممن لا يجد قوت يومه؛ كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه!

٢٦٨- العمل أم نتيجته ... ما هو حافز المسلم للكد والاجتهاد؟
يُخبرنا دجالو «علوم الإدارة» ومشعوذو «التنمية البشرية» و«الدعاة الجُدد»؛ أن «النجاح» المادي، بتحقيق الأهداف التاريخية؛ هو كلُّ شيء. وأن نجاحك دليل رضا «الإله» عنك!! ومن ثمّ كان تعلق المضللين بنتائج أعمالهم أمراً طبعياً، باعتبار النتيجة فردوساً أرضياً! إن الحافز عند هؤلاء هو النتيجة المرجوة، فإذا بذلوا قصارى ما يستطيعون، وباءت تلك الجهود بالفشل؛ فإنهم يازمون لأن النتيجة لم تكن على ما يشتهون. وقد «يستسلم» بعضهم لـ«القدر»؛ مُعتبراً ذلك من الإيمان! الإسلام على العكس من ذلك يُحضّ على العمل، ولا يعبأ بالنتيجة؛ بل يجعلها خارج حساباتك. فالعمل فقط هو مناط التكليف، والنتيجة مُعلقة بالمشيئة الإلهية الطليقة. إنه حتى لا يُعلق ثوابك/ عقابك كلياً بعملك؛ بل يُعلقها أصلاً بلطف الباري.

إن مقدار الجهد المبذول هو مناط التكليف؛ أن تشغل بإثراء ذاتك بتوجيهها كلياً في جلّ حركاتها إلى الله، أما النتيجة و«النجاح» فلا ضامن لها لتعلقها بالمشيئة، وإن كنا نستعين بالأسباب التي قد تؤدي للنتائج بإذن الله وقد لا تؤدي، ليظل التحقق غير حتمي، وهو جوهر الكبد الإنساني في الحياة الدنيا. لكن المفهوم المزور لـ«النجاح»؛ يجعل الإنسان عبداً لذاته وهواه باسم «النجاح» و«خدمة الإنسانية»! إن الإسلام يخبرنا أن «نجاحك» الدنيوي لا قيمة له في ميزان الحق، ومن ثم في ميزانك؛ لأن «النجاح» نتيجة معلقة بأمر خارج عن إرادتك. أما العمل، فهو كل ميزانك وجهك ... بل ووجودك. فأجرك معلق بالعمل ومدى اجتهادك فيه، ونيتك في أدائه، وإخلاصك في أدائه.

إن الحافظ في الإسلام مناقض لحوافز «الإدارة» و«التنمية البشرية» و«البرمجة العصبية» ابتداءً؛ فإذا كان الحافظ في الأخيرة هو «النجاح» الدنيوي والصعود الاجتماعي، فإن الحافظ في الإسلام هو مراقبة الله: **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**. قد ترغب بـ«النجاح» المادي لأن الإنسان خلق ضعيفاً، ولأنك مفطور على حُبّ النجاح. وقد تتمناه وتعمل لأجله أحياناً كثيرة، لأن الإنسان ينسى ويغفل. لكن يجب أن تتذكر دائماً أن هذا ليس هو الأصل؛ بل هو الانحراف الاستثنائي الذي قد يغفره الله لك بإذنه.

إن الحافظ في الإسلام هو الإيمان القلبي المنشئ لعمل تتوجه به إلى الله مُسْلِماً، لا أن تسعى «للتطويع» الإله لرغباتك وأهدافك. إن هذه الشعوذة تُناقض الإسلام وتنقضه ابتداءً!!

٢٦٩- أعمى يقودُ بصيراً لا أب لكمُ قد ضلَّ من كانت العميان تهديه!
(بشار بن بُرد)

(١) روى البخاري في كتاب الإيمان - من حديث طويل - عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل؛ فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث»، قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٢٧٠- تصدر الموسيقى الشرقية التقليدية عن وجدانٍ مختلف كلياً، وجدان مثقل بالدين والأسطورة؛ وهو وجدان يؤمن ابتداءً بالقضاء والقدر وليس لديه ذلك الدأب الإلحادي لإعادة تشكيل العالم وفق نموذج نظري موهوم. لذا فهذه الموسيقى تعبر عن العالم وتعكسه كما هو، ولا تسعى لاختلاق عالم افتراضي كما تفعل الموسيقى الغربية الكلاسيكية. ولا يمكن إدراك الطبيعة اللاعقلانية/الروحية للموسيقى الشرقية، إلا بتذوق الموسيقى الفارسية التقليدية. فهي نقبض الكلاسيك الغربي؛ من حيث كونها أقرب لنبضات غير منتظمة لقلب وجل! إنها تعكس بهاء العالم كما خلقه الله ...

٢٧١- إذا ادركنا أن الفن في حقيقته وفي التحليل النهائي دين؛ أي أنه صورة من صور العبادة التي تجعل العلاقة بين الفنان وعمله ذات طبيعة دينية، بل وتجعل المنتج النهائي ديناً حقيقياً. فعلى العكس من ذلك نجد أن رقص وموسيقى بعض الصوفية دينٌ انفصل عن مصدره الأصلي؛ فأُمسى فناً. أو دين جديد مستقل بذاته. وإذا كان الأول فناً/عبادة ضلت طريقها إلى الله في رحلة بحثها عنه، فإن الثاني عبادة/فن ضلت طريقها حين اطمأنت إلى أن معرفتها بالله نهائية لا تشوبها شائبة، ولا يمكن أن تتغير. الأول رغبة في المعرفة مع التمرکز حول الذات، والثاني عزوف عنها وتمرکز حول الذات، وإن بدا العكس. ويبدو أن بروز الذات في هذه الرحلة وهيمتها؛ هو سبب الضلال في الحالين!

٢٧٢- صحيح أن الشك أول الإيمان، لكنه كثيراً جداً ما يكون أول الكفر. ورُبما كانت الطمأنينة التي يرثها البعض، مع ورائته لدينه بغير تمحيص؛ خير له من شكٍ يُضيع عقله ويدمر حياته. إن الإنسان مُكلف بالوصول إلى الله، لكنه سبحانه قد منَّ على الغالبية براحة تعفيها من عناء التساؤل والبحث؛ فورثوا ما أورثوه وقالوا ﴿سَيَقْفَرُنَا﴾^(١). إن الإنسان يُحاسب بقدر معرفته، لذا فكلما زادت المعرفة نُقل الحساب وازدادت صعوبته. وهؤلاء الذين خلطوا بإيمانهم

(١) سورة الأعراف؛ آية ١٦٩.

شركاً صغيراً عن جهل ورعونة، خيرٌ ممن اغتروا بالمعارف فسقطوا في شركٍ أكبر! إن المعرفة ليست فقط مسئولية، بل هي نكبة في كثير من الأحيان؛ وذلك لغلبة الهوى مع كثرتها. لذا، فقد أسفقت منها السماوات والأرض والجبال، وحملها الظلوم الجهول!

٢٧٣- شَوْقُ إِلَيْكَ، تَفْيِضُ مِنْهُ الْأَدْمَعُ وَجَوَى عَلَيْكَ، تَضِيقُ مِنْهُ الْأَضْلَعُ.
وَهَوَى تُجَدِّدُهُ اللَّيَالِي، كُلَّمَا قَدُمْتُ، وَتُرْجَعُهُ السَّنُونُ، فَيَرْجِعُ.
(البحثري)

٢٧٤- يُمكن اعتبار الكاتب والمفكر المصري أحمد أمين؛ رأس الجيل الذي مثل آخر المؤمنين وأول الهيومانيين العلمانيين (الملحدين). مثله في ذلك مثل دانتى إlijجري وتوماس مور وغيرهم. والإلحاد، بعكس ما قد شاع في أوساط المتفقيهن؛ ليس هو الإنكار البسيط لوجود الألوهية، فهذا عملياً مُستحيل، وقد صرَّح الرجل في نهاية مذكراته بإيمانه؛ والذي يغلب عليه الطابع الغنوصي للعقلانيين. لكن الإلحاد الذي نقصده هو إنكار الحاكمية الكلية للوحي الإلهي على الوجود الإنساني، وذلك كما استخدم اللفظ في القرآن، فهو إنكارٌ لبعض أسائه وصفاته سبحانه، أو هو إنكارٌ لبعض الوحي وحجتيه انصرافاً لغيره، أو إنكارٌ للآيات بجملتها.

وإلحاد أحمد أمين وطه حسين ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وعباس العقاد هو من النوع الأول؛ إنكارٌ (غير واع في أكثر الأحيان) لطلاقة القدرة تأثراً بصورة الإله ومفهوم الألوهية في الفلسفات الغربية، وإعلاء لـ«العقل» على الوحي تأثراً بفعل «النهضة الأوروبية». لكن هل كان رحمه الله واعياً بأنه يتقضى بعض عرى إيمانه بغير أن يدري؟ الله وحده أعلم، وإن كُنْتُ أَرْجَحُ أنه -وكل جيله- لم يكونوا واعين بذلك، بل رُبَّما قَلَدَ بَعْضُهُمْ «أُسَازِهِم» لُطْفِي السَّيِّدَ جَهْلًا ثم استمرَّ ذلك أو استكبر الرجوع عنه، أو رُبَّما لم يجد بديلاً مُستَسَاعِياً في ذلك العصر المضطرب.

ومن مظاهر ذلك الإلحاد -حسبنا ذكر في مذكراته- تشاؤمه المفرط وحُزنه العميق وانشغاله رُبَّما بالشر الذي لم يقع، وهو الانشغال الذي يُظلم النفس ويؤزِّمها؛ ذلك

أنَّهُ ما من مُصيبة تقع إلا وتنطوي على لُطفٍ إلهي يُخفف وطأتها ويعدُّ بتجاوزها، لكنَّ الانشغال بالمصيبة قبل وقوعها هو انشغالٌ بلا لُطف كما قال شيخنا الشعراوي رحمه الله. المظهر الثاني هو عدم ثقته بنفسه وبما يعتقد، أيًا كان، وهو الأمر الذي جعله فيما يكتُب ويعتق من أفكار؛ رهناً بآراء الآخرين ومدحهم أو قدحهم، وقد أورد حادثاً له مع عاطف بركات مُدير مدرسة القضاء الشرعي في آخر الكتاب، يُدلل به على ذلك. الأمر الثالث نقيضٌ للأوّل، وهو التفاؤل السطحي الساذج الذي تقتضيه المنظومة العقلانيّة الماديّة في بدايتها. فهو قد يتفائل تفاؤلاً طفولياً ساذجاً لا أصل له، ليرتد به إخفاق النسق العقلاني المادي لتشاؤمه العميق. ومثال ذلك نصيحته الحماسيّة لفیصل ملك العراق، آنذاك؛ بإدخال التعليم العالي وتعميمه بالعراق، فهو خيرٌ كُلّه، ولا ضير من زيادته عن الحاجة! وهو لا ينطلق من معرفة بحال العراق ولا بحال التعليم العالي في أوروبا والغرب؛ بل هي عاطفةٌ من عانى ليحصل على تعليم شبه عال في مدرسة القضاء بعد فشله في دخول دار العلوم!

لقد ذكرنا إلحاد أحمد أمين شبه العقلاني، لأنّه على إيمانه العميق بوجود الله ورحمته وتصديقه بأن الإنسان مفطورٌ على «الشعور بإله» إلا أنّهُ ابن عصره؛ واحدٌ من الجيل الذي حاول أو اعتسف المحاولة للتوفيق بين العقل المادي والوحي، بتأثير الهزيمة النفسيّة. وقد فشل الجيل كُلُّه في ذلك، برغم كُلِّ ما خلّفوا من كتابات «إسلاميّة»، فشلوا ليقرّخوا جيلاً أكثر إلحاداً، ولو بشكل لا إراديّ. على الجُملة، فإنَّ الرُّجل في مُذكّراته يبدو صادق اللهجة لا يتصنّع ولا يَكذب، لدرجة كشفه لبعض السذاجات التي قد ينجّل غيره من ذكرها.

لقد أورتته الفلسفةُ مرارةً لعجزه عن وضعها موضع التنفيذ، كما أشار في غير موضع؛ كما زادت حساسيّة الأديب تشاؤمه الغامض من المستقبل؛ التشاؤم الذي لم يَكُن يعرف أن مصدره هو نسقه الفلسفي الماديّ. رحمه الله وعفا عنه.

٢٧٥- ما قل وكفى، خير مما كُثر وألهى؛ قاعدة ذهبيّة ليس في المال فحسب، بل في العلم أيضًا. إذ من العلم ما يحجب عن الحق، ويُلهي عن العبوديّة لله بطلب

الشهرة والعلو في الدنيا بالعلم، وذلك تحت غطاء «شرعي» هو: الدعوة إلى الله. وهذه من تلبّسات إبليس!

وعلى كل متعلم - وكلنا متعلم من المهد إلى اللحد - أن يعرف متى وأين يكفّ وعم يكفّ، كما عرف أين وكيف يبدأ وبم يبدأ، حتى يعرّج ولا يُحجب. اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا يحدونا على درب العبودية لك وحدك، ولا يحد بنا.

٢٧٦- إن إدراك الطبيعة العلمانية لبعض الميول والسلوكيات والممارسات الإنسانية، يقتضي من المفكر والأديب قدرًا من علمنة الذات وترشيد الآخر؛ حتى يستطيع الوقوف على طبيعة الظاهرة محل الدراسة، ومصدرها وطبيعتها تجسدها في الواقع. وإن كان هذا المفكر أو الأديب مؤمنًا، فهو في الغالب الأعم يكون أقرب للتصوّف؛ وذلك لتعويض الجفاف الروحي الذي يُسببه له تفكيك الواقع وتحليله.

٢٧٧- ليس بالخُبز وحده يحيا الإنسان. كما أنه بدونَه لن يحيا أصلًا!

٢٧٨- قد لا يجلب لنا سعيُنا السعادة، لكنّ السعادة مُستحيلة بغير سعي. (بنيامين دزرائيلي)

٢٧٩- ليس هناك أشدَّ خطورةً من ليس عنده ما يخسره!

٢٨٠- إذا كُنْتَ كُلَّما عثرت على المفتاح، غيّر أحدهم القفل في غفلة منك؛ حماقة أو حسدًا... فتعلّم كيف تكسر الباب!

٢٨١- «لا يكمن الفشل في السقوط بحدّ ذاته، بل في عجزنا عن القيام ثانية لمواصلة الرحلة!»؛ ريتشارد نيكسون. ولا يُنبئك مثلُ خبير!

٢٨٢- نحنُ نفتقد من نُحبُّ في أوقات الرضا، لكننا نفتقد من يحبوننا في لحظات الألم.

٢٨٣- «مما لا شك فيه أنه لا يمكن إلحاق ضرر كبير بالإسلام، باعتقال شيوخه وعلمائه، وحظر ممارسة شعائره، ومصادرة كتبه. فالمسلمون يستطيعون الصلاة فرادى في أي مكان إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وفي هذا تكمن أحد أسرار قدرة الإسلام على المقاومة طويلة المدى تحت الحكم الشمولي. وهو ما يُفسَّر، مثلاً؛ بقاء ملايين المسلمين الصينيين على دينهم، برغم ماوتسي تونغ وثورته الثقافية. لكن من المؤسف أن الإسلام ليس منيعاً بنفس الدرجة في مواجهة التسلُّ الخبيث لتكنولوجيا الحضارة الغربية التي تنال من قوّته، بالتهامة تدريجياً من الداخل. ذلك أن للمجتمع الصناعي الغربي تأثيراً ساماً على كافة الأديان، بترويجهِ للقيم المادية النفعيّة المحضة: تحقيق أقصى ربح، عبادة الزيادة الدائمة للإنتاج، أسطورة التقدم اللانهائي ... إلخ، وتحييد القيم الأخلاقية، ووصم كُلِّ مظاهر الحياة بطابع عقلائيٍّ ماديٍّ». (مقتطف من كتاب مُراد هوفمان: يوميات ألماني مُسلم)

٢٨٤- من دُرر الشيخ محمّد الغزالي رحمه الله؛ قوله: إن الله ﷻ وتعالى ربّي محمّداً ﷺ؛ ليربي به العرب، وربّي العرب بمحمّد ﷺ؛ ليربي بهم العالم.

٢٨٥- تُشرقُ الفرصة كالشمس، فإن كان لديك من الخيال ما يُمكنك من شهود ذلك الشروق ومعابنته في مُنتصف الليلة السابقة عليه، فأنت لست «قائداً» نافذ البصيرة فحسب، أو مُجرّد «رجُل أعمالٍ» مفطور؛ بل مُفكّر عظيم بالقدر ذاته!

٢٨٦- كان خليل الرحمن، وأبو الأنبياء وإمام الملة الحنيفية، فتى يافعاً حين حطّم الأصنام وسخّر منها. لكن ثبات السنن الكونية بعد ختم الرسالات النبوية اقتضى مكابدة أحفاده بغير التعلّق بخوارق العادات، وبدلاً من المعجزة التي ساقها الله لإبقاء أبي إبراهيم عليه السلام حياً في قلب النار، فقد صار احتراقُ أحفاده في نيران النماردة الجُدد؛ طريقهم للحياة ... وللخلود. اللهم صل على إبراهيم وعلى أحفاده الأماجد.

٢٨٧- إذا دعاكَ للقصدِ إليه؛ رزقك حُسن التوكّل عليه.

٢٨٨- آفة العلم التخصص، وما ذلك إلا لأن المتخصصين يرون ضرورة رسوخ الكاتب أو الباحث في تقليد أكاديمي أو علمي أو ثقافي وضعي. إن هذا الرأي قد يشي ظاهره بالرحمة، لكن باطنه غالباً ما يطوي عذاب التقليد والتمذُّب، واجترار مقولات كهنة ذلك التقليد بعد أن يُستعبد الباحث لآليات «الكبار» ومناهجهم وأطروحاتهم، فيعمد لإعادة إنتاجها «تيسيراً» على نفسه! ورُبَّما كان هذا الرأي راجعاً لكثافة التقاليد والمذاهب والمناهج التي حجبت الإنسان عن الوحي، فظنَّ فيها المركزية، وحلَّت في لاوعيه محلَّ المصدر. على العكس من ذلك، فإن التجديد دائماً ما يكون مصحوباً برفض للمناهج القديمة التي أسنت بانفصالها التدريجي عن المصدر، وبتوقُّف الجدلية بينها وبين الوحي الإلهي. لذا، فإن التجديد الحقيقي هو التمكن من الآلة المتعارف عليها؛ لاستخدامها بشكل ابتكاريٍّ في تطوير منهج مُطرد يتجاوز ما حُبس فيه الكهنة. والباحث في ذلك يضع تقليداً جديداً، تقليداً ينبغي لمستخدميه الانتباه لمراحل تطوره، حتَّى إذا ما تكلَّس وحلَّ محلَّ المركز؛ بُدَّ للمصدر/ المركز، لإعادة الكرة... وهكذا إلى أن يشاء الله.

٢٨٩- تأثراً بتشوُّش وانحراف تصوُّرات الحركات الإسلامية؛ يظن بعض الباحثين، حتَّى غير المنتمين لهذه الحركات؛ أن «منهج الحركة الإسلامية» هو منهج حركة التنظيمات، والمفضي للدولة/ الطوبيا التي يُسيطر عليها هذا التنظيم أو ذاك. وهم في ذلك ينطلقون -لا شعورياً- من افتراض بأن الإسلام دينٌ سكوتيٌّ، وأن هذه الحركة الطارئة، كالحراك الحزبيِّ؛ سياسيةٌ في دوافعها وتجلياتها، ليُحصروا كما حُصر الغريُّون، ومن حذا حذوهم؛ فيما سمَّوه بـ«الإسلام السياسي». وكأن الإسلام يُمكن ألا يكون سياسياً! لكن على النقيض من ذلك كُلِّه؛ كان تصوُّر سيِّد قُطب واضحاً جلياً لا لبس فيه. فمنهج «الحركة الإسلامية» عنده ليس منهج التنظيم، ولكنه منهج الفعل الإنساني داخل التاريخ؛ منهج حركة كُلِّ المؤمنين للتحقق داخل التاريخ، وليس حركة تنظيم بعينه. إنَّه في ذلك يلتزم جادة التوحيد؛ حركة المجتمع المسلم المفتوح بالوحي، وليست حركة تنظيم/ حزب مغلق

بالأيديولوجيا سعيًا للسلطة. إذ الحركة بالوحي داخل التاريخ ليست حكرًا على من تسمّوا بـ«الإسلاميين» فحسب؛ بل هي فرضٌ على كُلِّ مُسلمٍ، بمُجرّد قبوله لصحيح الإسلام. إن ارتباط الحركة الإنسانية بالوحي لا يُقيدها، بل يوجهها ويكبح جماحها، بما أنَّه ارتباطٌ بمركزٍ ربّانيٍّ مُتجاوز؛ ارتباطٌ مشروطٌ بديمومة الاجتهاد في رحاب ذلك الوحي، وفاءً بالاحتياجات الفعلية للحركة الإنسانية للمؤمنين وليس استتباعًا لها. إن ارتباط الحركة بالوحي يعني الإذعان للحاكمية الإلهية الغيبية على عالم الشهادة، لتقويم شذوذ عالم الملك وانحرافه. إنَّه «منهج» المجتمع المسلم في أيّ زمانٍ ومكانٍ. قد يُفرضُ إلى دولةٍ، وقد لا يُفرضُ، فليس ذلك هو المناط. إذ مناط التكليف هو الحركة به داخل التاريخ سعيًا للتحقق بالعبودية/ الدعوة؛ مُجرّد الحركة بعد تمثُل المنهج الإلهي والإخلاص في تمثله. إن المؤمن مُجاسِب على صدق عقيدته وتحقيقها في نفسه، ثُمَّ على حركته بتلك العقيدة سعيًا لتحقيقها في الأرض. أمّا ما عدا ذلك، بإطلاقه، فموكولٌ لطلاقة المشيئة الإلهية؛ فإن شاء مَكَّن له في أرضه، وإن لم يشأ فلا راد لمشيئته سبحانه.

٢٩٠- إن بدرًا الكبرى في جوهرها عملٌ تربويٌّ ربّانيٌّ رفيع المستوى. يقول سبحانه في سورة الأنفال التي أنزلت في هذه المناسبة المباركة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُ لَكُمْ وَوَدُّوكَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾^(١). لقد خرج النبي الأعظم ﷺ وصحبه ليقطعوا طريق قافلة تجارية لقريش. خرجوا يطلبون غير ذات الشوكة، ليستعوضوا عما سلبوه بهجرتهم في سبيل الله. لقد أراد المؤمنون، في لحظة ضعفٍ إنسانيٍّ؛ المغنم سهلًا بعد طول الاضطهاد. لكن الله سبحانه -وهو القاهر فوق عباده- أراد أمرًا أكثر أهمية من استرداد بعض المتاع والمال المسلوب؛ أراد اختبارًا عظيمًا للمؤمنين، اختبارًا يُحق به الحق ويُبطل الباطل ويقطع دابر الكافرين. بل وأن يجعل ذلك هو الدافع الأساسي، وربّما الوحيد؛ للغزو في الإسلام. إنَّه يُمدُّ الجماعة المؤمنة بالملائكة تشدُّ عضدها،

(١) سورة الأنفال؛ الآية ٧.

ويأمر الناس أن يُغشيهم أمانة من عنده في قلب الفزع، ويُنزل عليهم ماء؛ ليطهرهم به ويربط على قلوبهم ويثبت به أقدامهم في أرض المعركة المعبرة. فيلقى المسلمون قُريشاً بثلاث العدد الذي جاءت به، وليس الثلث كالثلاث. فالمسلمون جوعى فقراء؛ لا يملكون دواباً تكفي لحملهم، بل لا يملكون دواباً تكفي لحمل بضع عشرات من العدد الذي نيف على الثلاثمائة. وقُريشٌ جاءت بخيلها وخيلائها؛ تذبح وتطعم. إن الشرك مُتخَمٌ كامل العُدَّة والإيمان فقيرةٌ وسائله المادية بما لا يُقاس.

إن الله يُعلم البشرية أن المؤمن مُقتدرٌ بالإيمان، وليس بالقُدرة المادية والإمكان. إن الله تعالى هو من يُنزل النصر، وما على المؤمن إلا أن يُعدَّ ما استطاع، والله هو الناصر. يقول سبحانه: ﴿قُلْ قَاتِلُوهُمْ وَلَنْ يَكُنَ اللَّهُ قَاتِلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَ اللَّهُ رَحِيًّا وَلِيًّا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١). إنها شهادة على النمط الذي أراده الله ﷻ أن يستقر في قلوب العصابة المختارة. ذلك النمط الذي غفل البعض عنه بعدها في حنين؛ فأيقظهم سبحانه مُقرِّعاً: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِينَ﴾^(٢). إنه يؤكِّد تهافت قيمة العُدَّة إن لم يسبقها إيمانٌ بأن النصر منه ﷻ. إنه ليس بعد هذا الدرس درسٌ في صدق التوكُّل عليه.

٢٩١- تسعى المادية الرأسالية والاشتراكية لإسقاط السمات الشخصية للإنسان، وتفريغها وتجويفها وتنميطة واختزاله في الوجود البراني؛ لتيسير استعباده في دوامة الإنتاج والاستهلاك. وهو الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا بزيادة مُعدلات العلمنة على المستويين الكامن والواعي، وبشكل متوحش. لكن مع انتهاء دورة النظام المادي، وتآكل شرعيته وسقوط ديباجاته المجوفة تحت وطأة جوع الهوية الفطري؛ فإن كُلَّ آليات العلمنة وأدواتها ينعكس دورها كلياً، لتُصبح روافع ومُكثِّفات، بل ومُحددات للهوية المفقدة (تجربة انهيار الكتلة الشيوعية). ورُبَّما كان ذلك داخلاً

(١) سورة الأنفال؛ الآية ١٧.

(٢) سورة التوبة؛ الآية ٢٥.

تحت قول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾^(١).

٢٩٢- رُبَّما كان تمرکز شعر نزار قبَّاني حول الأنثى مجرد مجازٍ عضويٍّ يتوارى خلفه. يتجلَّى ذلك في قصيدة «الحزن»؛ والتي تغنَّى بها كاظم الساهر، باعتبارها أغنيةً عاطفيةً! إن هذه القصيدة أنشودةٌ تمجيدٌ للهوية القومية العضوية؛ كإله. واستخدام الشاعر للمرأة كصورة مجازية عضوية يتفق مع الديباجات والأدبيات القومية العضوية ذات الطبيعة الوثنية، والتي تجعل من الأرض أمًّا وامرأة لا يتحقق الشعب إلا فيها، ولا تتحقق هي إلا به. إن هذا تصوُّر رومانتیکی في جوهره؛ تصوُّر حلوليٍّ أسطوريٍّ صادرٌ عن نسقٍ مُتغلقٍ بالشرک. ومن ثمَّ تسهِّل قراءته وتوظيفه، إذا أحللنا الأنثى المحبوبة/ المشتهاة محلَّ الأرض على النحو المشتهر.

٢٩٣- من الفوارق المهمة بين التصوُّرات الطوباوية (نسبةً للطوبيا وهي تعريب يوتوبيا Utopia) والتصور الإسلامي؛ أن المخلص (الماشيح/ المهدي) في التصوُّرات الطوباوية هو مركز النسق الأيديولوجي المغلق بالشرک، وأن التبشير بالطوبيا (الفردوس الأرضي) يكون من خلال العنف المفرط (الموجَّه للذات أو للآخر)، ومن ثمَّ فإنَّ ترايُد الشرور في الواقع يُعجِّل بظهوره، وبلوغ العنف درجة لا إنسانية لاقتلاع تلك الشرور البرَّانية بحربٍ كونية متوهمة تُنهي كُلَّ الحروب! إن وظيفة المخلص هنا هي إيقاف التاريخ وإنهاء التدافع لتحقيق الطوبيا «الخيرة» الآن وهنا، فالشرور في ذلك التصوُّر لا تكون إلا برَّانية؛ ذلك أن الإنسان بريء أخلاقياً، وضحية ظروفه «الموضوعية» المادية! وبعبارة أخرى، فإن التصوُّرات الطوباوية تنطوي على جبرية تاريخية مادية كامنة؛ فنسحقها المادي يفرض عليها شكلاً من أشكال الحتمية التي لا تستطيع دفعاً لاطرادها. لتُعادي التاريخ والإنسان الربَّاني. أمَّا المُجدد في التصوُّر الإسلامي، فوظيفته أصلاً هي كسر كافة الأنساق الأيديولوجية المغلقة بانفصالها التدريجي عن الوحي الإلهي؛ وذلك لإعادة نهر

(١) سورة الأنفال؛ الآية ٣٦.

التاريخ إلى مجراه بإعادة الاجتهاد/ الجهاد واستمراره في رحاب المركز المتجاوز. إن المُجدد يتعامل مع الأنساق المعرفية الإنسانية باعتبارها اجتهادات تاريخانية تؤكد ديمومة الكبد الإنساني داخل التاريخ. وهو ليس مركزاً لأي شيء بل مُجهّد يخطئ ويصيب، ويؤمن بأن الاجتهاد البشري ليس نهائياً ولن يكون كذلك أبداً، وأن الوحي الإلهي هو المركز النهائي والوحيد. وأنه برغم تفاوت الاجتهادات، في ظلال المركز، فيما لم يرد فيه نصٌّ؛ قريباً وبعيداً، فإنها تظلُّ آراءً احتماليةً بدرجة ما، وفهماً تاريخانياً لمركز متجاوز للتاريخ. إن المُجدد يصدر عن تصوّر بأن الخير والشرّ كليهما جَوَانِيّ مفطوّر في جبلة الإنسان، وأنه قادرٌ على الاختيار بينهما، وتحمل تبعه اختياره، فهذا هو جوهر التكليف.

٢٩٤- القرآن نصٌّ إلهيٌّ لا تاريخيٌّ (فوق التاريخ). أُوحي به ليكون فاعلاً داخل التاريخ، بل ويُقوِّمه كلّما انحرف مساره. إن القرآن ليس بدايةً للتاريخ، ولا نهايةً له. وكونه لا تاريخي ابتداءً هو ما يجعل له ذلك الأثر العميق والفعالية الربانية الدائمة.

٢٩٥- لا أذكر صاحب هذه المقولة، لكنّها تستحقّ الكتابة بآء الذهب: إلى الذين يسعون لإخراج الناس من عبادة القبور إلى عبادة أولياء الأمور، ومن سعة الإسلام إلى ضيق الأفهام، ومن عدل الإسلام إلى كفالة اللثام؛ أقرضوا الله قرصاً حسناً... وانقرضوا!

٢٩٦- إذا نظرنا من زاوية الدرس الكلامي، كآلة؛ فإن نقد الفكر الغربي ليس إثباتاً لذات متوهمة كما تفعل المدرسة الرومانتيكية ما بعد الكولونيالية، ومن ثمّ فهو ليس لبنة في مشروع بناء الذات. وإنّما يقوم ذلك النقد بدور الجهاد في تقويض وإزاحة وإزالة الأنساق الأيديولوجية الشريكة (أو الأصنام المعرفية) التي تحجب التوحيد عن الإنسانية، وذلك لإقامة الحجّة الرسالية على بني آدم بإسقاط وتهشيم كلّ الطواغيت؛ تمهيداً للبناء، والذي قد لا يتمّ أصلاً. فقد تُعبّد المؤمنون بإسقاط الطواغيت وإقامة الحجّة، وما عدا ذلك؛ فموكولٌ لمن لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

٢٩٧- أبغض المستشفيات والأطباء وركود المرض منذُ حادثتي. وقد ظننتُ لفترة بأنها «نيتشويّة»^(١) تحتقرُ الضعف الإنساني وتشمئزُّ من رائحته. لكنني اكتشفتُ مؤخراً أن تلك الكراهية نابعةٌ مما يترتّبُ عليه المرض؛ من إيقاف تامٍّ للتدافع والكبد الإنساني. فحياة المرضى -أعاذنا الله- خصوصاً نُزلاء المشافي؛ تُوقَفُ كُلُّ حياتهم البرانيّة بل وأحياناً تلك الجوّانيّة، التي قد يوقفوها هم طمعاً بأن ينعموا بفردوسيّة حالة الركود اللاتاريخي، ليموتوا وأنفاسهم تتردد في صدورهم. وأبدًا لم أشعر ببُغضٍ مُشابهٍ للموت، برغم أنّه نهايةٌ للتاريخ وقيامةٌ للميت؛ إذ رُبّما كان يقيني بحياةٍ أُخرى بعده، ولو كنت لا أعرفُ كنهها؛ هو ما يجعلني حتّى لا أخشاه. بل ويهيني التفكير فيه سكينّة وراحة!

٢٩٨- رُبّما كان ذوو الميول الطبواويّة الجارفة أقلّ تمسّكًا بالشفاء ورغبةً فيه؛ إذا ما مرضوا.

٢٩٩- اشتهر عن المؤرخ وفيلسوف التاريخ البريطاني، أرنولد توينبي، وصفه للغرب بأنه يُخلّق عدوّاً لإشباع حاجته النفسيّة. ففكرة الصراع والتحدّي هي لبُّ فلسفته في البقاء. وتفسيرُ ذلك عندي أن الغرب يتبنّى أنساقاً معرفيّةً مُغلقةً بالشرك. تلك الأنساق لا يُمكنها قبول فكرة هيمنة التوحيد على الكون والحياة، مع بقاء أنساقهم الشركية، بتعدّدها، في هامش الوجود البرّاني، وباعتبارها اختيارات شخصيةً يجب ألا تتعارض مع النظام العام. إذ طبيعة الرؤية الكونيّة المشتركة هي رؤية العالم كجزرٍ مُنعزلة مُتصارعة، شظايا مُتناحرة لا يجمعها جامعٌ إلا القهر الوحشي والعنف الدموي؛ لتحقيق الطبويا المرجوّ. إن هذه الأنساق لا يُمكنها تحقيق أيّ تعايشٍ جوّانيّ، ومن ثمّ تسعى لتحقيق «تعايشٍ» برّانيّ بإيجاد عدوٍّ برّانيّ مُشتركٍ يصرفها عن صراعاتها الأيديولوجيّة، بصراع أكبر. وقد صدق توينبي في وصف ذلك بأنه لبُّ فلسفة البقاء، لكنّه ليس لبُّ فلسفة بقاء الغرب فحسب، بل لبُّ فلسفة بقاء أي ظواهر وأنساقٍ شركيّةٍ وتجاوزها بغير صراع. إنّ الأزمة لا تكمنُ

(١) نسبة إلى فيلسوف القوّة: فريدريش نيتشه.

في لبّ فلسفة الغرب للبقاء، بقدر ما تكمن في التنظير له باعتباره حالة الطبيعة/ الفطرة! إن مرجع ذلك التصوّر هو طمس الوجود الجوّاني للإنسان تمامًا، واختزاله في وجودٍ ماديٍّ برّانيٍّ. ومن ثمّ، فإن محاولة التحقق لا تكون من خلال مكابدة النفس، بالتزام المنهج الرّبّاني في الكبد داخل التاريخ؛ طمعًا ببعض الإشباع القلبي لتهدئة الشعور وضمان استمرار الكبد الدنيوي بأقل قدر من الاحتكاك. بل تُختزل المسألة بتركيبتها في عمليّة برّانيّة تمامًا؛ الصراع مع الآخرين لإنهاء التاريخ، وتحقيق الطوبيا البرّانيّة. إن هذا الصراع يُرسّخ العناصر المشتركة في الوجود المتشظّي، ويُطيل عُمر الأنساق الأيديولوجيّة، بما أنّه يُجنّبها أي صدام جوّانيٍّ حقيقيٍّ قد يُقوّضها.

٣٠٠- من الفوارق المهمّة بين التصورات الطوباويّة والتصور التوحيدي أن الطوبيا تسعى -نظريًا- وعن طريق القهر البرّاني؛ تسعى للنفاذ لأعماق الإنسان وفضائه الجوّاني، ومحو وعيه التاريخي وذاكرته الإنسانيّة ليُصبح صفحةً بيضاء تمامًا يستطيع القائم بترشيد الواقع أن يُخطّ فيها أيّا من التّرهات التي تُعِنُّ له؛ ابتداءً من نقطة صفرٍ متوهّمة. ولعلّ محاولة ماوتسي تونغ المسماة بالثورة الثقافيّة، والتي راح ضحيتها عشرات الملايين؛ أحد أبرز الأمثلة المعاصرة. على العكس من ذلك، فإن الإسلام يسعى لتقويض الأعراض البرّانيّة فحسب، مؤمنًا بأن زوالها سوف يؤدي، ليس لأن يُصبح الإنسانُ صفحةً بيضاء، بل لأن ينتقل الشرك الذي سوّد تلك الصفحة إلى هامشها، فتتحسّن قدرة الإنسان على الاستقبال مُفسحةً الطريق للوحي، ليبدأ من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. إذ إن الإنسان ليس صفحةً بيضاء بريئة!

٣٠١- ليس للكثرة من اعتبار في النواميس الإلهية. لا كثرة المؤمنين ولا كثرة الكفار. وقد تنزل القرآن في مواطن كثيرة ليكسر هذا التوهّم في نفوس النبيّ والمؤمنين؛ مثلاً:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِينَ﴾ (سورة التوبة؛ الآية ٢٥).

﴿كَمْ مِنْ فَتْنَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة؛ الآية ٢٤٩).
 ﴿وَلَنْ تَقْطَعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾
 (سورة الأنعام؛ الآية ١١٦).

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (سورة يوسف؛ الآية ١٠٦).
 ... وغيرها الكثير.

بل إن القرآن يربط الكثرة، في القاسم الأعظم من استنكاره لها؛ بصفات سلبية تتنقص من الإيمان وتفصم عُراه. بل وتكشف انحدار الإنسان للشرك وعبادة الجموع وما درجت عليه من العادات، وإكسابها صفة العبادات. إن التدبر في هذه الآي يفتح الباب للتأمل في أمور ثلاثة:
 أولاً: حُجَّة الإجماع عند الأصوليين.

ثانياً: القول بتركيبة الإنسان ولزوم اجتماع الإسلام والجاهلية في كل نفس؛ وأن مناط التكليف هو السعي لتغليب التوحيد المفطور والمصدق بالتزليل على الشرك الذي يجنح له الطين. وأن الإسلام والجاهلية ليسا حالاتٍ صفرية نهائية؛ بل حالاتٌ مُركبةٌ مُتغيرةٌ.

ثالثاً: تقويض الأوهام السياسية الساذجة عن مصدر «شرعية» حُكم «الأغلبية»، وقيمتها المتوهمة!

٣٠٢- «كان أبو ذرّ الغفاري يُعلن برأيه في مجامع الناس بالشام، ويُندد بالأغنياء غير مُكتفٍ منهم بإخراج الزكاة، ويقول: يا معشر الأغنياء؛ واسوا الفقراء. بَشَّرَ الذين يكتزون الذهب والفضّة ولا يُنفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار؛ تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبه على الأغنياء، وحتى شكّا الأغنياء لمعاوية -وهو أمير الشام من طرف عُثمان- ما يلقونه من الناس. ولو لم يُبادر عثمان باستقدام أبي ذرّ إلى المدينة، لاتسع نطاق الفتنة بالشام. وقد خالف أبو ذرّ إجماع الصحابة بنظرته السابقة مع قيام الدليل القطعي من النقل المتواتر، والنصوص القرآنية الكثيرة المتضاربة على خلاف رأيه. وكان خلافاً

هذا في مسألة من كُبريات المسائل، ومع ذلك تركوا له حرية النظر، ولم يلق منهم أدنى ضغط، ولا أقل تحقير، فكانوا بذلك مُنفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء، وحرية النظر والتفكير.

وأبو ذر بمذهبه هذا، أول اشتراكيٍّ في المال؛ كان شاذًّا بين الصحابة مُخالفًا لإجماعهم. ولم يتعرَّضوا له في نظره واجتهاده إلا عندما خشوا من بثِّ الفتنة على الناس». (مقتطف من عبد الحميد بن باديس: رجال السلف ونسأؤه)

وتعليقي هو: تتجلى في النص السابق بعض السمات المميزة لمدرسة التهويل والتهويش التي ورث الشيخ ابن باديس رحمه الله تعاليمها من القاضي ابن العربي صاحب كتاب «العواصم من القواصم»، وقد كان من أوائل من حققوا كتابه المذكور، وله نشرة مشهورة في الجزائر. هذا التهويل الذي يعتمد على ضخامة كلام مرسل ومتناقض في إثبات خطأ مذهب أبي ذر رضي الله عنه. وإن كُنَّا نوافق الشيخ في خطأ مذهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن من طريق آخر.

انظر مثلاً قوله: «وقد خالف أبو ذر إجماع الصحابة ... مع قيام الدليل القطعي من النقل المتواتر»، فإن صحَّت مخالفة أبي ذر للدليل القطعي المتواتر، فكيف لم يتعرَّضوا له في نظره واجتهاده إلا عندما خشوا من بثِّ الفتنة على الناس؟ وكيف لم يشتهر رأيي «علمي» واحد يخطئ أبا ذر ما دام قد خالف دليلاً قطعياً؛ حتى بُعث من خلف ابن باديس في مصر وسوريا والجزائر وإندونيسيا من يُنظر لاشتراكية الإسلام؟ ولم كان جل فعل ذي النورين عليه السلام هو استدعاؤه من الشام، ونفيه إلى الربذة عقبها للتهدة (سياسة شرعية)؟!

ألم يكن في المجتمع من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من يُصحح اجتهاد أبي ذر؟ أم أنهم رأوا فيه اجتهاداً مُعتبراً، وإن خالفهم؛ وأن مسألة مخالفة الدليل القطعي المتواتر (الذي تعمَّد ابن باديس ألا يورده) من ابتكارات ابن العربي وابن باديس غفر الله لهما؟!

يبدو أن الصحابة لم يفهموا دعوة أبي ذر على أنها «اشتراكية» في المال كما يذهب الشيخ، بل يبدو لي أنه يردُّ بدعة تأصيل «اشتراكية الإسلام» بدعة مخالفة «اشتراكية»

أبي ذرٍّ للجمهور؛ مُسلِّماً بنسبة صاحب رسول الله لهذا الهراء! والأرجح عندي أن دعوة أبي ذرٍّ الأغنياء لمواساة الفقراء بأموالهم وجدها الصحابة فضلاً لا يجوز حمل الناس عليه ما أدّوا حق الله. وأن هؤلاء الصحابة -وعلى رأسهم عثمان- عرفوا أن قدرة المجتمع على دوام السمو لتلك الدرجة من الفضل التي خبروها على عهد رسول الله ﷺ لا يمكن أن تدوم، وأن التوحيد الاجتماعي في نقصٍ لازم، وهو ما كان أبو ذرٍّ غير واعي به وغير قادرٍ على احتماله. والله أعلم.

٣٠٣- الأصدقاء ثلاثة أنواع: حسنةٌ وهؤلاء نادرة، وسيئاتٌ وهؤلاء أكثريةٌ، وتكفيرٌ عن السيئات وهؤلاء كنار جهنم أو أشدَّ حرًّا!!

٣٠٤- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(١). فوالله ما لبث يوسف في السجن إلا لكلمات خرجت منه للذي ظن أنه ناجٍ منها، فإن الله لا يرضى لخلصائه سوى كمال الوجهة.

٣٠٥- يتجلى تفرد شخوص الراشدين الأربعة في اختتامهم. فقد كان خاتم الصديق: لا غالب إلا الله. وكان خاتم الفاروق: كفى بالموت واعظاً. وكان خاتم ذي النورين: لتصبرن أو لتندمن. وكان خاتم الإمام: الله الملك، وعليٌّ عبده. وقد كان ﷺ يعي ذلك منهم، ويعي أنهم على اختلافهم، فإنها هم طليعة الدعوة إلى الله؛ كُلُّ في موضعه وكُلُّ برؤيته الخاصة، وكُلُّ في لحظة التاريخيّة المتفرّدة، ليؤدي دوراً لم يكن ليؤديهِ غيره.

وتكتمل الصورة النفسيّة والوجدانيّة لهؤلاء السادة من أصحاب النبيّ، بحوارٍ شهير دار بينه وبينهم، يكشف عن جوهر شخوصهم وأهم معالمها، وإليك الحوار: نظر ﷺ إلى صاحبه الصديق، وسأله: «أُتُحِبُّ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا يَا أَبَا بَكْرٍ؟»، قال: نعم .. أحبُّ لأجلك ثلاثاً .. قال: «وما هي؟» قال: نظري إليك، وجلوسي بين يديك، وإنفاق مالي عليك. ثم نظر إلى عمر، وسأله: «وأنت يا عمر، أُتُحِبُّ مِنَ الدُّنْيَا

(١) سورة يوسف؛ الآية ٤٢.

شيئاً؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثاً .. قال: «وما هي؟» قال: أمرٌ بالمعروف ولو كان سرّاً، ونهيٌ عن المنكر ولو كان جهراً، وقول الحق ولو كان مرّاً. ثم نظر إلى عثمان، وسأله: «وأنت يا عثمان، أحب من الدنيا شيئاً؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثاً .. قال: «وما هي؟» قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وركعات بالليل والناس نيام. ثم نظر إلى علي، وسأله: «وأنت يا علي، أحب من الدنيا شيئاً؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثاً .. قال: «وما هي؟» قال: إكرام الضيف، والصوم في الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف.

وإذا كان بعض أصحاب «صنعة» تخريج الحديث من أصحاب الرؤى المادية الآلية قد ضعفوا هذه الرواية، فإن وقائع التاريخ وصفات الصحب الكرام وسياهم الخلقية والنفسية التي تنضح بها سيرهم العطرة؛ تؤكد الرواية جُملةً وتفصيلاً. صلى الله عليهم وعلى من ربّاهم.

٣٠٦- سبحانه القائل: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْقَيْْرِ أَمْنَةً مُعَاسَا يَفْشَنَ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾^(١)... فهو الأمن في هيئة النعاس، وهو الاطمئنان في صورة النوم الذي يوقف التاريخ مؤقتاً؛ لينجينا من الغم وتسكن به النفس، فعسى أن نكون من المؤمنين. فله الحمد في الأولى والآخرة.

٣٠٧- شاع في العقود الأخيرة، وبسبب ما يُسمّى بـ «المدرسة السلفية» المعاصرة، وتحديدًا منذ الشيخ الألباني -رحمه الله- أن الكتاب يكفي للمتعلم شيخاً. ولم يقتصر ذلك على ما يُسمّى بالعلوم الشرعية بطبيعة الحال؛ فامتد في الجيل الحالي إلى ما يُسمّى بالعلوم الإنسانية.

الكارثة الكامنة في ذلك ليس في كون الكتاب هو شيخك، لكن في كونه شيخك بغير آلة سليمة تسبّر بها غوره؛ بغير امتلاكٍ لخاصية اللغة. لذا، فإن كل قارئٍ يُمكنه إضفاء المعنى على ما يقرأ، بل واعتبار المعنى الذي استنبطه نهائياً. ولعل ذلك أحد الأسباب الرئيسية للسهولة المفاهيمية عند هذا الجيل؛ بأطيافه.

(١) سورة آل عمران؛ الآية ١٥٤.

إن أكثر نُقَاد الحالة السلفية من اليساريين والليبراليين وأطراف الإسلاميين المختلفة هم من نفس النوع، والذي يُمكن اعتباره مقلوبًا للحالة السلفية. بمعنى أن هؤلاء قد تلقوا معارفهم بنفس الطريقة التي تلقى بها السلفيون معارفهم، وذلك في محاولتهم، المحمودة الباعث والكارثية المآل، لتجاوز منظومة التعليم المتهالكة التي تُفرز أميين لا يُجيدون أصلًا كتابة أسماهم بشكل صحيح!

إن تدهور اللغة الأم يُساوي الجهل المطبق، فباب إدراك الوجود والعالم، بل وإجادة اللغات الأجنبية؛ هو التضلع في اللغة الأم، ولنا في الطهطاوي وطه حسين أسوة «حسنة»! وقد عرفت شبابًا مُخلصًا من التيارات كافة، إسلاميةً وعلمانيةً؛ يعتبر ما قرأه فتحًا لا يأتيه الباطل من بين يديه، وأنه نهاية التاريخ وذروة للمعرفة، وأن اللجوء لمرشد يوجّه له قراءاته هو نوعٌ من الوصاية غير المقبولة!

إن هذا الخلط بين الوصاية الفكرية والاستعانة بمن سبق على الدرب هو أحد تجليات تشوّه اللغة ومن ثم تشوّه إدراك الوجود. فالاستعانة بأستاذ تُسهّم في تجنب البداية الصفرية الطوباوية، وتفادي الوقوع في التيه بلا مركز، وتُعين على تأسيس منهج راسخ ومستقل للنظر. والاستعانة بشيخ أو أستاذ أو معلّم لا يعني ترديد مقولاته إلا للبيغاوات فحسب، أمّا أصحاب العقول الحرة فيتعيّن عليهم أن يفقهوا استخدامات اللغة، ثم يُلّمّوا بفهم السابقين لدلالاتها، (لأن اللغة -خصوصًا العربية- كائنٌ حيٌّ يعيش داخل التاريخ؛ مُحمّلٌ بدلالات كثيفة ومتقاطعة)، وذلك قبل أن يؤسسوا منهجهم الخاص، وإلا فسنظلّ ندور في الدائرة الطوباوية العبيّثة: نقرأ ولا نفهم، وإذا فهمنا لا نستفيد، وإن استفدنا لا نُفيد.

أعرف جيدًا أن أكبر أزمات جيلنا، والأجيال التالية؛ هي المعلّم القدوة، وبرغم الندرة الشديدة لهذه النوعية، إلا أنها موجودة، فقط يحتاج الأمر بحثًا جادًا. إن القراءة بدون خريطة إدراكية مؤهلة لتلقّي ما تقرأ، والتفاعل معه، وتجاوزه (بمعنى البناء عليه وعدم التوقّع فيه)؛ هي أخطر على الأمة من الجهل. فتوهم العلم أظع وأفدح أثرًا من الجهل المعترف به!

والله نسأل أن يُعلّمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علّمنا.

٣٠٨- إن قبول «الآخر» لا يعني قبول أصنامِهِ، بل يعني قبول التكريم الإلهي الذي شُرّف به كإنسانٍ؛ حُرّيَّتُهُ في اختيار الشرك الذي ارتضاهُ لنفسه. تلك الحُرّيّة التي صانها مانحها حتّى من قهره ﷻ، فلم يُكرهه على الإيمان، ولو أراد لأنفذ قضاءه سُبحانه. ومن ثمّ، فقبول الآخر عندنا ليس تسامُحًا، وإنّما هو عدلٌ تعبّدنا الله به. إنّه عبادةٌ من صميم العبادة وذكرُ الله من صميم الذكر. تسليمٌ مُطلق بالمركز المتجاوز، وهو الجوهر للتوحيد. أما التسامُح فمُجرّد منّة بشريّة وتنازُل رخيص؛ شركٌ كامنٌ يستبطن كون المُتسامِح مركزًا بذاته، يملك ويمنع ويبيد مقاليد الخلق!

٣٠٩- التنظيم (أي تنظيم) بتعريفه يقتضي تحديد أهدافٍ دنيويّةٍ وذلك ليستقطب اتباعًا، على عكس التيارات الاجتماعية/ الفكرية المفتوحة. وفشل التنظيم في تحقيق أهدافه الدنيويّة (السياسيّة والاقتصاديّة... إلخ)، ينهش قُدرة العضو على احتمال تسلُّط القيادة الهرميّة؛ إذ يُصبح ذلك بلا ثمنٍ. إلا لو كان تنظيمًا يعد أعضاءه بالجنة الفوريّة... كالحشاشين الإسماعيليّة!

٣١٠- يتشابه تنظيم الإخوان المسلمين المعاصرين مع الكنيسة الكاثوليكيّة في الكثير. ولكن أهم أوجه الشبه هو البنية التنظيميّة الهرميّة الوثنيّة وطبيعتها، وانعكاس ذلك على تصوّرات المتمرّنين للتنظيم. فالبنية تفرض نفسها على التصرُّور، وتعيد تشكيله بعد فترة. وفي حالة الإخوان؛ فقد حدث حلولٌ كاملٌ للإسلام في التنظيم، كما حدث الحلول الكامل للإله في الكنيسة من قبل. وكما أن الخلاص في الكاثوليكيّة لا يتم إلا داخل الكنيسة، فإن الخلاص عند الإخوان لا يتم إلا داخل التنظيم. فلا مسيحية خارج الكنيسة، ولا إسلام خارج الجماعة/ التنظيم.

على الجانب الآخر؛ يُشبه التيار السلفي البروتستانتي بشكل واضح، وعلى الكثير من المستويات. فمن الرؤية البيوريتانية (التطهريّة) التي تُشعّي الإنسان وتصوراته، إلى الولع بالحساب المادّي الكمّي للحسنات التي تُمهّد الطريق إلى الآخرة، وكأن الإنسان يعرف قيمة «التحويل» على وجه الدقّة، ومن ثمّ طبيعة «المقعد» الذي حجزه لنفسه في الفردوس!

لكن الأهم والأخطر هو الرؤية الحلوليّة التي تصم كل تصوّرات الإنسانِيّة في لحظات ارتكاس الفطرة، ولو اختلف موضع الحلول. فالحلول في السلفية (مثل البروتستانتية) يتم في مراكز متعددة ولا نهائية (بعكس الإخوان/ الكاثوليك)؛ في كل «المؤمنين»، ليُصبح كُلُّ منهم كنيسة قائمة بذاتها، وذلك اتساقاً مع تصوّر الخلاص الفردي الذي يغلب على مُعتنقي أفكار هذا التيّار.

والسؤال الآن في ضوء هذه النبذة عن التصوّر الحلولي للتيّارات الإسلاميّة الرئيسية؛ كيف ستتعامل هذه التيارات مع الإسلاميين المستقلين المعارضين لها؟! ولا أقول مع الليبراليين أو الاشتراكيين أو الأناركيين أو القوميّين.

إن الأطياف الأخرى -عدا الإسلاميين- ليس لها شعبيةٌ حقيقيّةٌ في الشارع المصري، ومن ثم فلا خوف منها. وسيتعامل معها الإسلاميون الذين وصلوا للسلطة بمزيج من الانبطاح الفكري والانتهازية؛ بسبب عدم قدرتهم على الحوار الجاد. لكن السؤال الخطير هو: هل سيُعتبر الإسلاميون المعارضون لتصوّرات الحُكّام وسياساتهم، خوارج وتكفيريين مُتطرفين يسعون لنقض الإسلام وهم حكم الشريعة؟! أم أن الكنيسة -عكس نمطها التاريخي- ستحمل «المنشقين» عليها، وستصبر على من يتقذرون اندماجها الانتهازي مع «البورجوازية»؟!!

٣١١- أحياناً تشتهي طعاماً لا تحتمله أمعاؤك، لسببٍ أو لآخر. وأحياناً تشتهي الخلوة في الوقت الذي لا يمكن لروحك أن تحتملها، برغم أنك زاهدٌ في لقاء البشر... في ذات اللحظة! عجباً لأمر الإنسان... ذلك المجهول!

٣١٢- ومن العصمة أنه كلما توّثّن السبب في حسّك؛ كُسر بدويّ يوقظ قلبك الغفلان، لتعود إلى المسبب تائباً مُستغفراً من شركٍ خفيّ كاد يودي بك. أن يُصرف عنك هواك؛ ليحتجب عنه قلبك بإرادتك. بهذا المعنى؛ فإن القهر الإلهي لا يعمل إلا في مجالك البرّاني تاركاً لك فضاءك الجوّاني، فإن رضيت فلك الرضا، وإلا فعليك السخط مُصاحباً لنفاذ القضاء.

وهذا اللطف الإلهي حافل بالمعاني والدلالات؛ فربما كنت خيرًا مما تظن، وربما يكون خيرك فقط بحاجة لهزة توقظه. إن هذه الهزات هي «فُرصٌ جديدةٌ» تُعرض عليك يوميًا كإنسانٍ، فهلا انتبهت قبل أن ينقضي أجلك!!

٣١٣- كُلَّمَا ابْتَعَدْتَ الْأُمَّةَ عَنِ الْوَحْيِ زَمَانِيًّا وَاغْتَرَبَ لِسَانُهَا عَنْ لِسَانِهِ؛ احتاجت لنصوصٍ وكلامٍ بشريٍّ يحمل إليها مقصوده، أو يُعيدُها إليه. الأول (الذي يحمل لها مقصوده) يحل محل الوحي تدريجيًّا، ويُصبح دينًا عند المتأخرين من كل فرقة/ مذهب. والثاني (الذي يُعيدُها إليه) يعيش بمقدار قدرته على إعادة الأمة للوحي كُلَّمَا شَرَدَتْ عَنْهُ. فالنصُّ البشري إحدى اثنتين: إمَّا يحول بينك وبين الوحي، وإمَّا يُجَلِّي بينكما.

وكل نصٍّ بشريٍّ لا يُعيدك للوحي الإلهي، فلا يُعوّل عليه.

٣١٤- ﴿فَأَفَقَدْ رَجَعْنَا لِلَّذِينَ خَلَقْنَا فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

حينما يتحدّث القرآن عن الفطرة، فإنه يتحدّث عن شيء مُحدّد؛ عن مركزٍ واضح: فطرة الله التي فطر الناس عليها. فهي ليست فطرة الطبيعة، ولا فطرة الصدفة، ولا فطرة العادات الاجتماعية. بل هي فطرة الخالق الخبير فحسب؛ فطرة الله.

إن المجتمع الجاهلي قد يلتقي مع هذه الفطرة في مساحةٍ مشتركةٍ، لكن يظلُّ تصوّره بعيدًا عنها بعد أن مُسخت فطرته الربّانية الأصلية التي فطر عليها. إنه يعرف بعض أحكامها، وقد يلتزم بها طواعية لدوافع مادية نفعية بحته، لكنّه يفتقد للمركز؛ لمصدر الإلزام الذي يحتفظ للفطرة بجوهرها الربّاني، ويجعل انتكاستها قابلةً للعلاج، بمحاكمتها لذلك المركز الإلهي.

إن شرط إدراك الفطرة الإلهية وطبيعة تكوينها وحركياتها مُرتبطٌ كليًا بإقامة الوجه للدين؛ الدين الحق وليس أي دينٍ آخر. فساعتها، وساعتها فقط؛ يُمكن للإنسان أن يدرك مغزاها وقوانينها.

(١) سورة الروم؛ الآية ٣٠.

إن شروط إدراك النواميس الإلهية في النفس المجبولة من نفخة إلهية، غير شروط إدراك النواميس الإلهية في الطبيعة المجبولة من الطين. فالأولى مرتبطة تماماً وكلياً بمعرفة الله وإسلام الوجه له ﷺ. أما الثانية، بارتباطها بـ «إعمار الأرض»؛ فهي مكفولة للمؤمن والكافر. إن إعمار النفس فلا ينفصل عن إعمار ما بينها وبين أصلها. يقول سبحانه في سورة النحل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١). إن هذا الهدى متعلقٌ بكشف القوانين الإلهية في النفس والمجتمع، إنه الهدى الحق. إن مخالفته لا تؤدي للضلال عن الغاية الربانية المرسومة فحسب؛ بل قد تؤدي لما هو أخطر كما يتبدى في الآية التي تليها: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٢). أن يُفترى على الله الكذب بسبب عدم الإيمان، فيفكك المركز؛ وينسب للدين الحق ما ليس منه كما قد يحتاج بعض الجاهل: أي دين تريدون؟ الأشعري أم السلفي أم المعتزلي أم الشيعي؟

إن الذين لا يؤمنون بآيات الله قد يشملهم المَعْتَمُّ صاحب الحرفة الوعظية؛ فربما كان مرتزقاً لا حظ له من الإيمان، وقد يفضلُه زاهداً لا حظ له من العلم. يفضلُه في أي شيء؟ في الاقتراب من الفطرة؛ بل في الالتصاق بها والاستجابة لإحوائها الربانية.

إنه لا يمكننا الحديث عن الفطرة مع أصحاب التصورات المادية من المشركين، بل يجب البدء أولاً بدعوتهم إلى الله؛ يجب دعوتهم لمعرفة الله، ولإخلاص الوجه له. حينها سيُدركون هم وحدهم معنى الفطرة، سيُدركونها بغير مُعلم. سيُدركونها لأن التوجُّه لبارئها يعني اليقين في المركز؛ في أنه لا تبديل لخلق الله... لا تبديل للفطرة، فهي جوهر الدين القيم، ونقطة البدء في معرفة الله.

يقول المولى ﷺ في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

(١) سورة النحل؛ الآية ١٠٤.

(٢) سورة النحل؛ الآية ١٠٥.

غَفِيلِينَ»^(١). وقد سمَّى الإمام عليُّ عليه السلام ميثاق البرزخ الذي ذُكر في الآية بميثاق الفطرة؛ أي ناموس استقامة النفخة الإلهية في أداء دورها في الحياة الدنيا على أكمل وجه، رغم اختلاطها بالطين. إنها فطرة الله، ويجب ردها إليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣١٥- أنا كائنٌ لا عقلائي، فلا أقيسُ أموري بعقلي بل بشعوري. لذا فغالبًا ما أكون راضيًا عن مصيري ولو كان مأساويًا؛ فقد اخترته بملء إرادتي. ليس بمعيار المصلحة أو المنفعة المادية، بل بمدى إثرائه لشعوري. ورُبَّما كان هذا هو سبب رفضي للعقلانية المادية، بجفافها اللاإنساني؛ وتجلياتها المُقبضة. من العلمانية الإلحادية إلى التدين «التطهري» الجاف. فالإيمان عندي شعورٌ فيّاضٌ؛ شعورٌ يُثري الوجود ويُضفي عليه الجمال، ويفعمه بالأمل في غدٍ مُغيَّب.

إن الإيمان هنا ليس تصوّرًا رياضيًا محدود العناصر محتوم النتائج، بل هو ذخيرةٌ لا نهائيةٌ تجمعلنا نوقن بشكل «غير عقلائي» (أي لا علاقة له بالعقل)؛ أن هذه الحياة القصيرة ليست كل شيء، وأن الآخرة ليست حتميةً عقلانيةً منقطعةً عمّا قبلها، بل هي استمرارٌ شعوريٌّ ربّانيٌّ للوجود الإنساني.

هذا الفيض الوجداني قد يولّد «عقلانيته» الخاصّة، ويُبرر الميثافيزيقا الشخصية من خلال مقولات وجدانية/ شعورية؛ ليُصبح «العقل» تبعًا للشعور. وهذا هو الفارق عندي بين الإنسان الربّاني المركّب والإنسان/ الشيء (ذي البعد الواحد). إن الأخير قد يعرف بعض أشكال الإيمان عن طريق عقلانيته المادية وما تُجرّده من أدلة مادية، فهي عقلانيةٌ نمت وتشكلت بعيدًا عن الوجدان، وإن أثراها الوجدان فيما بعد، لكن يظل إيمانه العقلاني البارد مُرتبطًا باطراد نسقه الفلسفي وقدرته التفسيرية. أما إيمان الأول فهو لا يرتبط بنسقٍ عقلائيٍّ ما قبلي، بل يولد نسقه الخاص من خلال شعوره بعالم الغيب الذي حُجِبَ عنه.

سُبُوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ.

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢.

٣١٦- من الفوارق المهمة والمحورية بين التوحيد والشرك؛ أن التوحيد يفتح أمامك آفاق المجال التاريخي، بل ويجعلك تستشرف ما بعده. فثمة غد أفضل في الأفق. قد يكون محجوبًا عن ناظريك، لكنك تُدرك وجوده ولو بشكل مُبهم. ومن ثم فأنت لست سجين الواقع المادّي المُقبض بحاضره. لست سجين الأسباب والصيرورة. إن التوحيد بهذا يرتبط في الوجدان الإنساني بالتفاؤل والقدرة المتجددة على تجاوز الحاضر مهما بلغ بؤسه وانحطاطه. أما الشرك، فإنه يجبسك تمامًا وكليًا في الحاضر؛ في الآليات والأدوات والقوانين التي لا تُجسّد ولا تتعامل سوى مع الواقع: الآن وهنا. ولذا كان الشرك مُرتبطًا بالتشاؤم حول مصير الإنسان ومستقبله، فقد تعلّق خلاصه بأسباب ماديّة فحسب؛ أسباب توثّنت وحجبت المُسبب، فحجبت الإنسان وملأت روحه بالعبثيّة. إن قطع ما بين الأسباب والمسبب قد أشقى الإنسانيّة، وسوف يظلُّ يُشقيها كلما انتكست فطرتها.

٣١٧- في عالم يحكمه البغاء، يهتّم بمؤخرة ممثلة سينائية أكثر من اهتمامه بمن يقتلهم الجوع والعبوديّة للعبيد؛ في مثل هذا العالم الجاهلي الذي سقطت شرعيّته الأخلاقيّة يُصبح الحديث عن «القيم الإنسانية» و«حقوق الإنسان» مجرد ورقة توت تُستر بها عورة الحضارة المومس... ودعوة يوميّة للتقيؤ على هذا الدنس!

٣١٨- الطاغوت غيبيّ، فهو لا يطغي على وعي عبّيده إلا بعد أن يُمسخ وعيه وضميره.

٣١٩- لم يتحدث القرآن عن «عقيدة»، وإنما تحدث عن مراتب: إسلام وإيمان وإحسان. وهذه طبيعة المنهج الإلهي، فهو ليس منهجًا نظريًا أنزل للدراسة النظرية والاستيعاب ثم التطبيق؛ بل أنزل للتجسيد الحي في أناسي مباشرة. إن القرآن يتحدث عن معرفة الله باعتبارها صيرورة مفتوحة بدءًا بإسلام الوجه له ﷺ وليس انتهاءً بعبادته كأنك تراه، فهي «نهاية» مفتوحة للاجتهاد... اسجد واقترب. وهذا غير «العقيدة» التي ينعقد عليها القلب في صورة نهائية وتُسكّل تصوراتًا سكونيًا ميتًا. إن كل عقيدة، وإن اشتملت على بعض الأصل؛ فهي ليست الأصل ولا هي الإسلام.

إن الإسلام هو رحلة العروج الدائمة، داخل التاريخ من المهد إلى اللحد؛ إلى الله. إنه ليس رحلة «معرفة» مجردة لله؛ بل رحلة حياة تسعى للاستقامة على أمره. إن الحياة أسمى من الفكر.

٣٢٠- اللهم إني أسألك صدق الأولياء، وإخلاص المجاهدين، وحبَّ العارفين، ورضا الصديقين، ومعية المخلصين، ومنزلة الشهداء، وصحبة الأنبياء. اللهم إني أحب من أطاق العمل في سبيلك وهو يطلبك حتى ارتضيته، فأعني على نفسي التي علمت منها ما علمت حتى تُطبق العمل في طلبك؛ فترضيها وتقبلها القبول الحسن. آمين.

٣٢١- في مرحلة الصبا تحلَّم بتغيير العالم. وفي مرحلة الشباب تكتشف أنه هدفٌ أكبر من عمرك وطاقتك، فتحلَّم بتغيير بلدك.

وفي مرحلة النضج تُدرك أنه يتعيَّن عليك البدء بأهلك ومن تعول. وفي مرحلة الشيخوخة تتمنى لو كنت بدأت بنفسك، فقد اكتشفت أنك أنت العالم، وأنت هو الكون الأكبر، وأنت الخليفة. أنت هي المعجزة. ليس على طريقة مشعوذي «التنمية البشرية» وأخواتها، ولكن على طريقة الصوفية الكبار. اسلك سبيله، ولا سلوك بغير معرفة، ولا معرفة بغير وحي.

إن السالك هو العارف، وهو المعجزة ... المعجزة التي لا تتحقق أبدًا في التاريخ، لكنها دائمًا في طور التحقق ... ألم يُخلق الإنسان في كبد؟!

٣٢٢- منذ فترة وأنا أفكر بشكلٍ غير جادٍّ في وضع الأقلية الناصرية في دولة «الخلافة» الإسلامية المظفرة وعاصمتها مصر، وهل تُصنَّف كأقلية عرقية أم دينية. فستختلف آليات التعامل معها في كلا الحالتين. فإن كانت أقلية عرقية أمكن احتواؤها. أما إن كانت أقلية دينية وثنية، فلا يُمكن دمجها إلا بشروطٍ صعبةٍ للغاية؛

لأن الإسلام يحرم عبادة الأصنام للأديان التالية على البعثة المحمّدية ... وإن كان بعض الظرفاء قد جَوّز معاملتهم معاملة «عَبَاد البقر»!

٣٢٣- الشعور أسمى من الفكر، والحياة شعورٌ دَقّاقٌ. فإن هيمن عقلك على شعورك، فأنت «حيٌّ» كآلة. وإن هيمن شعورك على عقلك، فأنت حيٌّ كفراشة!

٣٢٤- حَيّرني سلوك الإسلاميين في الثُلث الأخير من القرن العشرين، ولفترة طويلة. عنترَيَات رعناء في مواطن التآقي والحوار العقلاني، واستخذاءً وانبطاحٍ وبراغمائيةٍ في مواطن المواجهة والصمود والثبات. عُنْفٌ في مواطن الدعوة، وتداعٍ في مواطن العُنْف. وبعد بحثٍ وتأملٍ طويلين؛ وجدت أنها سمة كافة الأنساق الأيديولوجية أيّا كانت. فالأنساق الأيديولوجية صلبةٌ بطبيعتها؛ تسعى للتحقق الكامل وتحشى التحطّم الحتمي بسبب لا إنسانيتها، وما ينتج عنها من تشطّ اجتماعيٍّ بسبب مُفارقةٍها للوحي. ونجد لذلك السلوك اطرادًا واضحًا عند البلاشفة، وفي الثورة الإيرانية، وفي التجربتين الناصرية والبعثية، وذلك على سبيل المثال وليس الحصر. فالنسق الأيديولوجي زئبقي في تناقضاته واستماتته العبثية لإطالة عُمره القصير؛ فهو يتهرّب من المواجهة الحقيقية متوهّمًا الانكسار، وقد يكون ذلك مناقضًا للظروف الموضوعية تمامًا، والتي ربما كانت أكثر من واعدة (كما في حالة ٥ يونيو ١٩٦٧م على سبيل المثال)، و«يتصدّر في الهايفة» كما يقول عامة المصريين، والحالات أكثر من أن تُحصى!

٣٢٥- لقد اختار ماكبث (بطل مسرحية شكسبير الشهيرة) مصيره في اللحظة التي كَبَل فيها نفسه بنبوءة الساحرات!

٣٢٦- المرأة ... كل المرأة؛ لا تعرف توسُّطًا ولا اعتدالًا في المشاعر. وسواء كانت أمًّا أو أختًا أو زوجةً أو ابنةً ... أو غير ذلك؛ فأنت عندها قَدِيسٌ أو زنديقٌ، ولا ثالث لخياراتها!

ويا ويل من زندقته المرأة وأخرجته من حظيرتها، فهو أكفر من مُسيلمة، ولو
«حجَّ» البيت كل صباح!!

ويا ويل الناس ممن قدّسته المرأة وتعبدت في محرابه، فهو في عينها «بشر الخافي»
ولو كان راسبوتين!!

إن المرأة التي تُقدّسك تلاحقك كظلك ... إلى قبرك.

وتلك التي تُزندقك تلاحقك لعناتها إلى قبرك ...

وليس ثمّ فارقٌ حقيقيّ بين الحالين ... فويلٌ لابن آدم من ابنة حوّاء في كل
الأحوال!

٣٢٧- إن الطريق إلى الله ليس طريق راحةٍ ودعةٍ، ولا طريق رضا الناس .. إن
الطريق إلى الله طريق مكابدةٍ ومعاناةٍ؛ طريق ألمٍ وعناء .. إنها ليست الطريق إلى العلو
الديني، ولا إلى النصر الماديّ .. وإنما هي طريق العروج إليه، وفي العروج إليه
يجب التخفُّف من كل شيء شئنا أم أبينا .. إنك لا تعرّج بثقل الأرض ولا بأغراض
الطين، ولا تعرّج بهوى النفس ولا بأحلام التمكين .. وإنما تعرّج وحيداً مفرداً
خفيفاً متجرّداً .. إنها قطعاً غير الطرق التي يختطها البشر لتبدأ على الأرض وتنتهي
على الأرض .. إنها طريقٌ تبدأ على الأرض لتنتهي في السماء، أو لتعود إلى السماء ..
إنها الطريق التي تُعيد العبد إلى معبوده والحبيب إلى محبوبه، فلا تسمو به فحسب بل
تسمو به وبحياته الدنيا على قصرها؛ لتجعله أهلاً للعودة .. إلى ظلال العرش.

٣٢٨- اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك ... وهل تحمل أن يُنزّل عليك أيها المهزوم
المهزول؟

هل تحمل الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال؟

هل تحمل ما أثقل كاهل الأنبياء والرسل؟

إذن أر الله منك طاقةً؛ أنذر عشيرتك الأقربين ... لعلك تستطيع!

٣٢٩- قال البعض: «يُشرق الله في قلوب الباحثين عنه»؛ ﷻ. والصواب أن
قلوب الباحثين عنه هي التي تُشرق بالمشاهدة. فالأصل لا يُشرق وإلا كان ممكناً

غروبه، وإن غرب فهذا يعني غيابه، وهو لا يغيب ﷺ. بل نحن نغيب عنه. صلى الله على محمد الهادي.

٣٣٠- يبدو أن داء «دُلّني ماذا أفعل» مُستشرٍ بشكل يفوق التوقعات، وربما لا يفوقه سوى داء «ما البديل» ... !

٣٣١- ولا يُبكيني ويُمزّق حشاي شيءٌ كالباحث عن الله ... من حيرة أبي إبراهيم عليه السلام، مرورًا بسخط نيتشه الهائل على الأصنام التي نُصبت مكان الحق، وغربة كامو في رحلة البحث ... وانتهاءً بشابٍّ غَضَّ يَتَمي أهله للإسلام اسمًا، لينشأ الشابُّ غريبًا يتخبّط في دياجير الجهل، وقد لا يصل ... اللهم أنت الهادي إلى سواء السبيل.

٣٣٢- الفارق بين رؤية الإسلام للعالم ورؤية الإمبريالية الغربية، كالفارق بين السما والعمى ... فالأولى تكتشف الإنسان وطاقاته الجوانية المذخورة، وتكشف الطبقات الجيولوجية التي كون تراكمها ميراثه الثقافي، وعلاقتها بالفطرة وتجليات انتكاسها. أما الثانية فهي تغزو عالمه البراني المادي وتحوسله وتوظفه. ولن تكون منحة الإله كتخبّطات العبيد.

٣٣٣- ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١). إنه موقفٌ مسبقٌ ذلك الذي يُعبرُّ عنه قوم فرعون. ليس موقفٌ باحثٍ عن الحق، وإنما موقف المتأله الذي يخشى على مصالحه. إنه موقف العند والاستكبار كما يتبدى في لفظتي: مهما، وما. قال الخليل: الأصل «ما». «ما» الأولى للشرط، والثانية زائدة توكيدٌ للجزاء. وقال الكسائي: أصله «مه»؛ أي اكفف ما تأتينا به من آيات. اكفف آياتك يا موسى؛ فلن تسحرنا عما نحن فيه من عبودية للباطل؛ أي لن تصرفنا أو تلفتنا بآياتك.

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٣٢.

إن صدق موسى لا يعنيهم كما قد يظن البعض، فقد صموا آذانهم ابتداءً. لقد استسلموا تمامًا لداعي الهوى، ولن يفارقوه حتى يتعرضوا للآيات التي أنزل بها موسى. إن هذا التأفف المتكبر ليس تأفف استغناء، كما قد يبدو للوهلة الأولى، بل هو تأفف خوف. إنهم يخشون تبعات إقامة الحجّة؛ يخشون الثمن.

إن هذا الخوف من التعرّض للحق سمةٌ غالبيةً عند أكثر أهل الشرك، فهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم. لا يدركون تمامًا كيف رسخ هذا الشعور في أعماقهم؛ لكنه هناك. يدفعهم للهروب. إنهم يهربون من أنفسهم في حقيقة الأمر، وليس من البلاغ النبوي. وهم يعلمون أنهم لو فرّوا من وجه البلاغ أو قاوموه، فسوف يبقى هناك شيءٌ ما يؤرقهم. شيءٌ في أعماق ضمائرهم ... شيءٌ سماه الإمام عليّ عليه السلام: ميثاق الفطرة.

٣٣٤- سألته: لم لا تطلّبي؟

قال لو لم أطلبك، لما كنت. لكن الكون كونان؛ كون الخروج مني إليك، وكون الشهود منك إليّ. فأخرج منك تجدك مطلوبي.

والمعنى أنه سبحانه صوّرك وأخرجك للوجود بغير اختيارك، لكنّ شهود الحق مرتبطٌ كلياً باجتهاذك كسالك. إن جوهر هذا الاجتهاد هو دوام السعي للخروج منك؛ للخروج من الجبر الطينيّ إلى الاختيار الإنسانيّ/الربّانيّ ... هذه الحركة الدائريّة الدائمة لا تخرج أبداً عن نطاق المشيئة الإلهيّة، ولو خالفت في بعضها المحبوب الإلهيّ.

٣٣٥- المباني سجن المعاني. وكل مبنيّ سطا على معنّى؛ فقد اختزله في الشائع من الاستخدام وقتله ... أو قتل من وقع في غواية تجسيد ما لا يُقال! الصوفيّة أنموذجاً ...

٣٣٦- أكبر «مؤامرة» على الإسلام؛ هي جهل من ورثوه بحقيقته!

٣٣٧- العالم ليس غريباً ... بل فيه أنت غريبٌ.

كم سيمرّ من الوقت عليك لتبين ذلك؟ ... قد لا يُكشف أصلاً!

لم أنت غريب؟ ... لأنك لن تحظى أبداً بسلام فردوسيٍّ كاملٍ في هذا العالم ...
وسلامك؛ هل يتحقق أبداً؟ ... قد ... لكن ليس بهذا العالم ... عالم موكول أصلاً
بمُفارقته ... بإرادتك أو رغماً عنك ... في الأولى خيرٌ لك، والثانية القدر المقدور!

فعليك مفارقتَه وجسدك فيه ... أن تنبذه وراءك ظهرياً والنفس تصطليه.
فإن كان لا بُدَّ مما ليس منه بُدٌّ، فليكن في يدك وليس في قلبك ... فإنه في يدك قد
يُعمر قلبك وفي قلبك سيُخرَّبُ الأكوان.

فلم قُذفت في هذا العالم؟ ... الأشتى بغيرتي؟! ... بل لتعرف معنى الغربة،
وتُحاول العودة ... إلى أين؟ ... إلى القبس الذي يسكنك، فمنه تعرّج وبه تعود.

فلم لا أوقف نهر التاريخ لأعود هنا، والآن؟! ... إيقاف النهر يعني الجفاف
لباقِي البشر؛ أن يجري الدم في شريان التاريخ ... دون الإنسان!

ستحوم حول الوهم الساكن في أحشائك .. ستجول على أشلاء ملايين المخلوق ...
لكنك لن تعود. لن يؤذن لك!

وهل أحتاج إلى إذن؟! ما هذا العسف؟! ... أريد العودة، فلم أنتظر الإذن ممن
لا يعبا بي وبآلامي؟! إن العودة فيها حياتي، سأولد فيها.

تولد؟ أوتعرف معنى العودة؟ أوتعرف إلى أين العود؟ أم أنت الظالم في ثوب
الحالم؟

سأعود إلى ... إلى ... سأعود، و ... يكفي أني سأعود! سأعود لأمنح بعض
المعنى لهذا الغرّ الموءود! سأعود إلى الفمّ اللافظ؛ فهناك سأجد المعنى حتماً!

أوتعرف كيف تعود إلى الفمّ اللافظ؟ أوتضمن أن العود إليه من الممكن؟؟
يا رفيقة هذا الدرب الموعود ...

لا يُمكن أن تتلمّظ قُوّه الفمّ اللافظ لبُصاقِ عائد!

كيف لهذا الفمّ المدعو أن يتقبَّل بعض رُفاته؟!!

ستعود ... لكن ليس إلى الفمّ اللافظ ...

سيعود الطينُ إلى الطين فهذا معقولٌ ... فسيصبح طينك بعد شهرٍ للأرض
غذاء ... ستعود ... لكن ليس إلى الطين فحسب لأنك ما أنت بطينٍ محضٍ.
لو طيناً كنت فحسب لما كانت بالعود تنوء الأحلام ... هل تحلمُ نفاحة بالعود؟
أم تحيا منضدةً على أمل عثورٍ بالمعني؟!
سيعود الطين إلى الطين ... ويظلُّ القبسُ يحوِّم حول القنديل ...
أوقلت «قنديل»؟! أوكل عنائي لأجل العود لـ «قنديل»؟! أوجنيُّ الأسطورة
أنا، فأعود إلى القنديل؟!
مشكاةٌ فيها مصباحٌ ... وزجاجة مصباح المشكاة تتلأل كالدرّ المكنون ...
سيعود الطين إلى الطين، ويعود النور إلى النور ...
سيعود الطين إلى الطين، وتعود أنت إلى النور ...
لكنك قلت «قنديل»!
قنديلٌ أو مشكاة ... لست الشجرة؛ لكنك ظلٌّ للفرع الأنور ...
سيعود القبسُ يُخلِّق ويُخلِّق ... لن تتلقاه المشكاة كما تتلقى الأم رضيعاً ضلَّ ...
لكن سيعودُ القبسُ ليرعى ضوء المشكاة ...
لن يَغدو شعاعاً في المشكاة ...
لن يَغدو شعاعاً في المشكاة ...
لن يَغدو نور المشكاة ...
لكن سيظل يقبس من نور المشكاة ...
كيف؟
هذا ما أخفاه ... سبحانه.

٣٣٨- نحن لم نعرف الله بالعقل كما يدّعي المثل السائر زوراً؛ بل عرفناه بميثاق
الفطرة الذي تحدث عنه القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾^(١). هذا الميثاق هو ما أرسلت الرسل وأنزلت

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢.

الكتب لإعادة البشرية إليه؛ إلى الأصل والعهد الأول. هذه «المعرفة» الوجدانية الفطرية لا تصدر عن العقل، بل عن الشعور. ولا ينفي ذلك إمكانية معرفة الله بالعقل في حالات شاذة، ولكنها معرفة ناقصة عوراء ككل معارف الفلاسفة. ولذا يكون الإيمان الناتج عنها باردًا لا حرارة فيه.

كل إيمان لا يحدوه شعور حار فليس بإيمان، وإنما هو «اعتقاد» نظري فلسفي / كلامي لا تعرج به إلى الله، ولو دفعت به عن «شريعته» بعض الجهالات.

٣٣٩- للروح غواية لا يستطيع الكثيرون مقاومتها، برغم عجز اللغة في مقامات العرفان. وقد سقط في ذلك الفخ كثيرون من كبار الصوفية والعارفين، وحتى من المتكلمين.

في مقامات بعينها يكون الذوق هو أقصى ما يُمكنك أن تبلغه، ويكون البوح خطيئة وخيانة تفقد بها بهجة الإدراك ولذة التذوق. ورُبما لهذا كان بعض الصوفية يخشى الكتابة ويرى الإملاء أقصى ما قد يجترحه ... وعلى مضض.

٣٤٠- في مثل هذا اليوم، السابع من نوفمبر عام ٦٤٤ ميلادية والموافق غرة محرم الحرام عام ٢٤ من هجرة المصطفى العدنان؛ احتضن ثرى المدينة المنورة ثاني الوزيرين والشيخين أمير المؤمنين الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين الهادين المهديين؛ سيدي أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي رضي الله عنه. خادم رسول الله وشرطيّه وجلوازه؛ كما كان يحب أن يصف نفسه. وقد لقي ربّه شهيدًا بعد ثلاثة أيام من تلقيه عدة طعنات غادرة وهو يُناجي ربّه، ليلحق بالأحبة ويدفن إلى جوارهم.

وبقتله كُسر الباب؛ لتقبل الفتن ترى كقطع الليل المظلم. بقتله ظهرت الحكمة الإلهية في كون الخلافة الراشدة هي النموذج الذي ينبغي السعي إليه، ولا يأتى المخلص الذي لا يصل إليه، فهي ليست مقامًا نهائيًا؛ بل حال الأمة الساعية لإدراكه في عروجها إلى المولى جل في علاه.

٣٤١- قاعدة مهمة: تمكين الكفار والمنافقين قد يفتن بعض المؤمنين، لكنه يفتن أكثر المسلمين والذين في قلوبهم مرض.

أما عن الأسباب، فمنها مثلاً:-

أ- ﴿وَلَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة آل عمران؛ الآية ١٥٤).

ب- ﴿وَلِيُحْصِصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة آل عمران؛ الآية ١٤١).

والمآل:-

أ- ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سورة آل عمران؛ الآية ١٥٧).

ب- ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ (سورة آل عمران؛ الآية ١٤٢).

عجيبٌ أمر آل عمران ... عجيبٌ أمرها من أسرة مباركة، ومن سورة مباركة.

٣٤٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ آمَنَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

كان الأمر كذلك، وكان المآل بهذه الشناعة؛ ليقى حجاب الغيب مستوراً. فإن هتك هذا الحجاب وكشف ما قد يأتي به الغيب ومحاولة تغييره قبل وقوعه؛ يعطل الفعل الإنساني التاريخي الطبيعي، ويجعله فعلاً متجاوزاً للتاريخ ومن ثم غير خاضع -نظرياً- للتقييم والحساب الأخروي.

إن هذه الرغبة ذات الطبيعة «الدينية» في كشف الغيب، والمحاولة «الدينية» لهتك حجابهِ؛ هي في جوهرها نزوع إلحادي، بمعنى إنكار التكليف والتاريخ واليوم الآخر ولو بشكلٍ غير واع. فإن جوهر ما أنزل على محمد والنبين -صلوات الله عليهم- من قبله هو ألحْث على العمل بغير معرفة النتائج الأكيدة ولا انتظار تحققها، وما الإيمان باليوم الآخر سوى مؤشرٍ على التسليم بإيهام

(١) أخرجه أحمد والأربعة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٠٤٧.

النتائج، وانتظار ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾^(١). ولعل آية سورة الأعراف السالفة الذكر كاشفة في هذا الموضع؛ يقول ﷺ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَةٍ فَتُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. إن انتظار التأويل/ التحقق النهائي يجعل مهمة الرسل مكتملة للتكليف ومهيئة لأحكامه؛ بكشف محدود للغيب يسمح للفطرة بالاستجابة لبارئها، ولا يُبطل الفعل الإنساني كما يفعل التنجيم والكهانة.

إن من ينسى يتعين عليه تحمل التبعات، فهذا هو جوهر التكليف/ المسؤولية. وإذا كان القدر المحجوب يقع بإذن الله طاوياً رحمة ﷻ في ثنياه، فإن المعرفة «اليقينية» بذلك القدر قبل وقوعه تؤزم النفس بانتظار البلوى؛ انتظاراً غير مشمول برحمة الله التي تصحب المصيبة ذاتها.

إن هذه المعرفة نزوعٌ إلحاديٌّ لأنها تُغلق كل منافذ الأمل الذي قد يستشرفه الإنسان في الغيب المحجوب؛ لتحبسه في قفص المادية العبيثي ... بلا أمل. فقد انكشف له الغيب، وأحكَم السجن، ولم يعد ثمة مفر.

٣٤٣- وها هو الفارس الشريف المخضرم، الذي لم يقل بعد إسلامه سوى بيتاً واحداً، لبید بن ربيعة بن مالك العامري؛ يبين عن جاهلية لا يستطيع أكثر المسلمين السمو لمستواها:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبُ فَيَقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ
حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَبِيلِهِ وَيَقْنَى إِذَا مَا أَخْطَأَتْهُ الْحَبَائِلُ
إِذَا الْمَرْءُ أَشْرَى لِبِلَّةٍ ظَنَّ أَنَّهُ قَضَى عَمَلًا وَالْمَرْءَ مَا عَاشَ عَامِلٌ
فَقُولَا لَهُ إِنْ كَانَ يَقْسِمُ أَمْرَهُ أَلَا يَعِظُكَ الدَّهْرُ، أَمْكَ هَابِلٌ
فَتَعْلَمَ أَنَّ لَا أَنْتَ مُذْرِكٌ مَا مَضَى وَلَا أَنْتَ عَمَّا تَحْدَرُ النَّفْسُ وَائِلٌ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَاتَسَبَّبْ لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ الْقُرُونُ الْأَوَائِلُ

(١) سورة الأعراف؛ الآية ٥٣.

فإن لم تَجِدْ مِنْ دُونِ عَذَنَانَ بَاقِيَا ودُونَ مَعَدٍّ فَلتَزْعَكِ الْعَوَاذِلُ
أرى النَّاسَ لَا يَتَذَرُونَ مَا قَدَّرَ أَمْرُهُمْ بلى : كُلُّ ذِي لُبٍّ إِلَى اللَّهِ وَاسِلُ
الْأَكُلُ شَيْءٌ مَا خَلَا اللَّهُ بِاطِّلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ
وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُونُهُ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْإِنَامِلُ
وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَعِيَهُ إِذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْمَحَاصِلُ

٣٤٤- كما انتقلت الحضارة الأمريكية من البربرية إلى الانحطاط دون المرور
بالإنسانية، فإن بعض «المثقفين» ينتقلون من «شكري مصطفى» إلى «نصر أبو زيد»؛
دون المرور بالإسلام. وسبحان من يخلق ما لا تعلمون!

٣٤٥- وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُبِبُ بِأَبْطَحِهَا بَيْنَنَا
بِأَنَّا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتَلَيْنَا
وَأَنَّا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا وَأَنَّا النَّارِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وَأَنَّا النَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا وَأَنَّا الْآخِذُونَ إِذَا رَضِينَا
وَأَنَّا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِغْنَا وَأَنَّا الْعَازِمُونَ إِذَا غَصِينَا
وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفَوْا وَنَشْرَبُ غَيْرَنَا كِدْرًا وَطِينَا
أَلَا أَبْلُغُ بَنِي الطَّمَّاحِ عَنَّا وَدُعْمِيًّا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونَا
إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسَفَا أَبِينَا أَنْ نُقَرَّ الذَّلُّ فِينَا
مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهَرَ الْبَحْرُ نَمْلُوهُ سَفِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ نَحْزُرُ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

يا لهذه العزة؛ الله در عمرو بن كلثوم. كانوا رجالاً في الجاهلية، رجالاً في
الإسلام. كانت العرب في جاهليتها لا تُستعبد ولو لبعضها البعض، فخلف من
بعدهم خلف استحبوا العبودية لمن غلب، وتحنثوا بالجاهلية وظنوها إسلاماً. فأنى
لنا بهذه الجاهلية «النصرة»!!

٣٤٦- قبل الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م)؛ كانت الأدبيات «الإباحية»
تُنظر للاستهلاك «الإسلامي» على استحياء. أما اليوم فقد تحوّل الموضوع بقدرة

قادرٍ إلى مُسَلِّمةٍ لا شية فيها ... الاستهلاك عصب النمو والتطوُّر الاقتصادي، وبعد فترةٍ ستُضاف إليها «الإسلامي»، كما أضيفت للكثير من عورات الشرك وعوارض الإلحاد ... *حنو القلَّة بالقلَّة*^(١)؛ صلى الله على محمد.

٣٤٧- الفنُّ الحقيقيُّ أزمةٌ روحيةٌ. والفنان الصادق كائنٌ مازومٌ يبحث عن إجاباتٍ، فإذا استراحت نفسه لبعضها؛ ذُبِلَت القدرة الفنية في روحه التي نالت قدرًا من اليقين. وهذا الذبول في حد ذاته إدراكٌ منه -ولو بشكلٍ غير واعٍ- لجوهر الظاهرة الفنية التي تستنطق الوجود ببادتها وفي محيطها. فهذه القدرة لا تدبُل إلا ليحلَّ محلُّها اليقين ... أو الموت. فالأسئلة لم تعد بعدُ مؤرقة، بل ذابت وابتلعها الفضاء كما يراه الفنان: محض عدم، أو ذروة الوجود.

أما من يحيا طوال حياته فنانًا، فهو بين اثنتين: إما عاش مازومًا حتى قضى، أو يرتزق بـ«فنه» بعد أن زالت أزمته. والأول قد يعيش مازومًا لأنه يسأل الأسئلة الخاطئة أو يطرحها بشكلٍ خاطئ، ومن ثم فلا ينال إجابةً، أو ينالها ولا يتنبه لذلك. ومن ثمَّ فإنه يقضي حياته «فنانًا». وحتى لو لم يكن إبداعه كله على ذات المستوى، فإنه لا ينقصه الصدق في غالب الأمر؛ سواء صدق الأزمة أو صدق الجهل بوجود الحل، أو حتى صدق الجهل بوجود الأزمة ذاتها.

أما من يعيش ليرتزق بفنه، فهو غالبًا ليس بفنانٍ. أعني أن إبداعه لا ينطوي على القدر الأدنى من الصدق الفني، فهو محض مُقلِّد أو بهلوان أو حتى صانع ماهر؛ لكن صناعته ذات الجمال الظاهري تفتقد للروح، فهي كالزبد؛ يفور قبل أن يختفي. إن الظاهرة الفنية أو التوهُّج الفني ليس بحالة عقلانية ولا هي بحالة خاضعة للعقل، وإن كانت تتأثر بمعطياته وسجلاته وحالته. لكنها تعبيرٌ لا واعٍ عن الأزمة التي يكون العقل فيها سببًا أو طرفًا رئيسيًا. وبرغم ذلك كله، فإنها لا تُعبَّر عن

(١) عن شداد بن أوس، حَدَّثَهُ عَنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَيُخْلَعَنَّ شَرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ حَذْوُ الْقَذَّةِ بِالْقَذَّةِ». رواه أحمد: ١٧١٣٥، وإسناده فيه نظر، ومعناه صحيح ثابت عن أبي سعيد الخدري، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَسْبَحَنَّ سَنَنُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، يَشْرَبُونَ بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ صَبٍّ لَأَتْبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»، رواه البخاري ومسلم.

العقل ولا يُلغته؛ بل بِلُغة الروح والوجدان. إن الظاهرة الفنيّة ليست هي الدليل الأهم على أن الإنسان ما هو بعقلٍ محضٍ فحسب، بل على أن مكونات الكينونة الإنسانية لا تنفصل عن بعضها البعض، وهي الدليل الأصدق على أن التعبير عن أكثر الأزمات العقلانية شراسة قد يكون تعبيرًا لا عقلائيًا.

٣٤٨- لقد حوى المجتمع النبوي قاعدين ومُخَلِّفين ومُثَبِّطين ومنافقين، لكنهم كانوا الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. ولا يَكثُر هؤلاء إلا في المجتمعات المريضة، التي حقَّ عليها العذاب ... نسأل الله العافية.

٣٤٩- إنما مثُلُ الإسلاميين (بأطرافهم) والدولة الحديثة، كمثُلِ سجينٍ تصرَّف بانضباطٍ نموذجيٍّ، لفترةٍ خالط فيها سجنانيه في ذلك السجن المفتوح على مصراعيه. فمنهم من كسب ثقة السجَّان، ومنهم من ينتظر. وكل ذلك في سبيل تخطيط وتنفيذ هروبهم من ذلك السجن «المفتوح». وإلى حدٍّ ما؛ أمكن للكثيرين منهم اكتساب ثقة «الحرس». بل وسُمح لبعضهم بالتعاون معه ما داموا لا يُمثّلون تهديدًا لمواقعه ودوره على المدى القصير.

لكن الكارثة كانت في طول الأمد، وتطاول الصبر على الدُّل. فقد صدَّق كثيرٌ من الإسلاميين أنهم من هؤلاء الحرس. وفي أول فرصةٍ لاحت لترقية «المسجون» إلى «سجَّان»؛ قَبِلَ الحمقى. برغم أنهم سيعيشون حياتهم معزولين أيضًا كالسجناء! إن معركة الإسلاميين الحقيقية والرئيسية والأهم ليست مع «العلمانيين» ولا مع «الفلول» ولا في سبيل الثورة «استمرار الثورة» ولا من أجل «تطبيق الشريعة»، ولكن مع نفوسهم المهزومة التي اعتادت الأسقف الواطئة والمواءمات السخيفة. إن التحدي الحقيقي هو أن يحاولوا الخروج من السجن الذي نسوا أنهم لا زالوا فيه ... نفسيًّا على الأقل!!

٣٥٠- شتان بين العبوديّة لله والاستعباد للعبيد ...

فإن كان العبد لا يرضى عنك إلا بتمام موافقتك إياه وكمال امتثالك لأمره. فإن الرب ﷻ يرضى عن العبد بإخلاصه -الذي لا يعلمه سواه ﷻ- في الامتثال لأمره، ولو غلبت عليه بشريته وضعفه. فإنه سبحانه يقبل القلب قبل العمل.

٣٥١- من حكمة الأذان إعداد الإنسان للوقوف بين يدي خالقه، فالأذان جميل الصوت يفتح الله به قلبك؛ لتشعر أن الدعوة لك ... بشكل شخصيٍّ ومباشرٍ. لبيك ربي...

٣٥٢- كانت وحدة الأذان أحد المعاول التي شقت قلب ليولد فايس، وقطعت به خطوة على طريقه نحو محمد أسد. نفس الأذان في كل مكان. نفس النداء الشجي المبارك الذي جعله يشعر بوحدة الوجهة رغم تنافر السياسة ووهن التياسة.

٣٥٣- القيمة دائماً أكثر تركيبيّة وأهميّة من الثمن. فالقيمة تنطوي على أبعادٍ غير ماديّة؛ أبعادٍ إنسانيّة لا عقلانيّة. وللحرية ثمنٌ ... فإن لم تكن تعرف قيمة الحرية؛ فستنكص على عقبيك ساعة دفع الثمن.

٣٥٤- ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنْ سَعَاهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ﴾ (٣٧) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿١﴾.

إن هذه الآي المعجزة ترسم بدقة حدود مسئوليّة الإنسان -من حيث هو إنسان- على هذه الأرض، في كل زمانٍ ومكانٍ. إنه مسئولٌ عن أفعاله مُقيّدٌ بهذه الفعّال التي تُمنح حُرّيّة اختيارها ابتداءً. فلا جبرية تاريخية ولا حتمية مادية (اجتماعيّة أو بيولوجية) تسوقه.

إن الآية التي تسبق هذا المقطع وتلك اللاحقة عليه يُكمّلان الدائرة الأكبر: ﴿أَلَا نَزِدُّ بِكَ آيَةً ۚ وَنَزَّلْنَاكَ ۚ﴾ (٢)، وقوله ﷻ في الآية الثانية والأربعين: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ

(١) سورة النجم؛ الآيات من ٣٩ إلى ٤١.

(٢) سورة النجم؛ الآية ٣٨.

الْمُنْتَهَى»^(١). إن مسئولية هذا الإنسان الرباني مرتبطة كلياً بـ«فرديته» على مستويي الالتزام والوفاء، ولو أخل المجتمع كله. فهو الستار الفاعل وهو المستخلف الممهل. وبما أن المسئولية يجب أن ترتبط بجزء يوفاه صاحبه بعد حين، فإنها يجب أن ترتبط كذلك بـ«جهة» تقاضٍ وتقييم. إنها متالية قرآنية ترسم طريق المستخلف بوضوح لا تشوبه شائبة: سعي، تقييم، جزاء. وإذا كانت المتالية تبدأ من الإنسان (خليفة الله في الأرض)، فإنها تنتهي إلى مآلها الوحيد: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.

إن هذه المتالية تُشكّل نسقاً متكاملاً يضيفي المعنى على الوجود الإنساني، وافتقاد أحد عناصرها يجعل الإنسان يتخبط في دياجير الجاهلية. فقد يبحث عن التقييم والعرفان والإشادة والتقريظ من الخلق، لأنه يأتي الفعل ليعجبهم. وهو في حال انتكاس الفطرة هذه قد يعبد - لا شعورياً - من يُضيفي عليه من الصفات ما يحفظ عليه قدرته على الاستمرار.

إن هذه المتالية مُرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتوحيد، ولا يمكن أن تتحقق قبل صدق المكابدة على طريق التوحيد في النفس والمجتمع. اللهم إنا نعوذ بك من الشرك ما ظهر منه وما بطن. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد.

٣٥٥- للقدس طريقٌ واحدٌ وحيدٌ هو البندقيّة ...

وهذا الطريق لا يمرُّ عبر المنظّمات والهيئات والجماعات والأنظمة المتواطئة سياسياً، والتي تُتاجر بكل شيء لمصلحتها. فالطريق الحقيقي والوحيد هو إسقاط الأنظمة الخائنة التي تقوم بالدور الرئيسي كحائط صدٍّ، وعراب للخيانة منذ تأسيس الكيان الصهيوني. بل ومن قبل تأسيسه. إن طريق البندقيّة يبدأ بإزاحة من منعوها عنا وضيّعونا في مسارب السياسة ونجاساتها التفاوضيّة، ليحصلوا على السلطة الحرام والمال الحرام ...

إن المقابل كبيرٌ، فلا يفزعن إخواننا من الثمن الذي قد يضطرون لدفعه. إن المقابل هو تمهيد الطريق إلى القدس ... تمهيده لنعبّر عليه جميعاً إلى هناك ...

(١) سورة النجم؛ الآية ٤٢.

ومن لم يلتق الله في تونس، أو في عمان، أو في دمشق، أو في بني غازي، أو في القاهرة ... فسيلقاه في القدس ... في مسرى النبي الأعظم ﷺ ... و ... هذا وعد!

٣٥٦- هذا مقال قصير للشاعر الفحل أحمد مطر، وقد أثرت إirاده كما هو بدون تعليق، فهو غني عن كل تعليق:

للكتاب الإيطالي «إيتالو كالفينو» قصة قصيرة جدًا من أعماله المبكرة عنوانها «الرجل الذي نادى تيريزا» .. وتكاد القصة كلها تتلخص في العنوان نفسه، فهناك رجل واقف على ناصية الشارع أمام مبنى سكني، ينادي بأعلى صوته «تيريزا»، ومع مرور الوقت يتجمع حوله حشد من الفضوليين الذين يؤازرونه بالمناداة لعل علو صوتهم مجمعين سيجعل «تيريزا» تسمع النداء فتظهر.

وبعد وقت طويل، يخطر لأحد المحتشدين أن يسأل المنادي عما إذا كان متأكدًا من أنها موجودة في البيت، فيجيب بالنفي. ثم يسأله آخر عما إذا كان قد نسي مفتاح البيت، فيجيبه قائلًا: كلا.. مفتاحي معي، لكنني لا أقيم هنا! عندئذ يسأله أحدهم بدهشة: إذن، لماذا أنت تنادي «تيريزا» هنا؟، فيجيبه ببساطة متناهية: يمكننا أن ننادي أي اسم آخر .. أو فلنجرب المناداة في مكان آخر إذا شئتم!

وواضح جدًا من هذه الإجابة أن الرجل كان يعبت ليس إلا، ومع ذلك فقد ظل الحشد يزداد، وظل النداء يرتفع؛ إلى أن داخل المحتشدين التعب والملل، فراحوا ينصرفون تباعًا، بمن فيهم الرجل العابت. لكن الأخير، بعد أن قطع مسافة طويلة، تنهى إلى سمعه صوتٌ وحيدٌ مرتفع، آت من الناصية، لرجلٍ مازال واقفًا هناك ينادي: «تيريزا»!

المغزى الذي تطرحه هذه القصة هو المغزى نفسه الذي طرحته تجربتي الشخصية قبل ما يقرب من أربعين عامًا، فقد وقع لي أنا أيضًا أن أفعل، في فترة مراهقتي؛ ما فعله ذلك الرجل العابت في قصة «كالفينو».

حدث هذا عند وصول عصابة «البعث» ثانية إلى الحكم عام (١٩٦٨م). فني غروب أحد الأيام الأولى لنزول ذلك المد الشيطاني على البلاد، كنت أتمشى على

الرصيف المقابل لشط العرب، مع مجموعة من الأصدقاء، عندما زفر أحدهم متسائلاً: كيف أمكن لهؤلاء أن يأتوا ثانية؟ لقد كانت تجربتنا معهم في عام (١٩٦٣م) مصبوغة بالدم الذي لا يزال طرياً في الذاكرة، وكانت فترة مكوثهم التي لم تتجاوز الأشهر التسعة تعادل تسعة دهورٍ لفرط هولها، فكيف تَسْنَى لهم بعد محققهم أن يعودوا بهذه السرعة؟!

وقال آخر: لا عليك، سيزولون بأسرع مما زالوا في المرة الأولى. إن آثار الكي ما زالت على القلوب. لن تجد أحداً يؤيدهم، وستعصف بهم الجماهير التي لا تنسى. ولأنني كنت قد قرأت في تلك الفترة كثيراً من آراء بعض علماء الاجتماع العراقيين حول البنية «القطيعية» للجماهير، خصوصاً في المجتمعات المتخلفة؛ ووجدت تصديقاً لتلك الآراء في الشواهد التاريخية القديمة والحديثة التي طرحوها، فأنني سَفَهْتُ القائل الآخر، وقلت بحدّة: إن جماهيرك تنعق مع كل ناعقٍ وتجري في أثر كل أفاقٍ، ويمكن لأي محتال أن يقودها في الاتجاه الذي يريد، ثم يتركها لمصيرها. أما القلة الواعية، وهي دائماً قلة؛ فإنها ستُسحق تحت أحذية جماهيرك قبل أن تنطق، إذا هي حاولت تنبيه تلك الجماهير إلى خطورة الدرب أو كذب القائد.

ثم خطر لي، بما يشبه الجنون؛ أن أضع تلك الآراء موضع التطبيق الفوري، فطلبت من أصدقائي أن يعبروا معي إلى الرصيف المقابل، وحين وصلنا إلى شاطئ النهر، رجوتهم، عندئذٍ، أن يجاروني في كل ما أفعل أو أقول.. ثم إنني مددت ذراعي عالياً، ورفعت إصبعي للسّماء، فيها رأسي يلتصق برءوسهم، وقلت بصوتٍ تعمدت أن أجعله في متناول آذان المارة: هناك.. انظروا.. هل رأيتموه؟ اتبعوا طرف إصبعي.. أترون؟ شكله هُلامي ويتجه للأسفل. ولم يخذلوني، فقد ردد أحدهم بعفوية مصطنعة: نعم.. رأيته الآن. أعتقد أن سرعته قد خفت قليلاً، لكنه يبدو لي مثل الإسفنجة!

وصرنا نبتكر طرائق شتى لوصف ذلك الشيء الذي لا وجود له على الإطلاق. وفي غضون ثلث ساعة تقريباً كان عدد المارة الذين تجمعوا حولنا يكفي لإطلاق مُظاهرةٍ محترمةٍ، وكان الجمع يزداد بمرّ الدقائق، والكل مُتجهٌ بنظره نحو الجهة

التي أشرت إليها، بل إن معظم الواقفين كان يرفع إصبعه ويشرح الشكل للواقف بجواره، بل إنني بأذني هذه التي سيأكلها الدود سمعت أحدهم يقول لجاره: إنه يتجه للأسفل. هو هلامي.. قد يكون مُذنبًا!

دعوت أصدقائي بهدوءٍ للخروج من الممعنة، وعدنا إلى حيث كنا على الرصيف المقابل، وعندئذ سألت صديقنا المتفائل: إلى ماذا ينظرُ جمهورك هذا؟ ألا ترى أننا كان يُمكن أن نلتحق بهذه المظاهرة كالآخرين لو لم نكن نحن من صنعناها؟! قال فيما هو يواصل الضحك مثلنا جميعًا: كلا.. نحن أعقل من أن نُتابع أمرًا دون أن نسأل عنه وعن كُنْهه، وإذا لم نلقَ جوابًا معقولًا، فسنلوم جميع الواقفين على حماقتهم، ونمضي في طريقنا.

قلت له بثقةٍ بالغة: أجزم أنهم سيورمون جسدك بالنعال قبل أن تمضي في طريقك، وأجزم أن أكثرهم قسوةً في ضربك سيكون آخر ملتحق بالمظاهرة.. أي أشدهم جهلًا بحقيقة الموضوع.

وسرنا، قاطعين طريقنا بالضحك، لنقطع بعدها عشرات الأعوام بالبكاء المر! ولا يزالُ بُكاؤنا المر مستمرًا بين من ينادي «تيريزا»، أو من يشير إلى الشيء الهلامي، وكلاهما يتجه بجباهير شعبنا.. إلى الأسفل!

٣٥٧- الوتر المرتخي لا يُصدر صوتًا... وحده المشدود يعلو نغمه!

٣٥٨- كُنْ لا شيء في حضرته؛ تَكُنْ كُلَّ شيءٍ بمعينته... سُبْحانهِ.

٣٥٩- من دُرر شيخنا محمد الغزالي رحمه الله: الحلال هو ما أحله الله لك، لا ما حلَّ في يدك.

٣٦٠- لا أتعجَّب ممن يحرصون على الوطن/ الإله أكثر من حرصهم على حرية وكرامة الإنسان، خليفة الله في الأرض؛ فالذل لا يُفقد الإنسان إنسانيته فحسب، بل ينحرف به عن جادة التوحيد وينحدر به إلى درك الشرك. يحرصون على المرعى والسياح الذي تتجمع عليه السائمة، برغم أن المرعى مسلوبٌ والسياح مفروض.

يحرصون على ما فرضه عليهم الأجنبي ورسخه الطواغيت، ويُفَرِّطون فيما أنعم الله به عليهم ابتداءً ...

إلى هؤلاء أهدي أبيات أحمد مطر:

وطني هنا

وطني أنا

ما بينَ خَفَقِ في القُوادِ

وَصَفْحَةِ تَحْتَ المِدادِ

وَكَلِمَةٍ فَوْقَ اللِّسانِ

وطني أنا: حُرَيْتِي

ليس التُّرابَ أو المَباني.

أنا لا أدافعُ عن كيانِ حجارةٍ

لكن أدافعُ عن كيانِي!

٣٦١- ... ولا يمكن أن تنفر الأمة جمعاء لنصرة الحق، فلا يمكن أن تكون جميعاً على قلب رجلٍ واحدٍ، وعلى نفس المستوى الإيماني من الإحساس بمسؤولية الاستخلاف. إنها طبيعة الإنسان، وطبيعة تكوينه الذي يؤثر الإخلاق إلى الطين. وهذا إنسانيٌّ جدًّا، فقد أخبرنا القرآن بخبر المخلفين في المجتمع النبوي. بل إن التخذيل والتثبيط للخارجين في سبيل الحق، على مرارته؛ هو حقيقة إنسانيةٌ يخبرنا القرآن والسيرة النبوية بأنها كانا من عناصر المجتمع النبوي ذاته.

٣٦٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْرَجُونَ ۖ﴾ (١)

كم مرة رأيت هذا الناموس نافذًا في عمري القصير؟ أكثر من أن يحصى. لكنها صيرورةٌ لا تتوقف عن التحقق كل لحظة ... سبحانه الله.

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

٣٦٣- لا يُوجد شيء اسمه فرضي مُطبقة بلا نسق يحكمها؛ فالأدق هو جهلنا بالقوانين والأنماط. وهذا ينطبق بشدة على الحالة التي نعيشها في دول «الربيع العربي». هناك نمطٌ غير ظاهرٍ للقاسم الأعظم؛ لكنه مطردٌ ... سبحان القاهر فوق عباده.

٣٦٤- وقد شغلتنى في مرحلة متأخرة من نُضجي -ولا تزال- إشكالية وجودية محورية: هل أنشغل بنقد فُبح فعال الخلق كما فعل المتكلمون، فتأزم نفسي؟ أم أنشغل بالتسييح بحمد الجميل ولطف فعاله التي لا يضرُّها فُبح فعال خلقه، مع التغاضي والتعامي عن فعال خلقه كما فعل بعض الصوفية؟ ويبدو لي أن ليس ثمة إجابة واحدة قاطعة للسؤال؛ نظرياً على الأقل ... ولأكون أكثر دقة، فقد اكتشفت أنني أجبته عليه عملياً وألزمت نفسي بإجابتي.

٣٦٥- الإنسان الطوباوي (وكُلُّنا ينطوي على بعضه) يفترض تعطل صفات الإله ونقص معلوماته، ناهيك عن جبروته ووحشيته. ولذا، فهو يُريد أن يفرض سلامه الخاص على العالم؛ السلام الفردوسي الذي يُوقِف حركة التاريخ ويحد اندفاعه قسراً. وغالباً لا يدرك البشر الذي يتبنون هذه الرؤية أن السلام البرآني لا يتحقق إلا بتحقيق السلام الجوّاني أولاً، أو يدركون ذلك لكنهم يعجزون عن تحقيقه (لأسباب شتى)، ومن ثمَّ فهم يُريدون سلاماً مفروضاً من الخارج؛ سلاماً تفرضه قوّة قاهرة (قوّة القانون في الدولة الحديثة مثلاً). فإن كان الإله في منظورهم عاجزاً عن ذلك؛ تعيّن عليهم بذل الجهد والاضطلاع بـ«واجبات» الإله سواء رفضاً له، أو زعماً بأنه وكلهم بذلك. وفي أصل ذلك يلتقي الطوباويون والمهدويون/المشيحانيون والغنوصيون/الحلوليون ... والملحدون!

٣٦٦- إن أهم ما يفعله الإنسان بحياته على الإطلاق هو أن يعيش اختياراته بالكامل، ولو كانت درامية أو مأساوية. أن يحيا بالشكل الذي يُريده، مُتسقاً مع نفسه ومعتقداته. أن يحيا كإنسانٍ مُكلّفٍ واعٍ بحتمية سداد ثمن فعله، فيمتلئ رضاءً ولا يندم على ما أنفق من عمره. فقد أفعم كأسه بيديه، وسيتملئ تبعه ذلك في الدنيا

والآخرة. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تُعوّض الحُسْر البرّاني؛ التحقّق الجوّاني. أن يذوق الإنسان كُلّ أنواع الشعور الإنساني، فيعرف نفسه المتقلّبة، ويرى ربّه الذي يُغيّر ولا يتغيّر... سُبْحانه.

٣٦٧- من الفوارق المهمّة بين التوحيد والشرك؛ أن الموحّد يختار التسليم الإرادي لربّ العالمين سُبْحانه، فهذا هو مناط التكليف. لكنّ المُشرك يسعى لإعادة تشكيل إلهه الخاص ليلائم خيالاته وأوهامه. إن الموحّد متى عرف الإله الحقّ لزم إرادته وتحقّق بها. تحقّق بصفة الواحد لصفته هو كُستخلف. فهو على يقين من الحكمة الكامنة، وإن عجز عن إدراكها. إنه جُزءٌ من يقينه في الفاعل اللطيف الخبير. أما المُشرك، فإنه متى عرف الحقّ قال: ليتّه كان كذا وكذا، ولم لا يفعل كذا وكذا؟ ولم يترك كذا وكذا بغير حسم؟ فهو يرفض الصفة الفلانيّة، ويتحفّظ على الفعل العلاني، ويُبغض كذا وكذا، ويُهمل أمرًا ويقبل آخر. إنه يُريد إلهًا خاصًّا مُفصّلًا على مقاس عقله وفكره القاصرين، ولا يقبل بالتسليم. وقد صان المولى سُبْحانه إرادة هذا المُشرك من قهره، وقد كان سُبْحانه قادرًا على قهره على الإيمان، لكنّه تركه ليقيم الحجّة على نفسه. فهو قد عرف الحقّ، واختار هواه، ولولا هذه المعرفة لما أخذ وترك، ولولا الهوى لما ضلّ عن الغاية المرسومة. والله يهدي إلى سواء السبيل.

٣٦٨- قدر الله عليه المرض في كربلاء، وهو ابن عشرين، لئلا يُستشهد في وقعة الطف، ويبقى شاهدًا عليها مُقيماً للحجّة على الأمة مع عمّته دُرّة بني هاشم؛ الشريفة الطاهرة السيدة زينب بنت علي وفاطمة عليهم السلام.

وعندما أدخلوه عليه السلام على ابن زياد سأله: «من أنت؟»،

فقال: «أنا عليّ بن الحسين»،

فقال له: «أليس قد قتل الله عليّ بن الحسين؟»،

فقال الإمام: «قد كان لي أخ يُسمّى عليًّا قتلته الناس»،

فقال ابن زياد: «بل الله قتله»،

فأجاب الإمام: ﴿اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١)،
فغضب ابن زياد وقال: «وبك جرأة لجوابي وفيك بقية للردِّ عليَّ؟! اذهبوا به
فاضربوا عنقه».

فعلقت به عمته السيدة زينب وقالت: «يا ابن زياد، حسبك من دمائنا»، واعتنقته
وقالت: «لا والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه»،
فقال لها عليُّ: «اسكتي يا عمّة حتى أكلّمه، ثم أقبل عليه فقال: أبالقتل تهدّدي يا
ابن زياد؟ أما علمت أن القتل لنا عادةً وكرامتنا من الله الشهادة؟».

٣٦٩- يرى أستاذنا علي عزت بيغوفيتش رحمه الله أن جودة القوانين والدساتير
واحترامها، تتناسب عكسيًا مع زيادة حجمها وتشعب تفاصيلها. ولولا ذلك مثلاً
لما غيّرت الوصايا العشر وجه التاريخ، برغم أن نصّها في مجمله يحوي أقل من مائة
كلمة.

وقد كان الدستور اليوغوسلافي هو أطول دساتير العالم في حينه (٤٠٦ مادة)،
ورغم ذلك كان الأكثر انتهاكاً على الإطلاق. في حين أن أقصر دستورٍ في التاريخ هو
الدستور الأمريكي المكوّن من ٧ مواد و٣٦ تعديلاً تمّ إضافتهم على مدى ٢٠٠ عام
من عمر الدستور؛ مما يشير لنظام قانوني مستقرّ ونادراً ما يتم انتهاكه.

أما بريطانيا التي تُعتبر دولة القانون في العصر الحديث، فإنها لا تملك دستوراً
رسمياً بالشكل الذي تعارفنا عليه، بل عُرفاً دستورياً غير مكتوب. لكن نيكارا جوا
التي لا يعرف الكثيرون موقعها على الخريطة تملك دستوراً ضخماً من ٣٣٦ مادة،
أما الجبل الأسود التي يبلغ تعداد سكانها ٥٠٠ ألف نسمة فدستورها ذي السبعائة
٧٠٠ مادة أكبر حجماً من دستور الهند التي يسكنها ما يزيد على البليون من أعراق
وأديان ولغات لا تُحصى؛ يكونون ٣٠ وحدة فيدرالية.

لذا يخلص بيغوفيتش، بخلفيته كقانوني؛ أن الدستور القصير غالباً ما يكون
إشارةً على استقرار وديمومة النظام القانوني واحترامه.

(١) سورة الزمر؛ الآية ٤٢.

وتعليقي هو: أن استقرار الدستور القصير مرجعه لسعة باب الاجتهاد للتقنين وعدم تقيده بتفصيلاتٍ مُعَيَّنة، بما أنه يُحدّد أُطْرًا عامّةً اتفق عليها المجتمع. أما الدستور الضخم، فإنه يفتح الباب للتأويلات اللاهوتية التي ينفرد بها القانونيون دون غيرهم، باعتبارهم كهنة معبد الدولة ومُفسّري النص «المقدس». وهو ما يؤدي بشكل غير مباشر لتحوّل هؤلاء الكهنة لجماعة مصالح مُغلقة وفاسدة، ويؤدي لظهور ما عرفناه في مصر بـ«ترزئة القوانين»؛ الذين يُجيدون استغلال ثغرات النصوص الدستورية التفصيلية والمتشعبة.

إن الدستور الضخم التفصيلي الذي يسعى لئلا يترك شاردةً ولا واردةً إلا أحصاها هو مجرد وهم لا يتحقق في الواقع، بل رغبة مرضية تكبّل النظام القانوني وتزيد ثغراته وتجعل فرض سيطرة القانون مهمّةً غايّةً في الصعوبة، إن لم تكن مستحيلةً.

والعناية بالتفصيلات الدقيقة للدستور وبحججه ستجدها دين الإسلاميين المتحزبين والتمذهيين، ودين العلمانيين المعادين للدين على حدّ سواء. فإذا كان الأول يريد وضع كتابٍ مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ كتاب يضمن كل فرع وكل تفصيل يحفظ مذهبه ويقتل مخالفه. فإن العلماني المعادي للدين يريد تفصيلات كذلك تحفظ عليه كل شهوة محرمة وكل زندقة مجرّمة، وتصونه من أي عقاب قد يقع عليه بسبب استهائته بعقائد الآخرين.

والخلاصة في رأيي ألا تُنفق الكثير من الوقت في العناية بأي دستور حالي؛ فهذا غاية ما يستطيعه هذا الجيل الفاسد، وهو مرحلة انتقالية لا بد منها. ومن ثم فعلينا ألا نحلّم بدولة قانون ولا باستقرار النظام القانوني في المدى المنظور. وألا نعوّل على هذا الدستور أو ذاك كثيرًا، ولا نُحمّله ما لا يحتمل. فإذا كانت سلطة القانون واستقرار نظامه تُصان بالنصوص، فإنها أصلًا تنشأ في الضمائر والقلوب. وهذا التغيّر الأخلاقي بحاجةٍ لجيل، وربما أجيالٍ؛ ليرسخ.

٣٧٠- يتعامل الكثيرون مع القرآن باعتباره «موسيقى تصويرية» للمآثم وسراقات العزاء. فهم يستغربون (ومنهم من يشمئز) استماع أي كائن للقرآن في غير هذا الظرف!

وأنا من ناحيتي أستغرب انبعاث صوت مقرئ للقرآن من مسكن أحد هؤلاء، وأعتبره دليلاً على وفاة أحد أفراد الأسرة... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٧١- محفورٌ في ثنایا الروح أن: من أراد الانضمام لقافلة مُحَرَّري الإنسانية، فإن عليه تَجَرُّع مرارة الألم، فسعادته حلمٌ أو طرفة عين، ومعاناته هي القاعدة... إنه المصير المحتوم. إن القاعدة يا رفيق الطريق تكْمُنُ في تلْظِينَا بِأَلَمِ الإنسان، في حين لا يشعر بِأَلَمنا أحد ألبتة؛ فلا أحد بإمكانه أن يستشعر كَمَّ الألم الذي يتوارى في طَيَّات ابتسامة رضا مُجْبِية عطوف.

٣٧٢- اللهم إني أسألك ما سألك إياه عبدك وکَلِيمُكَ موسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾^(١).

٣٧٣- نَقَلَ فُؤادُكَ حيث شئت من الهوي ما الحُبُّ إلا للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرضِ يَأْلَفُهُ الفَتى وحينئذٍ أَبَدًا لأولِ منزلِ
(أبو تمام)

٣٧٤- يُنسب للإمام علي عليه السلام قوله: اعرف الحق؛ تعرف أهله... فلا يُعرف الحق بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق...

٣٧٥- كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا
(المتنبي)

(١) سورة طه؛ الآية ٢٩.

٣٧٦- كما أن المصائب لا تأتي فرادى؛ بل دفعةً واحدةً ... كذا نطمع في رحمة الله أن تنزل دفعةً واحدةً ... أن تهمر كالسيل ... ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ ...

٣٧٧- في مواضع عدة من سيرته؛ يتحدث محمد أسد عن رحلته إلى الإسلام باعتبارها «عودة» حقيقية وليست رمزًا، لكنها ليست عودةً مشيخانيةً طوباويةً إلى فردوسٍ أرضيٍّ مُعَيَّنٍ؛ بل عودة إلى أصل الإنسان: إلى ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ آلَتِي فَظَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (١).

٣٧٨- من وحي أحد أفلامي المفضلة (August Rush) والذي لا أَمَلُ مشاهدته أبدًا: للوجود موسيقاه الربّانيّة البهيجة. في دوران الكواكب، وفي تألق النجوم، وفي حفيف أوراق الشجر، وفي عبير الزهور، وفي ملاحقة أمواج البحر لبعضها البعض، وفي ارتشاف النحل للرحيق، وفي استقرار الجبال ... وفي سعي الإنسان لصيانة كرامته واسترداد التكريم الإلهي الذي سُلِبَ منه، بتقويض الأصنام التي سلبته. إن هذه الموسيقى المرتبطة بوظيفة عليا، هي التسييح الذي تحدث عنه القرآن. فإن كنا لا نفقه تسييحهم، إلا أننا نُدْرِكُ أنهم يُسَبِّحُونَ. إن التسييح هو الموسيقى الحقيقية التي تبعثها موجودات هذا الكون البديع. إن الموسيقى تسري حولنا في كل مكان، وجل ما نحتاجه هو أن نصيخ السمع؛ أن ندع هذا الفيض الربّاني ينساب لأرواحنا، وسوف يتدفق ناعمًا كمنحة فردوسية ... اذكروا الله.

٣٧٩- جاءه جدّه المصطفى ﷺ في المنام ليلة العروج، ليلة عرسه؛ ليلة عاشوراء وهو صائمٌ، فقال له: «اليوم تُفطر عندنا يا حسين» ... عندنا؟ أيّ عندية هذه؟! المصطفى المختار يقول عندنا؟!

﴿بَشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْمَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِّدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣).

(١) سورة نوح؛ الآيات ١٠، ١١.

(٢) سورة الروم؛ الآية ٣٠.

(٣) سورة الحديد؛ الآية ١٢.

٣٨٠- وقد كنت أتعجب وأستنكف وأشمئز من فكرة حجب «العلم» عن العوام والدهماء والسفلة، وأرى فيها تعالياً غير مُبرَّرٍ يحجبُ الرسالة الخاتمة عن العالمين. لكنني حين ميّزت الفرق بين الوحي والنصوص التي كُتبت بهامشه وعلى حاشيته، لتكون معبراً للأجيال أعجمية الذهن إلى الوحي. اكتشفت أن هذه النصوص ذاتها قد تحجب الوحي وتُضلل الدائرين في فلکها. بل إنها في الغالب الأعم تفعل ذلك. حين اكتشفت ذلك عرفت لم شاعت فكرة حجب «العلم» عن أبناء السفلة. وقد تزامنت هذه المعرفة مع تجربة عملية أدركت فيها كيف يمكن أن يكون العلم فتنة تُضر؛ خصوصاً إذا تعلمه أبناء السفلة. و«أبناء السفلة» ليست سبّة ولا وصفاً طبقيّاً كما قد يذهب بعض الجهال. فهي لا تعني الفقراء، ولكن تعني أصحاب النفوس الوضيعة من المهزومين نفسياً والمتحدرين من بيئات مهزومة لا خلاق لها. أصحاب نفسية الإماء والعبيد، ولو كانوا يرفلون في ديباج العتق. وكم من مُترف هو من الدهماء السفلة، وكم من فقير هو من عليّة القوم وسادات الأمة.

٣٨١- لا يُمكن سنّ قانونٍ لحماية ثورة... فالثورة أصلاً وبطبيعتها واستنادها على إلزام أخلاقي ذي طبيعة ميتافيزيقية هي ضد فكرة الإلزام القانوني الوضعي على طول الخط. لكن يتم سنّ القانون لحماية المكاسب التي حصل عليها المجتمع وقبلة من وصل إلى السلطة على أمواج الثورة... هذا بدهي ولا يحتاج للشرح ولا للتبرير.

وانتقال المجتمع لهذه المرحلة يعني -ضمنًا- أنه لا يُمكن محاكمة الأداء القانوني الذي يُرسّخ الأمر الواقع، لا يُمكن محاكمته لمفهوم الثورة بمثالياته الميتافيزيقية السائلة. فقد انتقل المجتمع من نسقٍ إلى آخر ذي خصائص مُختلفة كلياً. إن القانون بحد ذاته مركزٌ لنسقٍ، كما الثورة أصلاً مركزٌ لنسقٍ آخر. ولا يُمكن الجمع بين المركزين في نسقٍ واحدٍ، كما لا يُمكن محاكمة نسقٍ وضعيٍّ ذي مركزٍ مستقلٍّ لآخر.

٣٨٢- قيل إن طائرًا أبصر بعض القردة، في ليلة باردة، غاب قمرها، يلتمسون نازًا من يراعة (وهي ذبابة مضيئة) فراح يصيح بهم: لا تطلبوا المستحيل، ولا تسألوا فاقد الشيء أن يعطيه وهم لا يصغون إليه.
ومر به ناسكٌ فقال له: لا تَبْحَ صوتك في نُصح من لا ينتصح، بل من يكرهون ناصحهم ويتبعون مضليهم.

قال الطائر: بل أُمِرنا بإرشاد مَنْ ضلَّ ولو كره.
قال الناسك: أخشى أن يُصيبك منهم شرٌّ!
رد الطائر: ضلالتهم وجهلهم هي الشر الأكبر
فذهب الناسك في طريقه وضاق الطائر ذرعًا بجهلهم، فنزل إليهم يُنبِّه إلى خطأ ما يرجون وعبث ما يستوقدون فأمسك كبيرهم به، ودق رأسه واستمر القردة ينفخون!

وكم من طائرٍ دقَّ القردة رأسه في هذا العالم، فكأنه ناموسٌ كونيٌّ والله المستعان.
٣٨٣- ما بين الذين يريدون ألا يُفكروا وبين من يأبون إلا أن يُكفروا؛ ضاع العقل في حماة الهوى.

٣٨٤- لولا الهوى لم تُرَقْ دمعًا على طليل ولا أُرقت لذكر البان والعلم.
(البوصيري)

٣٨٥- قال الشاطبي رحمه الله في مقدمة كتابه الفذ؛ «الاعتصام»: وَقَدْ نُقِلَ عَنْ سَيِّدِ الْعِبَادِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ، أُوَيْسَ الْقُرْنِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَدْعَ لِلْمُؤْمِنِ صَدِيقًا. نَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ فَيَشْتُمُونَ أَعْرَاضَنَا، وَيَجِدُونَ عَلَى ذَلِكَ أَعْوَانًا مِنَ الْفَاسِقِينَ، حَتَّى وَاللَّهِ لَقَدْ رَمَوْنِي بِالْعِظَائِمِ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَا أَدْعُ أَنْ أَقُومَ فِيهِمْ بِحَقِّهِ».

٣٨٦- يحترف الكثيرون من أصحاب التصورات الباطلة المبدأ الخبيث الذي رواه القرآن عن امرأة العزيز. مبدأ توريط المتقولين من ضعاف النفوس، والذين يُمثلون تهديداً واضحاً لأئمة الكفر.

تبدأ الحلقة من حيث وصفها القرآن: ﴿ وَقَالَ فِئْتَوُۥ فِي الْمَدِيْنَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيْزِ تَرْوُدُ فَنَهَا عَنْ نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ۝۱﴾ (١). لقد انحرفت هذه المرأة عن الحق بفعلها الشائن. هكذا انتقدتها نساء ذات الطبقة المترفة، ليس لفعلها الشائن؛ بل لشيوع ذلك عنها، وربما لاستثارتها بالفتى دونهن.

أما المرحلة الثانية فهي التوريط الأدبي، أو كما يجسد ذلك المثل العامي «اطعم الفم تستحي العين»: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجِيْنَ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ ۝۲﴾ (٢). لقد أرادت ليس فقط إبهارهن وإقناعهن بأن الفتى يستحق؛ بل وانتزاع الاعتراف منهن بالتبادي، وسكوتهن تحت تأثير الصدمة اللاتي قطعن أيديهن جراءها، فهي دليل ليس على جماله ~~الطبيعي~~ فحسب، بل على تهافتهن أيضاً.

ونصل للحلقة الثالثة والأخيرة، فقد تورط النسوة أدبياً في الاعتراف بحقها، فأمست امرأة العزيز أكثر صفاقة وشراسة في طلب الباطل كأنه حق: ﴿ قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِۦ فَأَتَّصَمَهُۥ وَلٰكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَمْرَهُۥ لِيَسْجَنَ وَلِكُنَّا مِنْ الصّٰغِرِيْنَ ۝۳﴾ (٣).

﴿ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ مبدأ لا تكمن خطورته في كونه قَمَّة التمرکز حول الذات فحسب، بل في أنه صدُّ منهجيٍّ عن السبيل. صدُّ يتميَّز به شياطين الإنس على شياطين الجن. ولا تجد من شياطين الجن من قد ترميك بدائها وتنسل!

(١) سورة يوسف؛ الآية ٣٠.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ٣١.

(٣) سورة يوسف؛ الآية ٣٢.

٣٨٧- كان شارلي شابلي يرى في المفكرين والعباقرة والفلاسفة أشخاصًا عاطفيين حالمين، وقد ساهمت صداقته بالفيزيائي ألبرت أينشتاين في توطيد هذه الفكرة. فهو يرى أنهم أصحاب طاقاتٍ وأمزجةٍ عاطفيةٍ جارفةٍ ومتطرفةٍ. ويرى أن هذه العاطفة المشبوبة، برغم ما يُبدونه من هدوءٍ نسبيٍّ؛ هي السبب الرئيس للطاقة العقلية الفائقة. وأنا معجبٌ بهذا التفسير إلى حدٍ كبير ... جدًا جدًا جدًا!!!

٣٨٨- وقد آضت أماسي حُلُمٌ متَّصل باللقاء ... حلمٌ لا ينتهي ولا تصرفني عنه راحة اليأس ... يا خوف فؤادي من غدا!

٣٨٩- قال لها: ثمت امرأةٌ كان الله يسوق لها رزقها على يدي منذ أعوام. وتقطعت بنا السبل حتى أرسلها الله إلَيَّ بتقديره وعلى غير انتظارٍ مني. فكيف ترين ذلك؟ قالت: هو الخير كله ساقه الله إليك، فأبشر بسعة الرزق إن نالت المرأة حقها المقدور فيه، فما ساقها إليك إلا ليلوك أشكر أم تكفر. وما شكر نعمته إلا أداء حقه متى سألك. فقال: الحمد لله الذي زوجني بك.

٣٩٠- ماهي از سر بگنددني زدم فتنه از عمامه خزدني زخم
(مولانا جلال الدين الرومي)
الترجمة: تفسد السمكة من رأسها لا من ذيلها ... فالشرُّ يبدأ من العمامة (ولا بسها) لا من الخمر.

والمعنى: أن فساد المجتمع لا يبدأ من عند من يُعاقرون الخمر، محدودي التأثير أصلاً؛ بل من فساد الدين وانحراف العلماء أهل العمام.

٣٩١- يحدث كثيرًا أن ننتقد فكرةً أو مسلكًا لأننا لا نستطيع الإقلاع عنها، برغم يقيننا بأنها خاطئة/ مُبتدلة/ مُحَرَّمة/ سَخِيفَةٌ. وربما تقعد بنا الهمة عن تغييرها في أنفسنا، لكننا لا نريد لغيرنا أن يقع فيها.

ويبدو لي أن المثل القائل بأن «فاقد الشيء لا يعطيه» صادرٌ عن رؤية مادية للوجود والإنسان، أو قُصد به الوجود الماديّ وتم توسيع مجاله الدلالي. فأنت لا يمكنك أن تُعطيني كيلو غرامًا من الدقيق لو لم يكن عندك. لكنك مثلاً قد تُعلمني الحلم بسفاهتك، والصبر بهلك. إن الإنسان ينطوي على أسرار الوجود ولا يملكها؛ بل يكتشفها في الآخرين غالبًا قبل أن يكتشفها في نفسه. فربما كان انطماس بصيرة البعض مفتاحًا لمعرفة معنى البصيرة، كما قد يكون جلاء بصيرة البعض بابًا لانطماس بصيرة البعض الآخر.

٣٩٢- ترك جُلٌّ من يسمُّون أنفسهم بـ«أهل السنة» ذكرى عاشوراء وسيرة الإمام الحسين بغير استرجاع ولا استئناس ولا استعبار. ولا تجد أحدًا منهم ولا من متعلّميهم يذكر أحدًا من مجاهدي آل البيت الأطهار؛ من الحسين إلى النفس الزكية مرورًا بزيد عليهم السلام. وبرغم الحالة «الثورية» التي ترفل فيها الدول العربية، فلا يوجد إمام جمعة واحد قد «يجازف» بذكر آل البيت في عاشوراء، كأنهم يخشون نظام يزيد اللامرئي!! وقد كنت أحداث بعضهم بهذا الشأن بعد انقضاء الصلاة، فكانوا لا يُجيبون جوابًا، أو يتبرع «قواد» منهم لاعتباره من «مواطن الفتنة»! ولم يكتف «أهل العلم» و«حراس السنة» بذلك، رغم إفراطهم في الحديث عن نجاة موسى عليه السلام وقومه في عاشوراء؛ بل أخذوا يعيبون على الشيعة «غلوهم» في الحسين وآله! عجيبٌ أمرهم... أكلما خالط سوءً حسناً؛ تركتموه خوف «الفتنة»؟! فهلا تركتم الصلاة خوف الرياء؟! صدق المتنبي: ... إلا الحماقة أعيت من يداويها!

٣٩٣- ... ويُرَوَّى أن ضفدعة لعبوا نصحت لإحدى صواحبها قائلة: لا تقصدي البحيرة الفلانية ففيها يكمن ضفدعٌ ماجنٌ عديم الحياء لثيمٌ؛ ذهبت هناك أول أمس فاغتصبتني، وذهبت بالأمس فاغتصبتني، وذهبت اليوم فاغتصبتني، وسوف أذهب غدا لأحسم أمري معه وأنظر ماذا يفعل بي! إن هذه القصة «الخرافية» تُفسّر كثيرًا من عبثية السياسة في الدولة «الحديثة»!

٣٩٤- الله يُنجي فؤاده من غوائله لأنه قد تمادي في تجاهله.

(البيضاوي)

٣٩٥- رُوِيَ في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه حديثاً فيه قوله ﷺ: **إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ.**^(١)

ومعنى «يؤيد» أى ينصر، والرجل الفاجر يشمل من كان كافراً بالكُليَّة ومن كان فاسقاً. وهو لا يعارض الآيات الصريحة في الولاء والبراء، ولا قوله ﷺ: **إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**^(٢)، لأنه محمولٌ على من كان يظهر الكفر. وسبب ورود الحديث يوضح معناه، فإنه ورد في قصة الرجل الذي قاتل، وقال النبي ﷺ: **إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**، وظهر بعد ذلك أنه قتل نفسه لعدم تحمُّله الجراح.

إن المؤمن لا يستعين بمن يُظهر الشرك/ الكفر، وإن كان ذلك المشرك/ الكافر قد يُسخره الله تعالى لنصرة الدين.

لماذا كان الأمر كذلك؟

لأن استنصار الفاجر الصريح يؤدِّي لموالاته والبحث عن مصالح مشتركة وقاعدة من التصورات التي تجمع بينه وبين المؤمن (أسطورة المشترك الإنساني مثلاً)، ومن ثم يسقط المؤمن في فخ المساومة على أصله، بل وقد ينتهي به الأمر بالتخلي عن دينه لا إرادياً في سبيل «النصر» المنشود!

إن استنصار الواحد الأحد وحده ﷺ ليس جوهرًا للتوحيد فحسب؛ بل إنه قد يؤدِّي -بمشيئة الله وإذنه- لتسخير الفاجر لنصرة الدين الذي لا يؤمن به، بغير

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُتَيْنًا، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِّنْ يُّدْعَى بِالْإِسْلَامِ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا خَضَرْنَا الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ الَّذِي قُلْتَ لَهُ أَنِفًا: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَى النَّارِ»، فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيَّنَّا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنْ بِهِ جِرَاحٌ شَدِيدٌ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصُرْ عَلَى الْجِرَاحِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِأَلَا تُنَادَى فِي النَّاسِ: «أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُّسْلِمَةٌ»، وَأَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ. رواه البخاري: ٦٦٠٦، ومسلم: ١١١.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ يَحْيَى: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَحَقَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيَقَاتِلَ مَعَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ». ثُمَّ اتَّفَقَا فَقَالَ: «إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ»، رواه أبو داود: ٢٧٣٢، وأحمد: ٢٤٣٨٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢٢٩٣.

أن يثلم للمؤمن اعتقاداً. إنه يُسخر رغم كفره لأنه خاضع بالعبودية، فالله ﷻ رب العالمين وليس رباً طائفاً للمسلمين فحسب. وهو في هذه الحال يُسخر بأمر الله وحوله؛ بما أنه خاضع بالكليّة للقادر ﷻ. وشتان بين هذا التسخير وبين استنصار المؤمن للفاجر؛ والذي يُضيع الدين بتميع التصوّر في سبيل وهم نُصرته. لم يجعل الله في معصيته نُصرةً له، لكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣٩٦- وقد فسد الكثير من «ثورات» الربيع العربي بسبب تبديد الجهد في الحرص على «سلميّة» الثورة، والتنظير لرفض «التخريب». فاستغلّت الأنظمة الفرصة لتخريب كل شيء وقتل من طالته أيديها، ونسبة ذلك إلى «الثوار». إن الثورة حالة دينيّة لا عقلانيّة، ولا يُمكن التحاور مع الناس عقلانيّاً في هذه الظروف بشأن رفض «التخريب»، لكن يُمكن للفاعلين الاجتماعيين على الأرض تقليل الخسائر عمليّاً بالقدوة الحسنة ونبذ «المخربين».

٣٩٧- منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر قليلاً، لم يكن «عيد الأم» قد صار مناسبة استهلاكيّة في مصر. ثم دثنته «اليد الخفيّة» لقوى «السوق الحرّ» لتشجيع الاستهلاك؛ ليُمسي أحد أهمّ المواسم الاستهلاكيّة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وحين زادت السلع عن الحد؛ لحقه في أقل من عقدين: «رأس السنة» و«الكريسماس» و«عيد الحبّ»... وصولاً إلى «الهالوين» الأمريكي. وغالباً فإنّ الإمعات التي تنقل هذه العادات الاستهلاكيّة البذيئة لا تعي مضامينها الفلسفيّة والعناصر الوثنيّة الطافحة في بعضها مثل «عيد الهالوين»، لذا فقد نجد مُعمّماً أحقّ يُضفي عليه شرعية فيما بعد.

إن هذا الفيض من «الأعياد» غير المبررة ليس سوى محاولة لاستمرار خطوط إنتاج سلع تافهة في العمل على حساب الملايين من المغيّبين المغفّلين الذين تعيش أكثر شعوبهم تحت خط الفقر.

أجد التفسير التأمري شديد المصدقية والواقعية في هذه الحالة. فحين يتبنى بلد متردّ في كل شيء (من المرور إلى الصحة مروراً بالتعليم) أعياداً انتزعت من سياقات

حضارية أخرى بغير مُبرر واضح ولا سبب ظاهر ومفهوم سوى الاستهلاك؛ فإن هذا لا يعني سوى أنها مؤامرة بالفعل.
مؤامرة أقل أضرارها اقتصادية وأخطرها عقدية ...

٣٩٨- «ثورة» ٢٥ يناير المصرية، ككل الثورات في التاريخ؛ ماتت في الريعان: يوم تنحّي مبارك. وكل محاولات الناشطين و«المثقفين» الطوباويين لرد الروح فيها إنما هي محض عبث؛ قبله الحياة لجئة باردة متكلسة. قبله لن تُعيد الحرارة للجسد الميت، وإنما سترهق هؤلاء السذج نفسياً وتستنزفهم عاطفياً. وأقصى ما يمكن أن تتمخض عنه هو بعض الأدب العبيثي والمقولات الفلسفية التشاؤمية، والتي قد تصل في كثير من الأحيان إلى الإلحاد أو إلى ... التصوف الانسحابي!

وكل هذا طبيعي ومتوقع ومكرر في التاريخ والخبرة الإنسانيين. ولا يمكن تفاديه في كثير من الأحيان. بل وحتى ظن البعض بأنهم قد يستطيعون إضرام ثورة جديدة من لحد ثورة لما تتحلل بقاياها بعد؛ هو أيضاً أمر إنساني برغم عبثيته الشديدة، ولا عقلانيته، ومخافاته لحقائق التاريخ والطبيعة البشرية.

وبرغم كل ما سبق، فإن ما يحدث هو مؤثرٌ إيجابيٌ برغم كل مردوداته السلبية. دليلٌ على إمكانية كامنة، وإن كانت مؤجلة لعددٍ مجهولٍ من السنوات. دليلٌ على أن قدرة الإنسان على التجاوز هي جوهر الفطرة الربانية حتى في حال انتكاسها.

٣٩٩- مقبلٌ على الموت، وكُلُّ همة ألا تنكشف عورته للخلق؟! أي نفسية هذه!!؟

أن يكون كلُّ هم الإمام الحسين عليه السلام صبيحة يوم العروج؛ ألا تنكشف عورته إذا لقي ربه شهيداً كما بشره جدّه عليه السلام. فيلبس بُردة جدّه الشريفة (التي بليت) فيما يلي جسده، لئلا تنكشف عورته حين يسعى غوغاء جيش ابن زياد لسلبه بعد أن يلقى ربه! فالبردة الشريفة لن تكون مطعمًا لمن أعمتهم الدنيا وساقتهم الأهواء لقتل أشرف أهل عصره. يا للبردة ويا للابسةا الذي أشقى من بعده ... صلى الله عليك وعلى من ربّاك.

٤٠٠- عقد جلال كشك أحد الفصول الهامة في كتابه العمدة «ثورة يوليو الأمريكية» تحت عنوان: «ثورتنا التي أجهضت»؛ قاصداً الثورة الشعبية التي كانت تعمل في أحشاء مصر فأجهضها الانقلاب العسكري عام (١٩٥٢م). وقد احتجت عشرة أعوام ومئات الكتب لأعرف لماذا تُجهض الثورات دوماً. وأن «ثورتنا التي أجهضت» لم تكن استثناءً.

الثورات تُجهض دائماً لأن البلدان لا تحبل بها إلا سفاخاً. وأول من يسعى للتخلص من السفاخ هو والد الجنين؛ خصوصاً إذا وصل للسلطة وأمسى مُتنفذاً... فهو يريد الحفاظ على منصبه. والحفاظ على المكاسب نقيض الثورة على طول الخط. لذلك تُجهض الثورات دائماً وأبداً.

وقد صدق أستاذنا بيغوفيتش حين قال: إن حياة الدين والثورة تدوم بدوام النضال والجهاد، حتى إذا تحقق؛ يبدأ الموت بالتسرّب إليها. ففي مرحلة التحقق في الواقع العملي يُنتجان مؤسسات وأبنية، وهذه المؤسسات نفسها هي التي تقضي عليهما في نهاية الأمر. فالمؤسسات الرسمية لا هي ثورية ولا هي دينية. ليظل كل جيل من أجيال الإنسانية يحكي عن «ثورتنا التي أجهضت». فالإنسانية لم تُخلق للحفاظ على مثل هذا النوع من الأجنة.

٤٠١- يجب إبقاء النوافذ مغلقة «حتى لا يطير الدخان»؛ فلو طار لأفاق المغيّون!

٤٠٢- لا أحب مناقشة الأعمال الفنية بحضور مؤلفها أو كاتبها. قد يجوز ذلك في الأعمال الفكرية، لكنني لا أستسيغه في النثر الأدبي والشعر. فإن المجال المجازي الذي يتركه الأديب/ الفنان بينك وبين النص هو جوهر المكسب الذي يجنيه مُتلقي العمل الفني؛ لإعمال الخيال والاجتهاد للتأويل. أما مناقشة المؤلف في كل تفصيلاً كأنه يُناقش رسالة «علمية»؛ فأمرٌ بغيضٌ بالنسبة لي، وأراه مُناقضاً لجوهر الفن وآلية التلقي الفطرية. فهو تقييد الدال بمدلول النقاش وتكبيّل للنص الرحب أصلاً، واختزالٌ للعمل الفني في دراسة أو بحثٍ باردٍ كغيره من الأبحاث الأكاديمية الميّنة.

٤٠٣- والشهداء لا يسقطون؛ بل يصعدون... يعرجون إلى الفردوس...
وحدهم القاعدون والمخلفون هم من يسقطون.

٤٠٤- يبدو أن جوهر الرؤية المادية العلمانية ليس واحدًا فحسب؛ بل إن تجلياتها
مُتشابهة كذلك. فبعد أن عبَدَ الناصريُّون والقوميُّون والشيوعيُّون وأطياف اليسار
اللا ديني قوى الاقتصاد «المحركة للتاريخ» في منتصف القرن العشرين؛ إذا بالمعبد
يُفتح من جديد في مطلع القرن الحادي والعشرين، ليتعبَّد فيه بعض أصحاب
اللحمى... هل أبدو كمن يجهل إباحة الإسلام لـ «الملكيَّة الخاصَّة»؟!... لكني على
يقين من تحريمه للاحتكار واسترقاق الأحرار.

٤٠٥- كثيرًا ما حيرني تحمُّل جيل السبعينيات للموضة المقززة: «الشارلستون»،
والسوالف التي تملأ الوجه، والألوان التي تُشبه ملاءات الأسرة. لكني بعد أن
عشت لأرى الجيل الذي تتدلى سراويله الممزقة لتكشف أكثر مما تستر... وتوظف
بناته الحجاب ليُصبح أكثر عُريًا وإباحية... أدركت كيف يتحمل كل إنسانِ قذاراته
بسعادة، وبغير عقلنة ولا تبرير. ورحم الله جدي التي كانت تقول: «لو جينا
للمجنون ميت عقل على عقله، ميعجبوش غير عقله!» والحمد لله على العافية!

٤٠٦- قصة «الغنيمة» في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تلقينه علينا -كذلك-
أغرب!! لقد بدأت أولى هزائمنا بسبب الغنيمة، ولقد وقفنا مُرغمين عند آخر مدى
وصلت إليه فتوحاتنا، بسبب الغنيمة كذلك!! فقصة الغنيمة... هي قصة الهزيمة
في تاريخنا.

كان قائد المعركة الأولى هو الرسول ﷺ... وخالف الرماة أمره، وخافوا من أن
تضيع فرصتهم في الغنيمة... فكانت «أُحُد» وشهد الجبل العظيم استشهاده سبعين
رجلاً من خيرة المسلمين... بسبب الغنيمة... نعم بسبب الغنيمة!!
وكان قائد المعركة الأخيرة، «عبدالرحمن الغافقي»؛ آخر مسلمٍ قاد جيشًا إسلاميًا
منظمًا لاجتياز جبال البرانس، وفتح فرنسا؛ والتوغل -بعد ذلك- في قلب أوروبا.

وهُزِمَ الغافقي ... سقط شهيداً في ساحة «بلاط الشهداء» (بواتيه) إحدى معارك التاريخ الخالدة والفاصلة ... وتداعت أحلام المسلمين في فتح أوروبا، وطووا صفحاتهم في هذا الطريق ... وكان ذلك لنفس السبب الذي استفتحنا به دروس الهزيمة ... أعني بسبب الغنime.

(عبدالحليم عويس؛ دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية)

٤٠٧- الانتصار في معركة ... والحصول على مكسبٍ وقتي ... والوصول إلى السلطة .. هذه كلها ليست هي قضية التاريخ ... ولا معركة التقدم البشري ... بل هي عمومًا ليست من عوامل تحريك التاريخ إلى الأمام أو الخلف على نحوٍ واضح وضخم ... إن الانتصار في معركةٍ قد لا يعني الهزيمة الحقيقية للأعداء، فحين لا تتوافر العوامل الحقيقية للنصر ... يُصبح أي نصرٍ مرحليّ عملية تضليل، واستمراراً للسير الخطأ، وتمادياً في طريق الوصول إلى الهزيمة الحقيقية ... هكذا سار التاريخ في مراحل كثيرةٍ من تطوراتهِ ... كان النصر بداية الهزيمة، وكانت الهزيمة بداية للنصر! وحين يصل إنسانٌ ما إلى الحكم ... دون أن يكون مُعدّاً إعداداً حقيقياً للقيادة، ودون أن يكون في مستوى أمته ... يكون وصوله على هذا النحو هو المسار الأخير الذي يُدقُّ في نعش حياته وحياة الممثل لهم ... !

والتاريخ في دوراته غريبٌ وهو يعلمنا أنه لا توجد قاعدةٌ ثابتةٌ للتحوّل ترتكز على أسسٍ متينةٍ، اللهم إلا قاعدة التغيير من الداخل المرتكزة على عقيدةٍ لها جذورها في أعماق النفس، ولها انسجامها مع حركة الكون ولها صلاحياتها في البقاء والانتشار والخلود! (عبدالحليم عويس؛ دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية)

وتعليقي هو: لو لم يُخطِّ عبد الحليم عويس سوى هذه الأسطر؛ لكفته ... رحمه الله وأثقل ميزانه، فقد كتبها بإلهامٍ وهدايةٍ ربّانيةٍ.

ولمن لا يعرف، فهذا مقتطفٌ من كتابٍ نُشرت طبعته الأولى عام (١٩٧٨ م). أي منذ ٣٥ عامًا !!!

٤٠٨- وأكثر الناس لا يدورون مع الحق حيث دار؛ بل يدورون مع أصنامهم من الأفراد. فإن قال فلان -الذي يثقون به- بحقانية أمر؛ امثلوا كالنعاج. وإن قال ببطلانه؛ أمنوا بغير نقاش. إن الله لم يجعل الحق رهناً بكثرة التبع. بل إنه خاطب رسوله وخاطبنا بعده: ﴿وَإِنْ طَغَى أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ فَيَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١).

فليكن لك شيخك ومعلمك وقودتك؛ لكن ليكن لك أيضاً منهجك في النظر. فإن قلدت شيخك قلدته عن علم وقناعة وبصيرة، وليس كتقليد الببغاوات. أما إن كنت عاجزاً عن تشكيل منهج للنظر؛ فلا تجادل ولا تناقش وتملا الدنيا عويلاً ما دام «رأيك» هو اجتهاد غيرك. فأنت والسائمة سواء. وقد رُفِعَ التكليف عن الدواب!

٤٠٩- وكل عالم/شيخ/مفكر/داعية يضع حمله على دوابٍ تُقلِّده بلا تُعقل، فإنما يُضْحِي بدعوته في سبيل كثافة الجمهور. إن الإخلاص مع الله يقتضي ألا تُلْقِن المريدين/التلاميذ/المحبين آراءك؛ بل أن تُعلمهم «منهجك» وكيف وصلت لهذه الآراء. بهذا فقط تُحفظ الدعوات وتنصلح الأمم.

٤١٠- من حديث أم المؤمنين عائشة عن مناحك الجاهلية الأربع؛ تقول: «فإذا حَمَلَتْ إحداهنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعُوا هُمُ الْقَافَّةُ ثُمَّ الْحَقُّوْا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنُهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ» (٢)!

(١) سورة الأنعام؛ الآية ١١٦.

(٢) عن ابن شهاب، قال: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْنِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَيَنْكَحُ مِنْهَا النَّاسُ الْيَوْمَ: يُخْطَبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلَيْتَهُ أَوْ ابْنَتُهُ، فَيُضِدُّهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهَّرَتْ مِنْ طَهْنِهَا: أُرِييِلِي إِلَى فَلَانٍ فَاسْتَضِيعِي مِنْهُ، وَبَعَثَتْهَا زَوْجَهَا وَلَا يَمْسُهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَضِيعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نِجَاحَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الْإِسْتِضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشِيرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيْتَالُ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِيعَ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، فَقَوْلُ هُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فَلَانُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ جَاءِهَا، وَهِيَ الْبَغَايَا، كُنْ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِ رِيَابِ تَكُونُ عَلَيَّهَا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعُوا هُمُ الْقَافَّةُ، ثُمَّ الْحَقُّوْا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ. فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنُهُ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ «فَلَمَّا بَيَّثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ»، رواه البخاري: (٥١٢٧).

وكم من دعويٍّ ألحق ببعض القافة؛ فما امتنع النغل من ذلك ... صدقت الصديقة بنت الصديق؛ عليها وعلى أبيها السلام.

٤١١- ولا أعرف كيف يتسلق إنسانٌ ما سُلِّمًا كُفْرِيًّا، ويظنه قد يؤدِّي به للإسلام!! إن النُصرة مُرتبطةٌ بالمنهج، ولا انفصال بينهما إلا في حسّ المهزومين المهزولين المضللين.

هل تُرجى المودة والرحمة في الزنا؟ أم هل يُرجى وجه الله في الانكباب على وثني؟!

٤١٢- إن خطورة الدول القومية وضررها الأنكى ليس في أنها «أخذت ولم تعط»، وليس في أنها «سلبت الاستقلال القومي»، وليس في أنها «وُظِّفت الموارد» لصالح الاستعمار، وليس في أنها «قهرت المواطنين»، وليس في أنها كرَّست حالة «استضعاف القلة» ونظَّرت لخرافة «الأقليات» وقتنت وضعها المنحط. ولا في سائر الترهات التي يلوکها الفلاسفة والأكاديميون الغربيون ونُقَّاد الدول القومية.

إن الكارثة الأكبر هي إزاحتها للإله لتحل محله، فهذا هو أصل الداء؛ وكل ما عدا ذلك عرضٌ له ونتيجةٌ. ليُصبح مبنى البلدية مركزًا للدولة/ السمدينة، ويحل محله السوق/ المركز التجاري في الثلث الأخير من القرن العشرين، بعد أن أزيح المسجد/ المعبد تمامًا إلى الهامش. إنه نمطٌ وثنيٌّ بالكامل، ولا يُمكن «أسلمته». إن الخروج من نسق الدول القومية يستلزم عودة حقيقية للتوحيد.

وهذه العودة لن تكون قطعًا على يد «ميشيل فوكو» ولا «تيموثي ميتشل» ولا «برتران بادى» ولا غيرهم. بل على يد الغزالي وابن تيمية وأحفادهم من المجددين. إن الخروج من هذه الهوة لن يستنقذ عالم الإسلام من مستنقع التجزئة فحسب؛ بل سيستنقذ البشرية كلها ... وهذا هو جوهر الدعوة للإسلام وللب هدفها.

«... لنُخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»^(١). قالها ربيعي بن عامر رضي الله عنه منذ ألف وربعائة عام لرستم قائد الفرس، وحرّياً بنا أن نُدرك هولتها اليوم.

٤١٣ - إذا كانت نبوة يعقوب عليه السلام ظاهرة باهرة في يقينه بالله في هذه الآية التي تُعلم الإنسانية - إلى يوم القيامة - معنى تجاوز الواقع برغم مرارته: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَقْصِرَ عَنْ رُبِّكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٢). فهو يوقن في وعد الله برغم اجتماع المصائب عليه. إلا أنه قد أخلد بعض الشيء إلى بشريته وأبوته في الآية التي تليها: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تِئْسَ الْفِتْنَةُ الَّتِي بَنَيْتُمُ اللَّهَ وَبَنَيْتُمُ النَّاسَ عِندَهُ مِثْلَ الْخُرُوجِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٣). وحتى في هذا الإخلال القصير المؤقت بدت نيته واضحة وتصوره صافياً كما ترسم السورة ذلك بعدها بآية واحدة: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَتُكْفَرُ بِقِيٍّ وَخُرُوجٍ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤). إنه لا يعترض على القضاء ولا يحتج عليه. بل يقبله ويشكو ألمه للقادر عليه السلام. فهو وحده القادر على رفع البلاء.

(١) .. قَالَ سَيْفٌ عَنْ شُيُوحِهِ: وَلَمَّا تَوَاجَعَ الْجَيْشَانِ بَعَثَ رُسُلُهُمْ إِلَى سَعِيدٍ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بَرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةَ بْنَ سُعْبَةَ رضي الله عنه. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسُلُهُمْ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنُكْفُ الْأَذَى عَنْكُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ وَلَا تَنْتَعِمْ تَحَارُكُم مِّنَ الدُّخُولِ إِلَى بِلَادِنَا. فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ: إِنَّا لَيْسَ طَلِبُنَا الدُّنْيَا، وَإِنَّا هُنَا وَطَلِبُنَا الْآخِرَةَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ سَلَطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِينْ بِيَدِي فَقَاتَا مُتَّقِمِينَ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلَ لَهُمُ الْعَلَبَةَ مَا دَامُوا مُفْرِقِينَ بِهِ، وَهُوَ دِينَ الْحَقِّ، لَا يَزْعَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذُلٌّ، وَلَا يَنْتَصِمُ بِهِ إِلَّا عَزٌّ. فَقَالَ لَهُ رُسُلُهُ: قَتَا هُوَ؟ فَقَالَ أَمَا عَمُودُ الَّذِي لَا يَضْلُمُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ فَتَسْهَادُهُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ تَحْتَدَا رَسُولُ اللَّهِ، وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ مَا أَحْسَنَ هَذَا؟ وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ وَإِخْرَاجُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضًا وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ: وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، فَهُمْ إِخْوَةٌ لِأَبٍ وَأُمٍّ، قَالَ وَحَسَنٌ أَيْضًا. ثُمَّ قَالَ رُسُلُهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلَادِنَا؟ قَالَ: إِي وَاللَّهِ ثُمَّ لَا نَقْرُبُ بِلَادَكُمْ إِلَّا فِي جِهَادَةٍ أَوْ حَاجَةٍ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضًا. قَالَ: وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغِيرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكِرٌ رُسُلَهُمْ وَرُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ قَائِلُوا ذَلِكَ وَأَبُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ فَبَحِثَهُمُ اللَّهُ وَأَخْرَجَهُمْ وَقَدْ فَعَلَ. تاريخ الرسل والملوك = الطبري، ٣/ ٥٢٠، والبداية والنهاية: ٣٩/ ٧.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ٨٣.

(٣) سورة يوسف؛ الآية ٨٤.

(٤) سورة يوسف؛ الآية ٨٦.

صلى الله على يوسف وعلى أبيه يعقوب وعلى أبيه إسحق وعلى أبي وأبيهم إبراهيم. صلى الله على الشجرة المباركة الطاهرة ورزقنا الاقتداء بها.

٤١٤- إن مدلول الحاكمية في التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده. والتحاكم إليها وحدها. والحكم بها دون سواها .. إن مدلول الشريعة في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية، ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه. إن هذا المدلول الضيق لا يُمثِّل مدلول الشريعة والتصور الإسلامي!

إن شريعة الله تعني ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية.. وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة أيضًا. (سيد قطب، معالم في الطريق) ... وأصول المعرفة أيضًا؛ هذا هو لبُّ الأمر. رضي الله عنك.

٤١٥- لا يُعرف الله بالنظر العقلي ولا حتى بالأثر الميت، بل بالحياة في كنفه. فكل نفس يتردد فيك حياة بثَّها وحفظها. كل نفس هو قِبْسٌ من نفخته الإلهية التي لا تُدرك ولا توصف. وحياتك على الفطرة تُعرِّفُ عليه ﷺ بغير معرفة كنهه. هنا، قاب قوسين أو أدنى؛ تقف اللغة خاضعة عاجزة ذليلة فلا تزل، بل تخر ساجدة في عرفانٍ صامتٍ ... الحياة أسمى من الفكر.

٤١٦- وقد يُزعجك/يُضجرك/يُقلقك تأخر الإجابة، فإذا نفذ القضاء المقدور... عرفت أنه نفذ في وقته بغير زيادة ولا نقصان، وأن التوقيت الرباني أقوم وأهدى.

٤١٧- في الطريق إلى زمان العُرس، إلى يوم عاشوراء؛ لا يمكن إلا أن تصحبني كلمات الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ليلة استشهاده: «خط الموت على ولد آدم مخطط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأي بأوصالي تقطعها عُسلان

الفلوات بين النواويس وكريلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا يحيص عن يوم خُطَّ بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقر بهم عينه وينجز بهم وعده»^(١).

صلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

٤١٨- وكما دأب البعض على الدفاع عن الأمويين بالحق وبالباطل. فيبدو أن البدعة ستمتد هذه الأيام للدفاع عن العثمانيين، بالحق وبالباطل؛ في وجه حملات التشويه الظالمة التي نالتهم منذ ظهور الدول القومية الحديثة وسقوط دولتهم. ولأن هؤلاء يردون باطلاً بباطل، فس نجد قريباً من يُدبِّج الكتب في «خلق الأولياء» الذي ما شدَّ عنه سلطان ولا وال!

٤١٩- برأبي؛ ليست المشكلة في التمهُّب ذاته. أن تكون سلفياً أو شيعياً أو أشعرياً أو حتى مدخلياً. لكن الأزمة الحقيقية في لوازم كل مذهب. وفي العصر الحديث بعد أن أمست الدولة إلهاً، وحكامها سدنة للمعبد الوثني؛ صار تبني موقف الدولة/الإله/المذهب أصلاً وعقيدة. ولعل من يُسبغون القداسة على مواقف الدولتين الإيرانية والسعودية، ويتبنون مواقفهما الدنسة؛ نماذج واضحة.

٤٢٠- الحس الفني أسمى من اللغة. ومن امتلك حساً فنياً؛ سهل عليه توظيفه وإبرازه من خلال أي لغة يتقنها، ولو لم تكن لغته الأم. شرط تمام إتقانها. وبرغم ذلك، فإن هناك مساحات تبقى مقصورة على اللغة الأم بدرجة كبيرة. ومنها الشعر على سبيل المثال وليس الحصر.

(١) الأثر نسبته للحسين عليه السلام نجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نيا الحلي في كتابه: «مثير الأحزان»، وعلي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسيني في كتابه: «اللهوف على قتل الطفوف». والرواية عندهم: «الحمد لله وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، خط الموت على ولد آدم غلط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخبر لي مصرع أنا لاقية، كاني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكريلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا يحيص عن يوم خط بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقر بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإني راحل مصباح إن شاء الله».

٤٢١- ليس بمقدور الذكرى والحنين والشوق إحياء الموتى من البشر، لكن بمقدورها إحياء ميت القلوب. إنها لا تعيد الأحبة للوجود ثانية؛ بل تملؤنا بالمشاعر التي كنا نحملها لهم وتؤججها. إن الذكرى بالأصل حاجةٌ وجدانيةٌ لا عقلانية تُعيد للوعي التاريخي مضاءه.

وحين أمر القرآن المصطفى وكل الأنبياء من قبله بتذكير أقوامهم بما كان منهم في البرزخ الأول من اعتراف بالربوبية؛ حين أمر بهذا التذكير قرر أنه لن ينتفع به سوى المؤمنين ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝﴾^(١)، وذلك ليس فحسب لأنهم هم أصحاب القلوب الحية دون غيرهم؛ بل لأنهم هم الذين يرتبط الإحياء عندهم بالفعل الجواني (مناط التكليف) قبل الأثر البراني (المعلقة صورته بالمشيئة الإلهية)؛ فالأول منشئٌ للثاني، والقدر النافذ في المجال البراني ستار ما انعقد عليه القلب في الفضاء الجواني.

إنهم لا يحملون بطوبيا يتوقف فيها التاريخ بعودة الأموات الأعزاء؛ بل يجعلون من ذكرى هؤلاء قوتاً يُعينهم على تحمل وعناء التاريخ والكبد داخله. إن الذكرى مدرسةٌ تاريخيةٌ، وليست لحظةً فردوسيةً للخروج من التاريخ.

٤٢٢- أمسى الحديث عن خبرة الإخوان السياسية (طوال ثمانين عاماً!) ينطوي على قدرٍ كبير من الأيقنة، وانعدمت مقدرته التفسيرية في ظل التخبط السياسي الشديد وتشوّه إدراكهم للواقع؛ اللذين وصما كل تحركاتهم وقراراتهم منذ اندلاع الثورة.

في الوقت نفسه؛ لا يمكن اعتبار صعود الجماعة لسدة الحكم دليلاً على مثل هذه «الخبرة» التي أمسّت أقرب للأسطورة، وإلا جاز بنفس الوقت تفسير النسبة التي حصل عليها السلفيون في البرلمان بـ «تيجي مع الهبل دُبل»؛ كما يقول العامة!

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢.

لقد كنا نُمازح بعض أصدقائنا حديثي الزواج بـ«الطعن» في رجولتهم بسبب ردود أفعال أو مواقف معينة نراها لا تليق بالرجال، فيُشiron إلى أطفالهم كدليل على الرجولة ... وكأن الرجولة في تعريف المجتمع أمست هي محض الذكورة. لذا، كنا نزيد من جرعة السخرية بحجة أن البعوض والحشرات والكلاب والخنازير قادرة على التناسل هي الأخرى، فما الفارق الجلي الذي يميزهم عن هذه العجماوات؟! ويبدو أن الإشارة لموضوع الخبرة السياسية ستصير إشارة من هذا النوع؛ دليل على حياة بيولوجية نشطة ... رُبما ... لكنها لا تشير إلى شيء آخر! ولا عزاء للمكلمين ...

٤٢٣- والتفكير من داخل النسق لا يعني القبول به بالضرورة، بل محاولة التعامل معه بأدواته.

٤٢٤- حتى لو صحَّ أن ما حدث في مصر كان ثورة حقيقية، وليس مجرد نقل للسلطة من فصيل إلى آخر، فإن التاريخ يُخبرنا أن الثورات تنتهي بمجرد اعتلاء أحد «المستضعفين» لِسُدَّة الحكم!

ولا تستطيع كراهيتك للإخوان أن تنفي حقيقة تصنيفهم، ولو إعلاميًا؛ في خانة «المستضعفين».

إن مشكلة هؤلاء الواهين الذين يحلمون باستمرار الثورة بعد استعادة الدولة للكثير من توازنها؛ أنهم يطمعون في حالة ثورية سرمدية لا تنتهي، وهو ما يُناقض الطبيعة البشرية وتجربتها التاريخية على طول الخط. ولأن أكثر هؤلاء الطوباويين لا يهتمون بالعمل الشاق الطويل؛ فهم لا يريدون استثمار ما حققوه برفع سقف الحريات؛ للعمل بين الناس وإحداث تغيير اجتماعي أعمق. فهم يريدون نتائج سريعة ومكاسب سياسية أسرع. وهي مُراهقة نفسية وسياسية.

إن الكتلة التي ستخرج سواء لتأييد أو لرفض سياسات «مُوسي»، في المدى المنظور؛ ستظل كتلة صغيرة محدودة التأثير. فالوصول إلى الكتلة الحرجة يستلزم وقتًا أطول، ونفسًا أطول، واحتقانًا أكبر. وهذا الأخير بالذات هو أهم عُنصر، وهو

لا يشتعل على فتراتٍ متقاربةٍ أبدًا. خلاصة الأمر؛ أن الإخوان ومرسي ليسوا واقعا
لا سبيل لنقده أو تجاوزه، بل إن هذا يمكن بطبيعة الحال. لكن يلزمه الكثير من الذكاء
والإخلاص والدأب، وهو ما يفتقده أغلب المتصدرين في المشهد السياسي^(١).

٤٢٥- إلهي الرحمن الرحيم: لست بخائفٍ من الوحدة؛ لأنني أستشعر معيتك
تهديني السبيل. ولست بخائفٍ من خلقك؛ فكل داية أنت آخذٌ بناصيتها، وأنت
خيرٌ حافظًا. ولست بخائفٍ من الرجيم؛ لأن قبسك الذي أودعني إياه يوم نفخته
في طيني لا زال يحذرنِي من عدوِّي الأَرَلِيَّ.

إلهي لا أخاف إلا عصيانك مُتَبَعًا شهواتي؛ منساقا لنفسي الأمارة بالسوء ..
لاستحق غضبك .. إلهي .. لا أرتجف فرقا إلا من غضبك، وأسألك أن تغيشني منه
برحمتك التي وسعت كل شيء.

٤٢٦- إذا ما تحقّق أعظم أحلامك، فإنك لا تستطيع التحقّق من مدى مُطابَقة
الواقع لحَيالاتك!! إن الذهول الذي يَتملكك لا يجعلك قادرا إلا على أن تبتهل
للذي منَّ عليك، أن يحفظ عليك علامة حبه لك، ورحمته بك، مُعاهداً إياه ﷺ على
أن تحفظ نعمته ما وسعك حفظ روحك بين جنبيك؛ دلالة عرفانك.

٤٢٧- يرى أستاذنا بيغوفيتش أن ما يبقى من الإنسان بعد وفاته هو «طيبته»
فحسب. ولم أدرك معنى ذلك إلا حين وجدت نفسي أحب (أو أستمِر في حب)
بعض من أرفضهم كُليًّا، وأرفض فعالمهم وتصوراتهم. أحبهم بصدق، فقط لأنهم
طيبون. لا لأي شيء آخر. أحبهم لأمرٍ لا علاقة له بالعقل، ولا بالمعايير العقلية
ولا حتى بالمعايير «الشرعية» التي يعتبرها بعض أصدقائي السلفيين معيارًا للعمل
القلبي!

ويبدو لي أن الحب من هذا النوع، وبهذا القدر من التجرّد؛ هو بعيدُ البُعد كله
عن مجال عمل مفهوم الولاء والبراء. بل دليل عدم ارتباط العمل القلبي الجواني

(١) كتبت هذا قبل الانقلاب العسكري، ولازلت أرى صحته بدرجة كبيرة.

بالمفاهيم والمعايير القانونية ذات الأثر القانوني البراني مثل الولاء والبراء ... إنه محض استشرافٍ للقطرة الكامنة؛ ذلك الغرس الرباني الذي يُبقي فيهم ما يستحق الاحتفاظ بالعلاقة بالنسبة لي، بل واقتادهم والحزن عليهم إذا ما غابوا أو أضرروا. إنه حبٌّ في الله ... في ذات الله.

٤٢٨- في مثل هذا اليوم، ٢٧ ديسمبر عام ٥٣٧ للميلاد؛ اكتمل بناء كنيسة «أيا صوفيا». التي اتخذها العثمانيون مسجدًا ثم حوّلها الكماليّون لمتحفٍ. هذا المبنى المسخ ليس شاهدًا فحسب على ثلاثة حقبٍ، بل هو شاهدٌ على النمط والتحول الذي وسم تلك الحقبة.

ففي الحقبة المسيحية حلَّ الإله وتجلَّد في الكنيسة؛ لتمتلي بالأيقونات المقدسة، وتُصبح هي مصدر الشرعية، فيُخصص مكان لتنصيب الإمبراطور الروماني خادم المسيحية. هنا تُهيمن الكنيسة/ البابا على الدين والسياسة.

وفي الحقبة العثمانية يُحوَّل «الفتاح» المبنى إلى مسجدٍ، فهو الأمير «المظفر» الذي أخبر به النبي ﷺ؛ ليوظف «الكنيسة» الجديدة بعد أن ألبسها العمامة واتخذ لها «بابا» سمّاه: «شيخ الإسلام». فالمسجد في حقيقة الأمر هو أحد أروقة القصر الإمبراطوري. ليهيمن السلطان على الدين والسياسة.

وفي الحقبة الكماليّة يُزيح أتاتورك كلًّا من الكنيسة والمسجد، ويحول المبنى لمتحفٍ «ديني»؛ متحف يرمز لقوة السلطة الجديدة التي نَحَّت الدين تمامًا واختزلته في «قيمة» متحفية: سلطة الدولة القومية الحديثة. في هذا النمط لا يوجد مسجد ولا كنيسة، فقد انتقل المعبد إلى أنقرة ... إلى مقر أتاتورك؛ البابا الجديد و«شيخ الإسلام» الجديد.

فما هو ذلك الدين الجديد؟

إنه دين عبادة الدولة. فالدولة القومية هي الإله، وأتاتورك هو نبيّه، و«المقرّ

الرئاسي» هو المعبد الجديد!

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

٤٢٩- أنا أعذر كل الإسلاميين «المتطرفين» -التكفيريين والجهاديين- بجهلهم، لكنني لا أعذر المتحزبين وعبيد الدولة. والسبب غاية في البساطة. فإن المتأمل في أنساق «المتطرفين» الفكرية؛ سيرصد بسهولة حجم الجهد «العلمي» المبذول في سبيل حل الإشكاليات المعاصرة في العالم الإسلامي، كما سيستشعر إخلاصاً حقيقياً تنبض به سطورهم وحركتهم، ولو وصم ذلك الإخلاص «سذاجة» في مواضع كثيرة، وانتكست مجتمعاتهم بحلولهم الشاذة والقاصرة. ولا حاجة بنا للتأكيد على أنه «اجتهاد» خاطئ قد يؤجروا عليه بإذن الله، فهذه بدهية لا تغيب عن فطن. لكن ما نحن بحاجة للتأكيد عليه هو حقيقة ممارسة عملية الاجتهاد داخل هذا التيار، وغياها التام داخل التيار المتحزب من عبيد الدولة، والذي استسلم تماماً للممارسة السياسية في حضن الدولة منذ أوائل الثمانينيات.

وإذا كان «المتطرفون» قد «ضلوا» بتكفير الحكام والرعية في آن، فإن ضلالهم كان أكثر اتساقاً مع فطرته التي أدركت العناصر الكُفريّة في بنية الدولة الحديثة، وإن ظلت أدواتهم القاصرة عاجزة عن تحديدّها، فاتجهت سهامهم للمجتمع المستضعف، ولحكامه ... الكفار! في حين لم يتوقف المتحزبون وعبيد الدولة ولو لوهلة، برغم الإشارات الكثيرة التي تلقوها والتي لا مجال لبسطها؛ ليتساءلوا إن كان ثمت خلل فيما يفعلون و«شرك» فيما يعتقدون.

إن «ضلال» المخلص أحب إليّ من هدى مزعوم لا يتميز فيه الإسلام عن الكفر بشيء؛ اللهم إلا اللحن ... وحتى هذه قد سطا عليها أمثال «خالد يوسف»!

٤٣٠- يجب أن يضطلع أحد الباحثين الجادين في التاريخ بدراسة ظاهرة «القوَّاد» المعمم أبو الهدى الصيادي، راسبتين الدولة العلية والملقب زوراً بشيخ الإسلام؛ ودوره في سقوط الدولة العثمانية. فقد كان هذا المخلوق مُحترفاً في محاصرة المجاهدين والتنكيل بالمجددين تنكيلاً شنيعاً ... وما جمال الدين الأفغاني وعبدالله النديم وعبدالرحمن الكواكبي ... سوى أمثلة ... وقد عاش الرجل حتى هدم آخر حجر في الدولة!

تشعر كلما عثرت ببعض وساخاته؛ أن الرجل كان موكلاً بهدم كل محاولة لإنقاذ المسلمين وإقالة عثرتهم. فكل جهوده تصب بشكل حثيث في هذا الاتجاه. وتبدو نظرية المؤامرة ذات مقدرة تفسيرية عالية في هذه الحال ... فأنا لا أستبعد استخدام البريطانيين والروس للرجل، في وقت تغلغل فيه النفوذ الأجنبي والتنظيمات الماسونية في جسد «الرجل المريض» حتى نخروا عظامه.

وسواء كان الاستخدام بعلمه ورضاه أو بسبب جهله ودنائه ... فإن النتيجة واحدة؛ إجهاض كل محاولات الإحياء التي قادها هؤلاء في تلك الحقبة، لضمان عدم إطالة عمر «الرجل المريض».

٤٣١- أنا كافرٌ بالاستحالة ... وما دام الأمر قد خطر بقلبك، فهو قابلٌ للتحقق بإذن الله. قد تفتقد للشجاعة أو حتى للمقدرة؛ لكن هذا ليس دليلاً على عدم الإمكان.

٤٣٢- البعض لا يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، فحسب؛ بل يخشون تقوُّلهم، وهذا أحط دركات الجاهلية. ولو خشي الأنبياء وورثتهم الخلق؛ لأحجموا عن البلاغ بأعذارٍ شتى.

٤٣٣- أيسر ما في الإسلام الزواج ... والآن هو كابوسٌ حقيقيٌّ! ورغم ذلك لا زال بعض أهل الصفاقة وقلة الحياء والورع البارد «ينزعجون» من وصف «المجتمع الجاهلي»!!

إننا حتى لم نبلغ مرتبة المجتمعات الغربية الجاهلية، التي يُعتبر الزواج فيها أيسر من دخول المرحاض ... إن المجتمعات الجاهلية قمة سامقة لا نرقى إليها بحال!

٤٣٤- وحتى في الأنساق الطوباوية/ الشريكة، فإن البشر يُريدون الطوبيا (الفردوس الأرضي) ولا يُطبقون «هرمجدون» ونيرها؛ المعركة التي سُنهي كل المعارك، والعنف اللاإنساني الذي سيقضي على كل التواءات ويقضي على نزوع الإنسان للعنف!!

ويبدو أن الإنسان مسالم محبٌ للاستقرار (حزب كنبه!) «بطبعه»، بعكس اللغو الذي ذهب إليه فلاسفة السياسة الغربية ... فالذنبية تنحصر في قمة الهرم وأصحاب المصالح الكبار فحسب: فرعون وهامان وقارون وبلعم بن باعوراء... الملاء... أو هي مجرد تنظير لوهم يُبرر وساخات السياسة المدنية/ العلمانية ولا أخلاقيتها!

٤٣٥- من أكثر الرحلات المدرسية التي لا زالت عالقة بذاكرتي حتى الآن؛ رحلتنا إلى مصنعي «مصر للألبان» و «بسكو مصر» في حيّ الأميريّة بالقاهرة. كانوا يطوفون بنا المصانع ويستعرضونها، ويحدثوننا عن الاقتصاد «الوطني» وأهمية دعمه وتقويته؛ حتى تنهض صناعته على «غير مثالٍ سبق» ... في ذات الوقت، وبينما الإعلام يُطنطن عن الاقتصاد الوطني وكتاب عادل حسين الكلاسيكي «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية» محط الأنظار؛ كان النظام السياسي يذبح شركات توظيف الأموال ويسرق أموالها ويوزع لحمها على مُتسبيه، لحساب بعض البنوك الأجنبية ورجال الأعمال الأوثق ارتباطاً بالنظام وبأميركا ... في ذات الحقة وبينما كان جيلٌ كاملٌ من القوميين والعلمانيين يستكملون تحولهم إلى الإسلام، كان الإخوان «مُجاهدون» لدخول البرلمان!

وبعدها بسنواتٍ قلائل دخلت المسرح لأول مرة في حياتي لأشاهد مسرحية محمد صبحي «ماما أميركا» ... دخلته بعد أن انتهك براءتي كتاب جلال كشك اللاذع: «ثورة يوليو الأمريكية»؛ لأنتقل لطورٍ جديد. أشد إيلامًا.

٤٣٦- ... وصحبة الصالحين تورث البركة. وحُبُّهم في الله وتولّيهم طريق النُصرة. فاللهم ارزقنا معرفتهم، واملأ صدورنا حُبًّا لهم. اللهم لا تحرمنا دعاءهم بظهر الغيب، ومُنّ علينا بقبوله وإجابته. إنك سبحانه وتعالى ذلك والقادر عليه. وصلّ اللهم وسلّم على رحمتك المهداة ونعمتك المزجاة، سيدنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

٤٣٧- وأكره الملوك وحواشيهم وعبيدهم وأنظمتهم كراهة التحريم. ولو كان الأمر بيدي لطبقت عليهم حد الحراة ثم قليتهم جميعاً في زيت مغلي. من آل سلول إلى أمير «الكفار» المغربي.

٤٣٨- ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْفَرَارِ قَاتِلٍ فِيهِ قُلٌ قَاتِلٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظْلَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١).

نزلت هذه الآية الشريفة قبل ألف وربعمئة عام حين شكَّ ﷺ في القتال الذي اشتبك فيه صحبه الكرام في سرية شهر رجب، قبل بدر الكبرى بشهرين فحسب. نزل ليقول له: يا محمد، إن القتال فيه عظيم لكن صد المسلمين عن الإسلام والمسجد الحرام وإخراج أهل المسجد منه أكبر وأعظم وزراً عند الله، والفتنة (أي الارتداد للشرك) أكبر من القتل أي من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام.

فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكة: إذا عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام، فعيروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام.

أهدي هذه الآية إلى الإسلاميين الذين «تعفوا» عن الخروج لمواجهة من يعتدون على حرمة بيت الله، وتركوا الدماء يحصرون المصلين في مسجد القائد إبراهيم، وتحججوا بحقن الدماء كما تحجج الغرب الكافر بذلك لمنع السلاح عن البوسنة المستضعفة! فكل الدم معصوم إلا الدم المسلم الحر! ولو كان المحاصر مقر حزب من أحزابهم أو بيت من بيوت مشايخهم؛ لنفروا على قلب رجل واحد، لكنه بيت الله وبيوت الله لا بواكي لها في البيئات الجاهلية، ولو ادعت الإسلام.

(١) سورة البقرة؛ الآية ٢١٧.

لكن نحمد الله أنهم لم يخرجوا، فربما كانوا ممن دخل تحت قوله تعالى:
﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾^(١)، وربما كان قعودهم لحكمة يعلمها الله،
﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا
مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(٢).

٤٣٩- يقول سيدي العارف ابن عطاء الله السكندري: إن الحق ليس بمحجوب،
ولأنها المحجوب أنت عن النظر إليه ... إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبته، ولو كان
له ساتر لكان لوجوده حاصرًا، و كل حاصرٍ لشيء فهو له قاهرٌ، وهو القاهر فوق
عباده سبحانه.

٤٤٠- خوف بعض حشرات النخبة من «تهمة» التكفير، التي يعتبرونها مُعلقة
فوق رؤوسهم؛ لا يعني بالضرورة أنهم كُفَّار خطرون، وقد لا يعني أصلًا أنهم
كُفَّارٌ ... وإنما قطعًا يعني أنهم جُبناء جدًا جدًا ... وأن خوفهم من تهمّة التكفير =
خوفهم من حُرّيّة الاعتقاد، ولذا فهم عندي أكثر فاشيّة وقذارة من الإسلاميين بكل
مساوئهم. ولعل فسقهم الفاشي في أجهزة ومنابر الثقافة في مصر منذ الخمسينيات
دال.

٤٤١- ليس ثمة حاجة أكبر ولا أكثر أهمية في زماننا، وفي كل زمان؛ من دعوة
الناس إلى الإسلام. ولا أعني به دعوة الغربيين أو المسيحيين أو اليهود أو الهندوس،
بل المسلمين ... أو من يسمون أنفسهم بالمسلمين.

وإذا كان القرآن يأمر الصحابة رضوان الله عليهم وهم من هم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلٰى رَسُولِهِ ؕ﴾. مؤكدًا أن الإيمان ليس طوبيا نهائية
يخلد إليها المؤمن، وإنما هو صيرورة تاريخية مُتجددة بالعمل. فما بالك بمسلمي هذه
الأيام؛ الذين لا يعرفون ماذا تعني مركزية الوحي من قرآنٍ وسنةٍ؟!

(١) سورة التوبة؛ الآية ٤٧.

(٢) سورة التوبة؛ الآية ٤٦.

وما بالك بالذين لا يعرفون أن الإيمان يزيد وينقص بالعمل؟!
 ويحسبون أن تلاوة الشهادتين مرة في العمر تُغني أبداً؟
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ. وَالْكِتَابِ الَّذِي
 أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝﴾^(١).

٤٤٢ - الذين يهربون من ماضيهم وتاريخهم ويسعون لطمسه من ذاكرة الزمن
 لن يجدوا في مستقبلهم سوى الخواء والصغار والتفاهة، بل والفشل في طمس ذلك
 التاريخ الذي جعلتهم آراء الناس والإعلام يرونه عاراً. ولو كان عاراً حقاً، فإن
 العار الأكبر هو التنكر له كأنه لقيط، وليس ابناً شرعياً لسياق تاريخي وتعبيراً عن
 أزمة اجتماعية وسياسية... وعقدية.

إنه لا معنى لوجودنا الحالي إلا بأخطائنا وزلاتنا وسذاجاتنا الماضية والحاضرة
 والمستقبلية، فلولاها لما كنا أصلاً. ولولا ارتكاب الحماقات الكبرى لما تعلمنا. وكلما
 كانت زلاتنا كبيرة؛ كانت الحكمة المستقاة منها كبيرة في رجوعنا عنها بعد اقتناع.
 ولا أريد أن أضرب مثلاً ببعض الإسلاميين الذين نظّروا للعنف السياسي
 وكانوا في طليعته، وهم الآن يُنظّرون للانبطاح بعد ما ذاقوا الأمرين في المعتقلات،
 فهم مثال لا أحب الخوض في تفاصيله، على صدقه وعظم دلالاته. فما هي إلا فتنة
 نسأل الله أن ينجينا منها.

لكنني أحب أن أقول لهؤلاء وغيرهم، من أبناء الأجيال السابقة علينا ومن أبناء
 جيلي والأجيال اللاحقة: إن طمس تاريخك لن يجعلك محبوباً من الناس، ولا نجماً
 اجتماعياً متوافقاً مع الرأي العام السائد، ولا إسلامياً «معتدلاً» يُشار إليه بالبنان
 في المتدييات لأنه يُسمع «الجهامير» ما يحبون. بل سيجعلك قرداً لا شخصية له. إذ
 التاريخ لا يُمكن طمسه، وإنما هي الشخصية التي تنطمس، ليتحول الإنسان إلى كل
 براني مجوف، يستجيب لأدنى إشارة يُملئها عليه القائم بترشيد الواقع؛ من استعبده.

(١) سورة النساء؛ الآية ١٣٦.

لا تتنكّر لتاريخك وتحولاتك ما كانت عن اعتقادٍ حقيقيٍّ مخلص، فهي جزءٌ منك. وإن أصبحت ترى فيها ضلالاً أو بُعداً عن الحق، فاعلم أنها «أنجارك» الله منها بها، فلولاً وقوعك فيها، لما نجوت منها.

٤٤٣- كان الفرزدق صادقاً مخلصاً حين نصح لأبي عبد الله الحسين، الذي سأله عن حال أهل العراق الذين بايعوه: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك». كان أهل العراق، كأكثر بني آدم؛ يُجسّدون الضعف الإنساني الذي يُعجز صاحبه عن السمو على طينه، وذلك برغم طيب معدنه وطهارة أصله الربّاني. إنهم يجسّدون أحد الحقائق الإنسانيّة اللصيقة، والتي يطيب لنا نسيانها أو تناسيها حين تشرّب منا الأعناق لاستشراف الموكب الحسينيّ الفريد، الذي زان الأرض بوطئه.

لا شك عندي في حيّهم وإخلاصهم، لكنني لا أشك أيضاً في أن حيّهم للعراق ورغبتهم فيها كانا أكبر. ويبدو أن هذه المسألة ليست واضحة في ذهن الكثيرين. ليست أزمة المسلمين هي عدم معرفتهم بالإسلام وبالحق؛ بل بتصرّفهم وحركتهم على أساس أنه ليس هو الحق الأوحد الذي يجب أن يطوّع كل أحد وكل شيء لخدمته ونصرته. وليس العكس.

كان أهل العراق هم القاعدة البشريّة الطبيعيّة التي ورثت حياة آدم منذ الأزل، وكان الحسين وأهله وأنصاره المعدودين هم ورثة روح آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم. كانوا هم القادرين ليس على العودة إلى الأصل النوراني فحسب، بل والتثبت به إقامةً للحجّة على بني آدم.

إن وراثته هذا الروح النوراني إمكانيةً إنسانيّةً كامنةً أبداً في كل بني آدم. لكن من منا يقدر على تبعاتها؟!

«ومن يطيق ما تطيقن يا أمّ عمار؟» صلى الله عليكم آل بيت المصطفى. صلى الله عليكم وعلى من ربّاكم.

٤٤٤- الرومانتيكيّة ليست نسقاً قائماً بذاته؛ بل هي الحركة بين الأنساق الأيديولوجيّة/ الشركيّة سعياً لتجاوزها، بسبب اكتشاف عجزها المُفْضي لتحطّمها.

أي أنها محاولة ماديةٌ للتجاوز في إطار المادة. ورُبَّما لهذا السبب تباينت تجلياتها في تاريخ الأدب. فهي نوعٌ من أنواع الإيمان الميتافيزيقي بالمادة حيث تقلُّ فيه العناصر المادية الصلبة لحساب سهولة القدرة على الحركة بين الأنساق المادية؛ كدين. والحركة الأدبية التي تنبثق عن هذا التصوُّر أكثر إنسانيةً من الأدب الوقائعي المادي الغارق في السرديات الصغرى. وهي كذلك أعمق وعيًا بالتاريخ، وأكثر قدرةً على التجاوز، وإن كانت حبيسة المادة في نهاية الأمر.

والرومانتيكية مُرتبطة بالطوبيا ارتباطًا وثيقًا، فهي في جوهرها محاولة لفرض رؤية يُظنُّ بها التجاوز على الواقع قسرًا؛ رفضًا منها لذلك الواقع. ويُمكن قراءة أكثر الأنساق الفلسفية الغربية باعتبارها أنساقًا رومانتيكيةً احتجاجيةً علي واقع مُتعيَّن. إما لأنها تستشرف فشله، أو لأنها تفرض بديلًا جُزئيًّا لا يقوم إلا على «الأصل» المرفوض. فهي ليست أنساقًا قائمة بذاتها؛ بل هوامش على «أصل» مرفوض. هكذا يُمكننا فهم الماركسية باعتبارها احتجاجًا على الرأسمالية وخروجًا من عباءتها، وكذا الأناركية كاحتجاج على الديمقراطية العلمانية، والوجودية والعبث إلخ إلخ. وبين التطبيقات الرومانتيكية في الأدب/ الفكر والسياسة فروقٌ طفيفة. بل إن الأول قد يقود إلى الثاني. فإذا كانت الرومانتيكية في الأدب محاولةً لتجاوز الواقع بآلياته، فإنها في السياسة محاولة لفرض الآليات «الجديدة» على المجتمع كرهاً.

٤٤٥ - لماذا يُريد التفكيكيون نصوصًا سائلةً تحتاج لكهنوتٍ وتأويل غنوصي/ باطني «لفك» شفراتها؟ نصوص لا يُمكن تأويلها وفي نفس الوقت تحتل كلَّ وجهٍ؟! هل هي محاولةٌ غير واعية لإضفاء قداسة على نصوصٍ بشرية بعد إسقاط النصِّ المؤسس المقدَّس؟! هل هي محاولةٌ غير واعية لخلق نصوصٍ مركزيّة جديدة؟! محاولةٌ يؤدّي اصطدامها بالرفض الواعي للمركز وقداسته لتفكيك النص وذوبانه؟!

٤٤٦ - الفراغات والمسافات في النسق التوحيدي المنفتح تُمثل الكامن العلماني/ الشكلي في الإنسان، ومحاولة ملئها في الأنساق المعرفية الحلولية الطوباوية هو في

جوهره نقلٌ للشرك/ العلمانيّة الكامنة من حاشية الاحتمال لبؤرة التحقق جَوَانِيًا؛ وهو ما يمثل الأيديولوجيا = التبشير بالطوبيا ونهاية التاريخ.

٤٤٧- ورث فلاسفة المسلمين منهجيّة المعرفة النظرية من الإغريق بعد أن تشوّهت رؤيتهم الكونية ذات المصدر المتجاوز. وورث فرانسيس بيكون المنهج التجريبي من المسلمين، لا ليطرّد به التكلُّس النظري للفلسفة من مجال البحث في العلوم الطبيعية فحسب، بل ليتخذ طريقاً ومنهجاً لاستقاء المعارف الكلّية وتشكيل الرؤية الكونية، ليتنقل الفكر الغربي على يديه من السفسطة إلى الإمبريقية/ التجريب الحسي. وبعد أن كان مصدر المعارف الكلّية نظرياً، مُثَلّاً في الديالكتيك المادّي، فإنه انحدر إلى درك التجربة وسجن الحواس. من عبادة الواقع الافتراضي المتوهم إلى عبادة الحواس.

٤٤٨- قلت لها: إن وجودك يملؤني وجداً، وصحبتنا في هذي الدنيا لا تكفيني لقصرها. فأعيني على نفسي بنفسك حتى نجتمع في ظل العرش، فإن صُحبةً أبديةً فقط قد تُشبع بعض حنيني الأزلي بعد فناء الحاضر.

٤٤٩- كثيرٌ من الآباء يجب «حرمانهم» من أبنائهم، فهم يكبّلون قدرات أبنائهم ويلزمونهم بأفق طموحٍ تافه، فلا يجد هؤلاء الشباب الأغرار إلا بيع أنفسهم لأول مُشترٍ يُنقذهم من سجن الأسرة؛ فتقبل الفتاة الزواج بأي بغل، ويلهث الفتى خلف منحةٍ مشبوهةٍ أو وظيفةٍ سخيّةٍ للفكاك من الأسر! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤٥٠- وإنِ ملّت، فلا تهوى لثلا تهوي، ولا تتعلق بالطين لثلا تسقط معه في هاوية الشرك. وإنّا تعلّق بالنفخة، لتحملك لأصلها سبحانه.

٤٥١- رائحة الخبز الطازج، والملابس المغسولة، والطعام الذي نضج لتوّه، والوجود المغتسل بالمطر، وتعرّق الأطفال حديثي الولادة، والكتب الجديدة، والبحر تغسله شمس الشروق ... إنها رائحة البدايات الجديدة التي تتجاوز الحواس لتحمل البُشرى ... رائحة الأمل!

٤٥٢- كان المصريون يستخدمون التقويم «القبطي» لأنه تقويم الزراعة ومواسمها المناخية. فهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة والمناخ الذي جُبلوا عليه في وادي النيل، ولا زال بعض الفلاحين (وكبار السن) يتعاملون به لدقته في أمور الزراعة وتحديد الفصول المناخية. وحين دخل أكثر المصريين في الإسلام؛ دخل عليهم التقويم الهجري القمري، وذلك لارتباطه بصومهم وأعيادهم وحجهم وأشهرهم الحُرُم. فالتقويم وثيق الصلة بعبادتهم وحياتهم التي اختاروها.

لكن التقويم الغريغوري، أو الميلادي كما يُسمَّى زوراً؛ هو تقويمٌ دخيلٌ كلياً ودوره الوحيد هو إبقاء الدولة «المستقلة» الجديدة تابعة حتى في تحديد مواسمها. وذلك كما أمست مزرعة قطن تابعة للإمبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس. هذا التقويم المقحم على سياقٍ مُختلفٍ كلياً في كُلِّ شيء، ولا يمثل لهذا السياق أية أهمية اجتماعية أو دينية أو اقتصادية حقيقية، ليس أداةً للهيمنة الناعمة فحسب؛ بل هو أداةٌ لمسح الهوية وتشويهها، وأتحدى أن يعرف مصريٌ مُتعلِّمٌ في أي شهر «قبطي» نحن بله أن يُقدر على إحصاء الشهور الهجرية بشكلٍ صحيح، في حين يُمكن لغالبيتهم الساقطة معرفة اليوم والشهر الغريغوري ومواعيد «عيد الحب» و«الهالوين» و«الكريسماس» الغربي!

فإذا كان هذا التقويم هو أحد الخلافات التاريخية بين الكنيستين الشرقية والغربية، فضلاً عن تشويشه على المسلمين وعيهم وإدراكهم، وصولاً لانفصاله التام عن بيئتنا واحتياجاتنا، فلمصلحة من الإبقاء عليه؟!

إلغاء العمل بالتقويم الغريغوري/الميلادي أحد الخطوات الرئيسة لتقويض الدول القومية الحديثة.

٤٥٣- «لبس البوصة تبقى عروسة»، «لبس الخشبة تبقى عجة»، «لبس الخنفسة تبقى ست النساء»؛ ميراثٌ عريق في الثقافة الشعبية المصرية تتجلى عبقريته في السخرية من التمرکز حول الجمال البرّاني. وهو لا ينقد النموذج فحسب؛ بل يُعريه تماماً ويفضح زيفه المتأصل!

٤٥٤- أكثر الآباء غافلاً عن أطفاله بدعوى انشغاله بالكدح ليوفر لهم «عيشة كريمة» ... واعتبار المعيشة المادية الناعمة أهم أولويات الوالدين وأولى حقوق أطفالهم هو خللٌ شنيعٌ في تصوّر هؤلاء الآباء، ليس للأبوة والأمومة فحسب، بل هو انتكاسٌ في فطرتهم وتصورهم للإنسان جملةً.

عزيزي الأب/ عزيزي الأم؛ أطفالكم ليسوا حميراً تنحصر كل احتياجاتها في العلف الجيد والبراذع الأنيقة والزرائب الفسيحة. أطفالكم بشرٌ آدميين مُكلّفين أخلاقياً، وهذا هو العنصر الأهم في تكوينهم على الإطلاق. ومن ثم فإنهم يحتاجون لقدوةً حسنةً وتنشئةً صالحةً، وتوفرها مع الكفاف خيرٌ من انعدامها أو قتلها مع الترف المُفسد.

عزيزي الأب/ عزيزي الأم؛ إن كنت عشت كالحمار/ الأتان في بيت أهلك، فإن ذلك لا يسوغ لك تكرار هذه المأساة مع أطفالك. وإن كنت لم تجد من يُعرّفك على الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه، فابحث عمّن يساعدك لتعرّف عليه؛ عسى الله أن يُصلح بك أهلك وأسرتك.

٤٥٥- أحد أهمّ الدراسات ذات الطبيعة الفلسفية، والتي يجب أن يضطلع بها بعض دارسي الأدب الإنكليزي الناهيين؛ هي المقارنة البنيوية (على مستويات الخطاب والرؤية الكونية وأفق السرد والمنظومة القيمية وطريقة تطوّر الحكبة) بين قصص الحُبّ الكلاسيكية في «روميو وجولييت» لشكسبير و«جين إير» لشارلوت برونتي من ناحية، والسردية ما بعد الحداثيّة في سلسلة «الشفق» (بالإنكليزية تواليايت Twilight) للكاتبة الأميركية ستفاني ماير من ناحية أخرى. فما بين الوقوع في حُبّ إنسانٍ مُركّبٍ (قد ينطوي على ميولٍ ذبّيةٍ) إلى حُبّ مصّاص دماء/ ذئب «حقيقي»؛ أزعّم أن الدراسة ستكشف طبيعة ومسار التحوّل الأعماق والأهم في الرؤية الغربية للإله والإنسان في حقبة المابعديات: وهي حقبة موت الإنسان (والإله) ... حقبة ما بعد الإنسان!

٤٥٦- أتمنى أن يعقد البعض يوماً موازنةً بين دائتي في «الكوميديا الإلهية» وملتون في «الفردوس المفقود» وجوته في «فاوست»؛ ليكشف أثرهم في تشكيل لغات الغرب الحديثة كما نعرفها، ودور ذلك في بلورة الهويات القومية ونشوء الدول القومية الحديثة.

٤٥٧- قرأت سيرة محمد أسد ثماني مرّات تقريباً، نصفها على الأقل في لغته الإنكليزية. وبرغم أني أحفظ أحداث رحلته المبهرة عن ظهر قلب، إلا أن مشاهد انسلاخه من ماضيه الأوروبي وصورة قلبه يتشقق كاشفاً عن فطرة الله هي مشاهد لا أتوقف عن البكاء كلما مررت بها. إنها تتجسد جديدةً في كل مرة. أتمنى الحديث عن محمد أسد كما عرفته يوماً. رحمه الله وأجزل له المثوبة.

٤٥٨- إذا أردت بلوغ اليقين الراسخ، فيجب عليك البدء بشكّ ضخم يؤرّق وجودك. لكنك لن تصل لأي شيء بغير الفطرة، وستظلّ سجين شكوكك المؤرقة. نعم؛ ثمّة مفارقة في الأمر. فسوف لن تعثر على يقينك إلا في متاهة الشكّ. وأنا أفرّق بين اليقين المكتسب والفطرة؛ فإن كان الأوّل هو إسلام الوجه إرادياً بالكامل لربّ العالمين، فإن الأخير هو ميثاق الفطرة الذي ذكر في القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(١).

٤٥٩- أنا مُدرب تواصل بشري (تسمية جديدة لـ«علوم» الإدارة التي تستند على «علم» النفس السلوكي)، ومهمتي تدريب الشباب الموهوم لصناعة جيل كامل من القادة ليقودوا أي شيء (شركات رأسمالية في الغالب)؛ جيل من العُمد بغير فلاحين... كل الناس سيُصبّحون عُمدًا، فلا أحد يُريد أن يكون فلاحًا، وحبذا لو كان للقائد لحيّة طويلة أيضًا.

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢.

أنا مهندس إقناع (تسمية جديدة للبرمجة اللغوية العصبية NLP)، ومهمّتي إقناع كل الناس «بمشروع النهضة» والتغيير «الحضاري» ... يجب أن يحضن بعضنا بعضًا كل صباح. لن نتغير ما دُمنا لا نعرف قيمة الاحتضان كأساس للتغيير «الحضاري»... والتغيير «الحضاري» يعني تغيير الوجوه وإعادة إنتاج نفس الأنظمة القديمة. يُمكنني إقناعك، فأنا مهندسٌ. سأقنعك وأعيد تخطيط دماغك أيضًا ... أنا أيضًا مستشار تأثير وتفاوض (لزوم «التليس» و«التحسيس» كما يقول العامة في مصر)، فنحن لن نستطيع إعادة إنتاج الأنظمة القديمة بدون التفاوض مع من يُسيطرون عليها للتنازل عن بعض امتيازاتهم للشباب الذين ضيّعت عمري في تدريبهم. إن شق التأثير يكمل وظيفة الإقناع بطبيعة الحال. ما عليك إلا إغماض عينيك وسأقوم أنا بما يلزم، وما سأقوم به سيؤثر فيك بعمق بعد أن يتحرك في أحشائك.

باختصار يا إخواني ... أنا دَجَّالٌ!

لكنني دَجَّالٌ مشهورٌ تتدلى لحيّتي على صدري، ولي برنامج تلفزيوني يُشاهده الآلاف ممن يُصدقونني ... لست أعمق أثرًا من المسيح الدجال، وإن كنت أهدف ذات الجمهور!

هل أذنبت باستغلال غباء الناس وحبهم للوهم ورغبتهم فيمن يُسمعهم ما يُحبون؟

أنا كقارئ الكف النابه، لكنني قارئ كفٍّ من نوعٍ جديد ... نوع «علمي» مُقنن و«مطابق» للشريعة الإسلامية!!

٤٦٠ - كل عبارة بشرية مُيلٌ، ذلك أنها تحوي قدرًا من الحق ولا يتجسد فيها الحق. أما العبارة الإلهية فهي الحق المطلق. وإذا لم يكن لنا بد من إنتاج الكلام البشري، فليكن رائدنا نصيحة العارف بالله النفري؛ أن من عرف الحق لم تمل نفسه مع ميل عبارته، ولزم حده في اليقين بنقصه. صلوا على المعصوم بعصمة الله له.

٤٦١- تصاب بالزكام إن انزلق الغطاء عن جسدك وتعريت في ليلة باردة، فما بال من لم يذق الدفء في ذات الليلة؟ ولم لم يُصَبْ بمثل ما أصبت به؟! ذلك أن الله لا يجمع على عبد ابتلاءين. فإما دفء الليلة أو العافية تُعينه على احتمال بردها. ثم لتُسالن يومئذ عن النعيم!

٤٦٢- ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ﴾^(١)، ونسبة الملة لأينا إبراهيم -صلى الله عليه وعلى أحمد- الذي سَمَّانا «المسلمين» حسبها يُقرر القرآن لا تحمل سوى دلالة واحدة: أنه بلغ من اكتمال التصور وإخلاص الوجه لله مثلاً يُحتذى ويُستشرف كماله وتُطلبُ درجته إلى نهاية التاريخ البشري. فهذا الجامع لصفات الأمة كما وصفه خليله ﷺ ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً فَأَيُّ آلِهَةٍ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)، ليس مجرد مؤمن ولا مجرد نبي مؤمن؛ بل هو النبي المؤمن ﷺ. وهو في ذلك أب للمؤمنين كما هو أب للأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم. صلى الله على دعوة أبي إبراهيم وأشرف ولد آدم. صلى الله على محمد.

٤٦٣- من المفاهيم الملتبسة والمشوَّهة في عقول المسلمين مفهوم «عمارة الأرض». فإنما تتحقق العمارة بمجرد الحركة على مقتضى المنهج الإلهي. وليست العمارة -كما اختزلها البعض- هي اتخاذ العنائر الشاهقة والمصانع الضخمة التي يُشوَّه وجودها ومتجاعاتها الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وبعبارة أخرى، فإن العمارة -بالمفهوم القرآني- لا تتحقق بحجم ولا بمستوى تطور الأشياء التي يتخذها البشر لتيسير حركتهم في الوجود، بل بمجرد الحركة ذاتها وفق مراد الله. فالحركة ذاتها هي العمارة التي قصد إليها القرآن. إنها تعني عدم اعتبار «تحسين» ظروف المعيشة على الأرض هدفاً؛ بما أن الإنسان مجرد عابر سبيل وليس ساكناً أبدياً. وإن كان ذلك لا يمنع من اتخاذ الأشياء والآلات، لكنه يهمل هذه المسألة باعتبارها وسيلة من الوسائل وليست غاية وجودية.

(١) سورة البقرة؛ الآية ١٣٠.

(٢) سورة النحل؛ الآية ١٢٠.

وهذا المفهوم تبع لمفهوم الإيمان. فالإيمان عندنا ليس فردوساً أرضياً نهائياً نصل إليه ونستقر فيه، بل هو حال الساعي لإدراكه، ووجدان السالك إلى ربّه ﷻ. فإذا كان الإيمان يزيد وينقص، فإن العمارة بما أنها حركة؛ تزيد وتنقص أيضاً. وإذا كان الإيمان يزيد وينقص بالعمل، فإن العمارة تزيد وتنقص بالحركة ذاتها؛ أي بمحاولة (أو محاولات) إخراج العمل من فضاء النية (القلب) إلى واقع التحقق المادي.

ويثور هنا تساؤل؛ إذا كانت الحركة/ العمارة هي محاولة إخراج العمل من دائرة النية إلى دائرة التحقق المادي، فهل يتعلق الجزء الإلهي بوقوع العمل أم بمجرد النية؟ وبعبارة أخرى؛ هل النتيجة/ اتخاذ الأشياء/ وقوع العمل هو مناط التكليف، أم أن السعي ذاته هو مناط التكليف الإلهي؟
إجابة هذا التساؤل تحمل في طياتها تعريف مفهوم «عمارة الأرض».

٤٦٤ - وقد سألتها ذات غرور: ألسْتُ هو؟

قالت: بل أنت مظهر الرحمة وتجلي اللطف.

فسكت هنيهةً كأنني غرتُ!

فبادرتني: قد علّمتني ألاّ أتعلقّ بالسبب ولو طويت فيه الرحمت، فإنما أرجو السبب بمقدار ما يحملني للمُسبّب. فكن كما أنت ولا تُحمّل النفخة العلوية ما لا تُطيق.
كُن كما أراك؛ ستار للطف ولُطف تحمله نفخته العلوية.
هَلُم خذ بيدي لنعرّج على أجنحة العشق الحق.

٤٦٥ - لطم الجابرة من ذوي السلطان بالحق لذةً لا يعرفها إلا أصحاب القلوب المعلقة برب العزة ﷻ؛ لذة اللياذ بحمى الواحد القهار وحده .. كمال التوحيد. ويروى عن العز بن عبد السلام أنه وصف شعوره في موقف كهذا، فقال: «استحضرت عظمة الله فكان السلطان أمامي كالقط!»
اللهم أحبي قلوبنا بدوام معيتك وثبت أقدامنا باللياذ بعزتك.

٤٦٦- الخوف فكرة ... تغلب عليها بفكرة أقوى وأجل!

٤٦٧- من الخواطر التي تلح عليّ منذ فترة بخصوص فلسطين؛ أن جزءاً رئيسياً من مأساتها يكمن في كمّ التصوّرات الصهيونيّة (التي تنتمي للسياق العلماني الغربي) التي استبطنها الفلسطينيون، وأعادوا إنتاجها في سياقهم. فأكثر التصوّرات بل والمبادرات الرسمية و«الأهلية» الفلسطينية الآن هي مجرد مقلوب للتصوّرات والمبادرات بل والمسلك الصهيونيّ. مجرد مقلوب صادر عن ذات النسق العلماني. ولعلّ أخطر تلك التصوّرات قاطبةً هي أسطورة الشعب العضوي (الفولك Volk) الفلسطيني!

٤٦٨- بكي صَاحِبي لما رأى الدَّرْبَ دُونَهُ وأيقنَ أنا لاحقَانِ بقبصــــرا.
فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نحاولُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا.
(امرؤ القيس)

٤٦٩- وجودنا نقصٌ فينا، وليس ثمة كمالٌ في هذا الوجود سوى في حُسن إدراكنا لهذا النقص ... وصدق الإمام الصادق حين قال: من طلب ما لم يُخلَقْ؛ تعب ولم يُرزق. قيل: وما ذاك يا إمام؟ قال: الراحة في الدنيا.

٤٧٠- حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ ^(١) سَمَاءُ الْمُعْصُومِ ﷺ وَهَنَاءُ؛ لأنه يوهنُ الدينَ والنفسَ، فتفرُّ من كبد التكليف طمعاً بلذتها الآنية. لكنها مهما فرّت فلن تلقى إلا ما كُلِّفت به. والفارق الوحيد أنها ستلقاه مُدْبِرَةً، ولاكون أكثر دقّة فإنه سيلاحقها، فإذا لحق بها لقيت الله على الخزي. نعوذ بالله من الوهن ومن الخزي.

(١) عن ثوبان قال؛ قال رسول الله ﷺ «يوشك الأمم أن تداعي عليكم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ، قال ﷺ: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ: «حب الدنيا وكره الموت». رواه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده والبيهقي في دلائل النبوة.

٤٧١- والزمن في تقلُّبه عجيبٌ. فكان عجلته صُنعت خصيصًا لئلا تدور إلا بدماء خيرة الخلق. لكننا إذا نظرنا للأمر من زاوية الإيمان باليوم الآخر اكتشفنا أن ذلك ليس لهوائهم على الله ... وإنما هو ثمن الاجتباء والاصطفاء.
وإن في دوران العجلة بهذه الدماء الزكية إقامَةً للحجة على الغافلين وتذكيرًا لهم بميثاق الفطرة، وتعجيلًا بلقاء المحبين بمحبتهم الأوحد؛ الذي شهدت حتى دماؤهم المهرقة بوحدانيته ﷻ.

٤٧٢- وإن من انتكاس الفطرة وانطماس البصيرة أن تُقلَّب وجهك في الوجود، فلا تُبصر سوى المخلوق.
إن من ﷻ وعليه وبه؛ هو من لا يرى إلا وجه الله ﷻ أينما تولى. فاللهم لا تحجبنا عنك طرفة عين؛ فنضلَّ ونشقى.

٤٧٣- الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه. الحمد لله على كل قضائه وجميع قدره. الحمد لله الذي ما ابتلى إلا سبقت رحمته بلاءه. اللهم إني أحمدك حمد الرضا بحكمك لليقين بحكمتك. وأسألك أن تبسط لساني بشكر النعمة منك، وكفى بالرضا بك من نعمة تُعبِّدني بها.

٤٧٤- وحيدٌ من الخلالِ في كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قل المساعدُ

(المتنبي)

٤٧٥- غاية العقل معرفة الله ﷻ وما ينبغي له، لتمجيده. ومنتهى الفهم ألا نرضى الدنيَّة في ديننا.

٤٧٦- الغربةُ قدر الإنسان الأزليَّ داخل التاريخ ... وغربة المكان تلتئم بالوقت؛ حين نألفه. لكن غربة الروح لا تلتئم إلا بالموت؛ بالعودة إلى حيث جئنا!
وإذا كانت غربة المكان تُقرِّبنا أكثر من حقيقة الغربة الروحية التي قد تغفل عنها يومًا، فذلك لأن غربة المكان في أولها تشحذ الروح الوحيدة، فتكشف لها من نفسها ما حجب عنها المكان المألوف.

٤٧٧- الصبر نصف الإيمان ... والغربة كُلُّ الإيمان!

٤٧٨- من استظل بعظمة الله انكسرت في قلبه هيبة الخلق.

٤٧٩- ... وسير الخلق وتراجهم وأخبارهم أعظم فائدة وأعمق أثرا من عُصارات الأذهان الباردة. فسيرةُ امرئٍ قد حملت كل ما قد يحتمل إنسان عصره من الأفكار وجسّدته حيّا. لذا، فالحرارة التي يُشيعها قلبُ امرئٍ في لحظة صدقٍ هي عندي أقوم وأعظم من آلاف المجلدات التي قد يخطّها ... فالحياةُ أسمى من الفكر. ربّما لهذا السبب، ولهذا السبب بالذات؛ فإن الإسلام لا يتجسّد في نظريّة أو متنٍ كتبه من كتبه، بل في أشخاص. وصلى الله على من كان خُلقه القرآن.

٤٨٠- في زمان المراهقة (العمرية والفكرية) كنت أولي أعظم الاهتمام لما يقوله القائلون ويذهب إليه المُتَمَذِّهون، أما اليوم فلم يُعدّ يعنيني سوى الإخلاص الذي أشتّم رائحته عن بُعد. لا يُهم من قال ماذا، بل الأهم عندي على إطلاقه هو كيف قال ما قاله ولم قاله ... صار القلب يبحث عن قلوبٍ مُخلصَةٍ تؤنس وحشته في دار المعبر.

اللهم آنس وحشتنا بمعيتك، واكتب لنا صُحبة المُخْلِصين (بفتح اللام وكسرها).

٤٨١- إذا كانت مشكلة الأمة الكبرى هي تدهور التعليم وفساده، فإنها لن تُحلّ بالحديث عن «إصلاح التعليم». بل بأن يشرع البعض في تعليم الناس ما يتعين عليهم تعلّمه، وبالطريقة «الصحيحة»!

٤٨٢- «مَنْ اسْتَقْلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ»^(١)؛

من دُرر ربيب رسول الله ﷺ وصهره؛ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ١٠١/١١/٢١٠.

٤٨٣- الإنكليز كأمة ليس من يُنكر أنها من أرقى الأمم؛ تعرف معاني العدل وتعمل بها، ولكن في بلادها ومع الإنكليز أنفسهم، فتُصِفُ المظلوم إذا كان من الإنكليز. تعلم أن للإنسان حقاً في الحياة؛ لكن هذا الإنسان في عرفهم هو الإنكليزي وغيره من البشر ليس بإنسانٍ ... ! (جمال الدين الحسيني الأفغاني)

٤٨٤- والحق لقاء الحق، والوهم في كل حجابٍ ...

٤٨٥- والنفس حجابٌ؛ بل شرُّ حجابٍ ... ألم تر إلى قوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ (١)؟!

٤٨٦- الوليُّ ليس من يتولَّى الله فحسب، وليس من لا يُبصر سواه حيثما تولَّى؛ بل هو من لا يولِّي وجهه عنه ﷻ ...

٤٨٧- إذا أردت أن ترى الشيطان مُجَسِّدًا، فخوف سلطاننا على مُلكه، وأدخل في روعه ضياعه ... لكن قبل أن تفعل ذلك تذكر جيّدًا أنك لن تستطيع صرف شيطان الإنس ذلك إلا بعون الله؛ فقل: أعوذ بالله من السلطان!

٤٨٨- إذا تأملنا مصطلح «الحركة الإسلامية»، من حيث الاستعمال؛ وجدناه مُصطلحًا حديثًا. أما إذا تأملنا مضمونه وجدناه مرتبطًا بيزوغ الدعوة الإسلامية. وإذا أردنا تعريف الحركة الإسلامية تعريفًا مُبسَّطًا؛ قلنا إنها التيار الاجتماعي الذي يحمل الدعوة الإسلامية، لإقامة هذا الدين. فالدعوة هي رسالة الحركة، والحركة هي تجسُّد الدعوة الاجتماعي (داخل الزمان والمكان). والمحرك هو الدعوة، والمتحرك هو المجتمع/ الحركة الذي يحمل الدعوة. فإذا تأملنا تاريخ الدعوة الإسلامية وجدنا ما يلي:

تمثلت الدعوة أول الأمر في المصطفى ﷺ وحده. فكان هو الداعية الأول، وهو الدعوة التي تتحرك في الواقع الاجتماعي، والمحرك له هو الوحي الإلهي. ثم لما

(١) سورة الجاثية؛ الآية ٢٣.

آمن به وبدعوته من آمن، وكثر عدد من بايعوا على إقامة الدين حتى أصبحوا تيارًا اجتماعيًا مُغيّرًا للمجتمع الجاهلي؛ أمكن حينئذٍ تسميتهم «حركة». وبهذا يمكن أن يُورخ لميلاد «الحركة الإسلامية» الأولى بميلاد الدعوة. لقد كانت الحركة الإسلامية هنا هي المجتمع المسلم كله في مواجهة المجتمع الجاهلي كله. وفي وقعة «صفين»؛ انشقت الأمة/ الحركة/ المجتمع سياسيًا ثم مذهبياً، حتى غدت كل فئة تدعي أنها الحركة، وحاملة الدعوة، فظهر مفهومَان لـ«الحركة الإسلامية»:

الأول: المجتمع المسلم كله مقابل المجتمع الجاهلي.
والثاني: تيار اجتماعي داخل المجتمع المسلم يعتبر نفسه ممثلاً وحيداً للمنهج الصحيح والفهم الصحيح^(١).
وتعليقي هو: وقد ترسخ المفهوم الثاني بتزايد الانقسامات السياسية والمذهبية، برغم أن المنهج «الصحيح» والفهم «الصحيح» لا يمكن قطعاً أن يوجد إلا في الأمة بأكملها مجتمعة؛ وليس في تيارٍ أو طائفةٍ واحدةٍ منها. وربما كان الوعي الكامن بهذه المسلمة العقدية وراء انفتاح أبواب التكفير والتبذيع والتفسيق لإخراج المخالفين من دائرة الأمة/ المجتمع المسلم.

٤٨٩- ... وأن أعراض المسلمين كُلها كعرضي ... آه يا عرضي المتتهك!

٤٩٠- «الملوك حكامٌ على الناس، والعلماء حُكَّامٌ على الملوك» ... هذا هو الناموس الذي كان انهياره مؤذناً بانحدار الملك الجبري إلى حضيض الطواغيت. فلو وجد الملك عالماً ربّانياً يأمره بالمعروف وينهاه على المنكر، لما أمسى طاغوتاً. إن أقصى ما يمكن أن نحلم به هو الملك الجبري، فإن الرُّشد في خلافة الله في عباده لا يتحقق إلا بأمة سوادها «علماء»؛ إن اعوج الحاكم قوموه بأسيا فهم.

(١) يتصرّف سير عن مقال بعنوان: الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية: توفيق الطيب، العدد الافتتاحي لمجلة المسلم المعاصر، والصادر عام ١٩٧٤م. وبرغم مخالفتي للأستاذ في بعض ما ذهب إليه؛ إلا أن ما اقتبسته أعلاه يستحق التأمل والدراسة.

٤٩١- مخافة الله ... كل الحكمة!

٤٩٢- صحيح أن الولايات المتحدة كانت تدعم الإخوان المسلمين والسلفيين بسبب شعبيتهم في الشارع، لكنها بذات الوقت لا تُريد تيارًا جارف الشعبية قد يظن بنفسه حرية الإرادة، لئلا يتكرر خطأها القديم مع عبد الناصر. وهذا يتجلى بوضوح في فشل أي اندماج سياسي حقيقي للتيارين؛ ناهيك عن التأصيل لتنافر المصالح! أيضًا تدعم أميركا جيوبًا من العلمانيين والجهاديين بذات الوقت، مع تصعيد لرموز علمية من متصوفي الأشاعرة، وبعض المثقفين العلمانيين «الجزئيين»؛ حتى تحقق التوازن ليس على المستوى السياسي فحسب، بل على مستوى الطرح الأيديولوجي «الإسلامي».

إن الإسلام الأمريكي الذي تجري بلورته على الساحة لن يكون خطيئة الإخوان فحسب؛ بل سيجري توظيف كل التيارات لخدمته، من أقصى اليمين الجهادي إلى أقصى اليسار الأناركي.

وصعود هذا الإسلام الأمريكي من خلال تشظي الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي هو مجرد اطراد للنسق المادي للدولة الحديثة؛ اطراد يُراعي تغير الزمان والمكان. وعلى من يريدون الخروج من سجن المفعول به إلى فضاء الفعل؛ كسر النسق المادي واستبدال أرضية الاجتماع السياسي الإلحادية.

لن يكون ذلك بـ«نظرية» سياسية جديدة؛ لكن يتمثل حقيقة التوحيد والحركة بها في الفضاء الاجتماعي والثقافي (الدعوي) لتعيد هذه الحركة الإنسانية تشكيل أرضية الاجتماع السياسي (القيم والعلاقات والروابط الاجتماعية التي لها تجليات سياسية) على أسس «توحيدية»، وليس لتكون «الأرضية التوحيدية»... والفارق كبير. ساعتها، وساعتها فقط؛ ستجهض المحاولة الأميركية، وسيكون النظام السياسي الذي تتمخض عنه الحركة «إسلاميًا» وليس هو «النظام الإسلامي» بعينه... أي سيكون اجتهادًا بشريًا في إطار إسلامي، ليس له مطلقة ولا قداسة؛ اجتهاد يُثاب فيه المخطئ والمصيب بإذن الله.

أما محاولة البحث عن حلٍّ من خلال الحركة الأفقية التوافقية على السطح
الأملس للدولة الحديثة واجتماعها الإلحادي، فلا يُمكن بلوغ الإسلام من خلاله،
ولا حتى بعضه (بما أن الإسلام يتبعُض أصلاً). فلا أعرف سُلماً إلحادياً قد يقود إلى
الإسلام!!

٤٩٣- الوجل لا يؤخر الأجل ...

٤٩٤- مما يزهدني في أرضٍ أندلسٍ أساء معتمصم فيها ومعتمضٍ
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهراً يحكي انتفاخاً صولة الأسد
(ابن رشيق القيرواني)

٤٩٥- لا زالت أفغانستان والقاعدة وطالبان كتاباً مغلقاً برغم كل اللغو الذي
يقينه المرتزقة. تماماً كما هو حال الحركات الإسلامية المصرية (خصوصاً المسلحة) في
عقدي السبعينيات والثمانينيات.

لا زال الكتاب مُغلقاً وتاريخ تلك الحقبة الخطيرة لم يكتب بعد؛ ذلك أن الفاعلين
الرئيسيين إما قُتلوا أو دُجنوا ودُبحوا في شبكات مصالح جديدة، أو أنهمكتهم الحياة
فأثروا قضاء شيخوختهم يتعبّدون في هدوء.

٤٩٦- والحركة، كأحد لوازم التوحيد، حركتان. حركتك على الأرض كحركة
الكوكب حول محوره لتتعاقب عليه أحوال الرزق، وحركتك صعوداً وهبوطاً
على طريق العروج إلى ربك كحركة الكوكب في مدارٍ ثابتٍ تتعاقب فيه فصول
الروح وتقلبات القلب. فإذا توقفت إحدى الحركتين كان ذلك سكوناً، ولو دامت
الأخرى. وكل سكونٍ فسادٌ. فتوقّف العروج تجمّد على اعتقاد نهائي/ أيديولوجيا،
وتوقف الحركة على الأرض انسحاب رهبة. واحذر كل الحذر من كل حركةٍ على
الأرض تزيد عن حاجتك في العروج، فإنها فتنةٌ.

٤٩٧- بعض مظاهر الشرك (الحلول) التي يعتقد فيها أكثر المسلمين؛ بل
ويعتبرونها قُربى لله:

أولاً: كتابٌ واحد (من تأليف بشر) قد يكون جامعاً مانعاً يُحيط الإحاطة التامة بموضوع ما، ويكون فيه القول الفصل والحكم النهائي، ومنتهى الحكمة وذروتها في أية قضية.

ثانياً: عالم/ مفكر/ شيخ (من سوى الأنبياء) يكون في شخصه وعلمه وخلقه نهاية الأرب لكل مريد/ طالب/ متلقٍ. فيقتصر عليه دون سواه، لأنه هو وحده الناطق بالحق/ المحيط بالشرع/ المتضلع بعلم الأولين والآخرين. ومجدد القرون الأولى وقرون الآخرين.

ثالثاً: علمٌ يقيني لا يُدخاله شكٌ بفرقة/ طائفة/ جماعة واحدة مُتفردة بأعيانها وشخصها (الذين لم يُجددهم وحيٌ إلهي)؛ لتكون هي «الفرقة الناجية» والأمة الهادية والجماعة الإيمانية «الوحيدة».

إنه إذا كان اليقين لازماً في المنظومة التوحيدية بقدر، وإذا كان الافتقاد إليه يؤدي إلى العبيثية. فإن الإفراط في اليقين كما في الأمثلة السابقة يؤدي إلى:

أولاً: تحوُّل الحياة الدنيا إلى فردوسٍ أرضي/ طوبيا يُغني عن اليوم الآخر أو يجعله «مضموناً» في حس المؤمن. ومن ثمَّ لا يحتاج للكبد.

ثانياً: يُمسي العالم/ المفكر/ الداعية مُخلِّصاً مشيحانياً لا ضلال بعده.

ثالثاً: يتحوَّل الكتاب/ الفكرة/ المذهب إلى لاهوت مُقدَّس لا يمكن نقده ولا نقضه، ومن آمن به شعبٌ عضويٌّ مختارٌ تحلُّ فيه الرحمات، وتحل على غيره اللعنات.

لكن الأخطر من ذلك كله هو تحوُّل الإله في ذلك التصوُّر (وبشكلٍ غير واعٍ) إلى إله قومي/ طائفي/ عرقي.

٤٩٨- يقول القطب الصوفي ابن عطاء الله السكندري: إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهمة العلية.

وتعليقي: أن الاستقامة دليل الإقامة؛ أي أن استقامة أمرك علي ما أُقيمت فيه دليل التوفيق، وما إرادتك سوى شهوة للمخالفة أو انحطاط في المهمة... إنه ليس تكييلاً للإرادة الإنسانية، وإنما حُسن توظيف لها.

٤٩٩- نشقى في سبيل المعرفة، ونكابذ في سبيل الإدراك، لنسلك طريق الذائقين عروجاً إلى رب العالمين.

وللطريق لذّة تحجب ما عداها، وليس بين السالك الحق وبين تلك اللذة التي وصفها أهل الله وخاصّته إلا أن يحجب العبد نفسه عن الأعراض والسوى؛ فتُحجب هي عنه بلذّة السلوك إلى المحبوب. فلولا نصاعة فطرة نبي الله يوسف التي تابّت على الانحراف وقاومته، لما استخلصه ربّه ابتداءً واصطفاه نبياً. فهي منه وإليه ﷺ.

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١)

٥٠٠- ومصر واسطة العقد، وحجر الزاوية، ومنبر المسجد الجامع، ومعقد اللواء، ومنارة العلم، ودار الندوة، وطلیعة الأمة، وكنانة الله.

إن هذه الرؤية لا تصدر عن أي نوع من الشوفينية أو تعبر عن أي دنس من أرجاس القومية الجاهليّة. فهي ليست خيرية موروثة وغير مشروطة كما تُخبرنا عبرة التاريخ الممتدة... إنما خيرية مقيدة بكل ما سبق:

توسّطها بين إخوة الدين وبُعدها عن الانحياز لمسلم على مسلم؛ إلا لتأخذ الحق له. حجر الزاوية الذي لا يقوم البناء إلا به، فله مواصفات لا تدرك إلا بشق الأنفس. منبر المسجد الجامع، فهي صوت الدعوة التي تجمع أمة وحّدتها وحدة الوجهة. معقد اللواء؛ ففيها ينعقد اللواء على الجهاد في سبيله سبحانه.

منارة العلم؛ فأهلها أحفظ للعلم وأوعى بإذن الله.

دار الندوة؛ فهي دار الشورى وموئل أهل الحل والعقد.

طلیعة الأمة؛ وهي مكانة لا تنال إلا بتقوى أهل العلم ورجاحة أهل الحل والعقد.

(١) سورة آل عمران: الآية ٨.

وكنانة الله بتحقيق كل ما سبق بعون الله لأهلها في كدهم وجهادهم.
ربما لهذا ترقبها بإكبار أنظار إخوة الدين واللسان ...
وربما لهذا تتعلق بها آمال إخوة الدين واللسان ...
إنها مسئولية جسيمة لا يعيها أكثر أهل مصر ...
فاللهم اجعلها أهلاً لما أنيط بها ... يَسَّرْ وأعِن ... إنك على كل شيء قدير. آمين.

٥٠١- الله يؤتينا رشدًا عند صادمه لأنفس الخلق كم جاءت بهادمة.
(البيضاوى)

٥٠٢- كان هشام بن عبد الملك يحج ولا يستطيع الوصول إلى الحجر الأسود،
فلا أحد يُفسح له وهو الملك المتوج. وإذا بالناس يُفسحون للإمام السجّاد وهو
يتقدّم حيًّا في إخبارات إلى البيت. فما كان من هشام إلا أن تساءل مُستخفًا، على عادة
الطواغيت؛ عمن يكونه ذلك الذي يُفسح له الناس بكل أريحية، وهم ما جاءوا إلا
ليتسابقوا بلوغ البيت!!

كان التساؤل سافلاً غرضه الإهانة، على عادة الملوك في الانتقاص ممن يشعرون
بأنه خيرٌ منهم. وكان ينتظر من حاشيته الانتقاص من شأن ذلك الحيي الوحيد الذي
لا حاشية له ولا أتباع يُصفقون لثرهاته.
فأخرج الله الفرزدق من بين حاشية هشام ليردّ عليه بقصيدته المشهورة،
ومطلعها:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْجَلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ، إِنْ كُنْتُ جَاهِلُهُ بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خَتِمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مِنْ أَنْكَرَتْ وَالْعَجَمُ

٥٠٣- ورُبَّما شفع للفرزدق -بعد أن أفنى عمره في الإفحاش لجرير- حُبّه
وإخلاصه للسادة من آل بيت رسول الله ﷺ.

فمن لقائه بأبي عبد الله الحسين وهو في طريقه إلى العراق ونصحه له مخلصاً إلى مدحه لسيدي الإمام زين العابدين بحضرة هشام بن عبد الملك، وتعرّضه لغضب الملك الأموي.

إن الفرزدق، كالكثيرين من بني آدم؛ يُثبت أن الإنسان قد يتبنّى نموذجين متناقضين: صلاتي خلف عليّ أقوم، وطعامي عند معاوية أدسم! إنه يمدح الأمويين للارتزاق، لكنه يمدح الإمام السجّاد حبّاً وولاءً. وحين يغضب عليه هشام وينكل به ويحرمه العطايا، فإنه يرفض هدية الإمام زين العابدين بإباء، لأنه لم يمدحه طلباً لماله، بل حبّاً وولاء للرسول وآل بيته الكرام، صلى الله عليهم وسلم.

وكما يثبت الفرزدق أن الإنسان قد ينحدر لدرك النفاق والكذب طلباً للرزق، فإنه يُثبت أيضاً أن ذات الكائن العجيب المسمى إنساناً قادراً على السمو فوق طينه في أحيان كثيرة. لا شيء؛ إلا وفاءً لله ورسوله. ولو كان الثمن حرمانه من ذات الرزق الذي ارتكب في سبيله المعصية! إن الإنسان قادراً على التوبة، وعلى التكفير عن ذنبه... في أكثر الأحيان.

رحم الله الفرزدق، وغفر له وتجاوز عنه، وجعلنا ممن يقتدي به في العودة إلى الحق.

٥٠٤- وددت لو تحررت مني...!

٥٠٥- يرى الماديّون العالم محايداً تجاه الأفعال التشريعية والاتجاهات العملية للبشر. أي أن السنن الكونية لا تتحيّز لأنصار الحق أو لأنصار الباطل، لأن مفاهيم الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والعدل والجور؛ لها في المنظار الكوني حسابٌ واحدٌ.

لكن المدرسة الربّانيّة لا تنظر إلى العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أهل الحق والباطل. فالعالم، عند هذه المدرسة، مناصرٌ لسالكي طريق الحق والعدل، لأهل الصراط المستقيم، وذوي الأهداف الربّانيّة السامية. (المدد الغيبي في حياة البشرية: مرتضى مطهري)

وتعليقي على ذلك: ثمة فارقٌ شفيفٌ بين الاعتقاد في مناصرة الكون لسالكى طريق الحق والعدل بما هو انصياعٌ للإرادة الإلهية وانضباطٌ على مقتضى الوحي، وبين تطويع الإله لخدمة الأهواء البشرية وتوظيف الكون توظيفاً إمبريالياً بدعوى مناصرته للحق والعدل!

إن الانحدار من الأولى للثانية يتم في خفاء، ومداره العُجب. العُجب بالطاعة، وبتسخير الكون للإنسان حتى يُسانده في سلوك طريقه. هذا العُجب الذي أخرج إبليس من رحمة الله هو ذاته الذي يُخرج الإنسان - لا شعورياً في الغالب - من رحابة العبودية للواحد الأحد إلى ضيق التأله البشري، ومن فردوس التوحيد إلى جحيم الأيديولوجيا. نسأل الله العافية.

٥٠٦- روى لنا أحد أساتذتنا الأجلاء أنه كان بصحبة المفكر المغربي الدكتور «طه عبد الرحمن» - متعه الله بالصحة والعافية - في أحد المؤتمرات. وإذا بهما يلتقيان «محمد أركون» وجهاً لوجه وهما خارجان. وبغض النظر عن الحوار الذي دار بينهما، فقد أبدى «أركون» عدم معرفته بـ «طه عبد الرحمن»، وسأله بغير اكتراث: ألسنت الدكتور «طه عبد الرحمن»؟

فأجاب الرجل: بلى!

فسأله أركون: ألا زلت مُعلّقاً بالسما؟

فرد عليه طه عافاه الله: أما زلت أنت مُلتصقاً بالأرض؟!

جهلتان قصيرتان تبادلها مفكران ينتميان لعالمين مختلفين كلياً؛ لكن كل جملةٍ منهما تطوي عالماً بأكمله. سبحان الله.

٥٠٧- مما حيرني ولا زال يُحيرني؛ تحذيل الإمام الصادق عليه السلام الناس من الخروج مع عمه الإمام زيد عليه السلام رغم عرفانه بقدره. إذ لم أفكر مُطلقاً من قبل أن التنظير لقبول إمارة المتغلب قد يكون فيه أدنى وجاهة! فالخروج كان - في رأيي - مصدراً من مصادر تجديد الفكر السياسي الإسلامي، ولو على المدى الطويل.

وفي حوارٍ دار بيني وبين صديقٍ أكاديمي؛ قال إن ما يحدث في مصر بعد «الثورة» جعله يرى حكمةً ووجهةً في آراء مُنظري إمارة التغلب! فكأنني كنت أنتظر عبارته لأفتح في باب عقلي فرجةً بعد أن كنت قد أطبقته عامداً على رقاب «فقهائ السلطان»! إن سؤال الحرية في هذا السياق يُسمي سؤالاً مؤرقاً؛ بما أنها ليست طوبيا (فردوس أرضي) تتحقق كلياً داخل التاريخ، وبالنظر للسياق التاريخي المركب لواقع ما يُسمى بـ«الربيع العربي»، وما تمخض عنه؛ يثور السؤال التالي: هل نالت هذه الشعوب فعلاً قدرًا من الحرية كانت تفتقده في ظل الطواغيت المخلوعين؟! وهل الثمن الذي دفعته وتدفعه يستحق ما حصلت وستحصل عليه؟ وإذا كانت هذه الأنظمة أصلاً قد اهترأت منذ زمنٍ ويمكن تفكيكها اجتماعياً من الداخل؛ فمن هو المستفيد الأكبر من «الربيع العربي»؟!

ويستتبع هذا السؤال سؤال آخر؛ في ظل هذه الأعداد الهائلة من الشهداء، ألم تكن رؤية التنظيمات الجهادية -برغم اختلاف العميق معهم- في اغتيال رموز كل نظام أيسر وأكثر جدوى وأقل كلفة؛ بما أن «الربيع العربي» في المحصلة النهائية ليس سوى عملية سياسية باهظة التكاليف الإنسانية؟!

وأخيراً هل يُسمي ثمن صعود الإسلاميين المنبطحين للحكم أفدح بما لا يُقاس من ثمن صعود الراديكاليين؟ وهل هذا الثمن مقصودٌ للحفاظ على هؤلاء المنبطحين في سدة الحكم؟؟؟^(١)

٥٠٨- في كل جاهليةٍ شيءٌ من الإسلام قد اندرست معالمه. فالإسلام هو الأصل والفطرة. لكن المهزومين يُضخّمون هذه البقايا المطموسة، ليصنعوا من انتكاس الفطرة مثلاً أعلى...

٥٠٩- ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكل نعيمٍ لا محالة زائلٌ!

(لبيد بن ربيعة)

(١) كتبها قبل الانتخابات الرئاسية التي فاز بها محمد مرسي.

٥١٠- عَرَضْتُ عَلَى نَفْسِي الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ فِي مَفْتَرِقِ الطَّرِيقِ، فَاخْتَرْتُ الْعِلْمَ
كأَيِّ غَرٍّ... أُرِيدُ تَحْصِيلَ كُلِّ الْعِلْمِ الْمُمْكِنِ وَغَيْرِ الْمُمْكِنِ!
فَنَظَرْتُ إِلَى نَفْسِي بِاسْتِهْزَاءٍ، وَالتَزَمْتُ الصَّمْتَ حَتَّى اكْتَمَلَ تَحْصِيلُ الشُّبْرِ الْأَوَّلِ
الَّذِي وَصَفَهُ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ثُمَّ أَعَادَتِ سَوَالِي؛ فِإِذَا أَنَا لَا زِلْتُ غَرًّا قَدْ مَلَاقِي
الْغُرُورَ...

فغادرتني وعادت إليّ في تيه الشبر الثالث وقالت: هَلُم. قد اكتفينا، فقد حان الموعد.
فتعجبت من فعلها، وسألتها: أَتُكْرِهِنِي؟! قالت: لا؛ بل أعيذك لما اختاره الله لك.
قلت: وما هو؟ قالت: أَنْ تَلْطِمَ النَّاسَ وَيَلْطُمُوكَ. أَنْ تَكُونَ أَمْثُولَةً؛ لَا أَنْ تَقِيءَ لَهُمُ
الْأَمْثَالَ مِمَّا حَفَظَهُ صَدْرُكَ!

فحدّقت مذهولاً، فبادرتني: الْعِلْمُ يُتَقَنُّ كُلَّ حَافِظٍ، لَكِنَّا مَكْلُومٌ، وَمِثْلُكَ خُلِقَ
لِيَكُونَ صَارِخًا فِي الْبَرِيَّةِ؛ لَا مُعَلِّمًا نِظَامِيًّا... إِنْ طَرِيقَ الْعِلْمِ شَاقٌّ لَكِنَهَا جُعْبَةُ الْعَقْلِ
تَمْتَلِئُ وَلَا تَهْتَرِئُ... أَمَّا طَرِيقُ الْحِكْمَةِ، فَهُوَ الْحِمَاةُ... أَنْ تَمْتَلِئَ رُوحَكَ لَتَهْتَرِئَ!
مِثْلُكَ خُلِقَ لِيَتَعَلَّمَ النَّاسُ مِنْ صِرَاحِهِ وَعَوِيلِهِ؛ لَا مِنْ دَرَسِهِ وَتَأْوِيلِهِ... وَلِلَّهِ فِي خَلْقِهِ
شُؤْنٌ!

وَلَا زِلْنَا فِي نِزَاعٍ إِلَى الْآنَ... وَإِنْ كَانَ مَا اخْتَارْتَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ، فَبِهِ أَعْرِجُ إِلَيْهِ!

٥١١-... فِي رِحْلَتِي الطَّوِيلَةِ التَّقِيْتُ أَنَا سَا مَخْلَصِينَ؛ قَابَلْتُهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَفَقَدْتُهُمْ
مَعَ الزَّمَنِ... أَحْبَبْتُهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا مَرَارَةُ الذِّكْرِ وَلُوعَتُهَا. مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ،
وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ الْأَحْدَاثُ. لَكِنَّا نَرْضَى بِمَا يَمْرُبُنَا، فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ
قَرَارٍ. (أَحْمَدُ رَائِفٌ مُسْتَنْطَقًا السَّيِّدَ جَمَالَ الدِّينِ الْأَفْغَانِي)

٥١٢- إِنْ اللَّهَ تَعَبَّدَ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِفَعْلِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلَمْ يَتَعَبَّدْهَا بِمَحَاوِلَاتِ صَحَابَتِهِ
الَّذِينَ يُحْطِنُونَ وَيَصِيبُونَ كَالْبَشَرِ. وَيَعْرِفُ مِنْ لَهُ أَقْلُ إِطْلَاعٍ عَلَى عِلْمِ أَصُولِ الْفَقْهِ
أَنْ حَاجِيَّةَ فَعْلِ الصَّحَابِيِّ وَقَوْلُهُ مَوْضِعَ خِلَافٍ عِنْدَ الْأَصُولِيِّينَ. بَلْ إِنْ مَنْ يَقْبَلُونَ
بِهِ يَجْعَلُونَهُ فِي مَرْتَبَةِ ثَانَوِيَّةٍ وَتَابِعًا لِلسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي سِيَاقِ الدَّرْسِ الْأَصُولِيِّ، وَالْعَمَلِيَّةِ
الاجْتِهَادِيَّةِ الشَّرِيعِيَّةِ.

إن صحابة محمد ﷺ نماذج للدراسة. فهم يألمون كما تألمون، ويطمعون ويشتهون وتغلب بعضهم الأثرة وحب السلطة والإخلاق للدنيا. لكن الفارق الوحيد بيننا وبينهم؛ أنهم بشرف صُحبتهم يرجون من الله ما لا ترجون. فلا تحملوهم ما لا يطيقون، فإنه خسرانٌ في الدنيا والآخرة.

٥١٣- إذا نقل البعض عن سيد قطب نقدًا لبعض الصحابة رضوان الله عليهم (وهو ضرب لازب في بعض الأحيان خصوصًا مع تفشي الإرجاء وعبادة التاريخ عند الغالبية) مع التزام الأدب؛ انبرى البعض بأنه كلام «قبل» تحوله ل«الاتجاه الإسلامي»، وأشاروا إلى أن الكلام لا وجود له في المعالم أو الظلال! فإن كان النقل من المعالم في مسألة الجاهلية (وهي جزء لا يتجزأ من الوجود الإنساني للمؤمن؛ جزء كامن) قالوا: هذا كتب في ظروف معينة وهو تطرّفٌ ... إلخ إلخ!

﴿ قُلْ أُولُوْا حُجَّتْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاؤُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١)

٥١٤- أجد امتناع الفلاسفة الشفاهيين الفُرس (وبعض كبار الصوفية) عن التدوين جديرًا بالنظر. فهو يُعبّر عن روح التوحيد. فكم كبّل التدوين من نصوصٍ وكم أجهض من أفكارٍ ورؤى. بل وكم حجب من البشر عن الوحي!

إنما الخير كل الخير في حركة المجتهد برؤيته؛ حتى إذا تتابعت الأجيال اضطرت للاجتهاد بسبب اندراس المذاهب وانطماس معالمها بموت المقلدين وانعدام المدونات، فلا يبقى إلا الوحي تعود إليه.

إنها حالة نظريّة لا يُمكن فرضها على الإنسانية ... لكنه حُلْمٌ محبّب إلى نفسي.

٥١٥- وعجائز القرى أقوم تصوّرًا وأنقى عقيدةً -في الغالب الأعم- من المعممين المحترفين ونباعة الدين وحملة شهادات الماجستير والدكتوراه في العقيدة. والفارق بينهم كالفارق بين أساتذة اللاهوت المسيحي وبين حواربي المسيح ﷺ!

أحدهما دين الفطرة؛ والثاني تدنٍ الصنعة!

(١) سورة الزخرف؛ الآية ٢٤.

٥١٦- هل نحن أمة «اقرأ»؟!!

كلا ... نحن أمة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١).

هذا الارتباط والتلازم يقتضي منا التفرقة بين الثقافة والحضارة على منهج بيغوفيتش.

فإذا كان تدوين الفقه والعلوم أحد أركان صناعة الحضارة المادية البرانية؛ بما أنها أصلاً تستلزم تراكمًا علميًا، فإن هذا التدوين ذاته يؤثر سلبًا على ثقافة المجتمع؛ فهو يحصره في المجال المادي البراني بمرور الوقت، ويستلزم ظهور مجددٍ كل مائة عامٍ لكسر النسق.

إن هذه المدونات لا تصنع الإنسان، ولا تساهم في صنعه، وإن كانت تساهم في ضبط واقعه البراني. إن الثقافة وحدها هي التي تصنع الإنسان، لأنها تنمي الفضاء الجواني وترقيه. لذا فإن الفنون والآداب تحمل محل الدين في المنظومات الحلولية. لأنها تمارس نفس الدور في بناء الذات الإنسانية.

ولأن الدين والثقافة معنيهما واحد؛ وهو شوق الإنسان إلى عالم مجهول جاء منه. شوق الفرع إلى أصله. فإن الوحي الإلهي هو «المنهج» الذي ارتضاه الله ﷻ لتشكيل الإنسان وبناء شخصيته. صحيح أن المنظومات الوثنية والحلولية التي ارتكست في حمأة الشرك تحمل الثقافة محله؛ لكنها مع ذلك تظل أقرب لطبيعته من طبيعة المدونات العلمية والفقهية البرانية. بما أنها تُعنى أصلاً ببناء جُوانيه.

والوحي ذاته قد يتحول لثقافة مجرّدة لا أثر لها في الوجود الإنساني. وهذا من الشرك الذي يرتكس فيه ذراري المسلمين. لكنه يظل شركًا أكثر إنسانية من تمرّكه حول المتون البشرية التي تنشغل بضبط الواقع البراني.

أمرٌ أخيرٌ في غاية الخطورة؛ وهو ربط الوحي والثقافة والعلم الشفاهي بالأمية، وربط التدوين والحضارة بـ«التقدّم». وهي معايير الحدّثة الغربية الملحّدة، والتي بدأت ترتد في حقبة «الما بعديات» إلى الشفاهة والثقافة وإن ظلت بعيدة عن الوحي.

(١) الآية الأولى من سورة العلق.

إن الله تعبَّد الخلق بالوحي، ولم يتعبَّدهم بتدوين شرواحهم عليه. صحيحٌ أن الأخيرة قد تُنفَّذ في بناء الحضارة؛ لكن من قال إن بناء الحضارة هدفُ المسلم؟؟! إنه وسيلةٌ قد يلجأ إليها وقد لا يفعل، فإن الله استخرج هذه الأمة للبلاغ، ولم يستخرجها لتتخذ مصانع شاهقةً بظن الخلود. فإن اتخذت المصانع لتحقيق هدف البلاغ، فلا جناح عليها. لكن الوحي الذي أكد أننا لن نستطيع العدل بين النساء ولو حرصنا؛ ربط اتخاذ المصانع بتوهم الخلود، والله أعلم بعباده منهم بأنفسهم!

٥١٧- في المرحلة الثانوية؛ عملت في مطعم كانت تمتلكه عائلتي بالجيزة. هي من الخبرات الممتعة والمهمة في حياتي، وكل خبرات الإنسان مهمة لتكوينه. لكن هذه الخبرة بالذات ربطتني بوقت السَّحَر والفجر باعتباره وقت الإنجاز الشخصي بالنسبة لي. فقد كان أجمل أوقات اليوم هي الساعة التي تسبق الفجر؛ حيث يكون الفول قد نضج خلال الليل، وتدور رحي طحن الفلافل وقت التواشيح كأنها تُسبَّح مع نصر الدين طوبار!

صحيحٌ أني كنت أستدبر وقت الفجر بما أني أعمل في الليل، إلا أن جهوزية الطعام للزبائن مع الأذان؛ كانت بالنسبة لي إثارةً يوميًّا محببًا. إذ بعد الصلاة يتوافد الناس لشراء الإفطار؛ الذي يجب أن يكون مُعدًّا للبيع. فنخرج من المسجد هرولةً حتى نصل قبل الناس.

علمتني هذه الخبرة أيضًا أن الحياة دوراتٌ وأدوارٌ يُكمل فيها بعضنا البعض، وأن الإنسان لا يجب أن ينشغل سوى بدوره. فإذا كان دوري آنذاك ينتهي بإعداد الإفطار للناس، فإن ذات الطعام هو بداية يومهم، ودورهم. غفر الله لأبوي ورحمهما أحياءً وأمواتاً ورضي عنهما. فأكثر تجاربي المبكرة لهم فيها الفضل الأكبر، ولو بشكلٍ غير مباشر.

٥١٨- من أبغض الأشياء إلى امرأةٍ عالية الصوت، كالنسوة اللاتي يستعِنَّ بالصراخ لإرهاب أطفالهن ظنًّا بأن ذلك «تربيةٌ»، والحقيقة أن هاتيك النسوة لم يحصلن على أي قسطٍ من التربية، ناهيك عن أن يضطلعن بتربية جيلٍ جديد. وعلى

السيدة جارتنا الكف عن الصراخ والعيول، وإلا ألقيتها من النافذة هي وزوجها البليد!

٥١٩- من نكد الدنيا على الموحد تحوّل «الإقبال الجماهيري» إلى قيمةً علياً؛ برغم أن القرآن يُحذّر نبيه من طاعة أكثر أهل الأرض، لأن ذلك هو الضلال عينه! وقد ينحدر الأمر ببعض ذراري المسلمين للترويج للسفه المحض طمعاً بـ«الإقبال الجماهيري». وهذا يتجلى في إعلان صحيفة عربية على الفيسبوك عن «نضال» ممثلة أميركية لـ«الحفاظ على صدرها في مكانه»... وشر البلية ما يُضحك!

٥٢٠- كنت في معرض الكتاب ذات يوم ضيفاً على صديق ناشر لبناني. فجاءنا شابٌ خفيف اللحية يسأل: هل أجد لديكم كتباً للمستشرقين فيها من شبهاتهم عن الإسلام؟

فأجبت: هناك الكثير جدّاً، وهذا سؤالٌ عامٌ. فهلا حددت اسم المستشرق أو موضوع «الشبهة» التي تبحث عنها؟

فقال: لا أعرف أسماءً لهذا أو ذاك... لكنني مُتخصّصٌ في الرد على «الشبهات»! فلما رأى التعجّب في أعيننا انصرف مُسرّعاً...

وهذا الشاب الساذج الذي «تخصّص» في الرد على «شبهات» المستشرقين التي لا يعرفها، مثله مثل الأحمق الذي طالت لحيته عن قبضته و«تخصّص» في الرد على «الرافضة» وهو لا يعرف عنهم إلا آراء شيوخه!

كلاهما نموذجٌ لهيمنة الأيديولوجيا المقرّزة على طوائفٍ عريضة، يظن حاملها أن ما لقن من «حُجج» مسبقة هو الإسلام. فهو يحتاج على ما لا يعرف بما لا يفهم مما لقّنه من لوازم مذهبه...

إن الذين يدّعون عدم اشتغالهم بالكلام هم أخطأ أنواع المتكلمين؛ الذين يجهلون كل شيءٍ عمن يُريدون رد «شبهاته» حاشاً ما لقنوه من سخافات مذهبهم. فهم لا يعرفون شيئاً لا عن الواقع الذي أفرز «الشبهات» ولا عن الواقع الذي تجاوزها. ولو ناظروا مُراهقاً جاداً محبّاً للعلم يدرّس في أحد أقسام الدراسات الإسلامية بالغرب،

أو آخر لا زال يشق طريقه في أي حوزة، أو حتى في الأزهر المسكين؛ للفقير درساً لا يُنسى!

رحم الله أبا حامد، فلو رآهم لكتب عن إجماع «حشرات» العوام ...

٥٢١- حين قال ذو النورين عليه السلام: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، لم يكن يتخيل أن يأتي على أمة محمد زمان يكون فيه وازع السلطان هو الوازع العملي الحقيقي والوحيد، بعد أن اختفى القرآن أو كاد، إلا من التغني به بغير تدبير!

٥٢٢- كان علي شريعتي يوصف في إيران بأنه «وهابي»؛ ولا زال أكثر كتبه ممنوعاً من النشر حالياً في بلده! وحين ذهب للحج قبل الثورة الإيرانية بعامين تقريباً؛ أخضعه آل سعود لرقابة مشددة لأنه «رافضي» مهيّج للجماهير!

تذكرت ذلك حين بلغني من أحد شيوخ الأجلاء أن «الإخوان» يُصنّفونني باعتباري «شيعي»! جدير بالذكر أن المخابرات الإيرانية حذرت بعض أصدقائي الإيرانيين، مؤخراً؛ من الاتصال بي لأني «إخواني» متعصبٌ ووهابيٌّ معادٍ للشيعية!! وبرغم انزعاجي أول الأمر من التصنيف الذي كنت أتوقعه في الحاليتين، إلا أنني ضحكت ملء شدي بعدها. ذلك أن المنظومات الحلولية وأيديولوجياتها لا تستطيع إدراك الآخر إلا من خلال ثنائية صلبة تدججه في الوعي. فمن ليس معنا هو علينا، كما كان يقول جورج بوش الابن لعنهما الله.

إن هذا التناقض في الرؤية والتصنيف يعني أن الفقير إلى ربّه قد أمسى أكثر تركيبةً من كلا المعسكرين المهزولين، بجمع خيرهما ونبد شرهما؛ حتى أن كلاهما لا يرى فيه إلا جانباً واحداً هو نقيض ما يراه الآخر. وهذا من فضل الله الذي يتعین عليّ شكره، ورجاء دوامه. وإن كان لا بُدَّ من الاستشهاد ببيت شعر هاهنا؛ فليكن بيت أبي الطيب المتنبي طيب الله ثراه وغفر له:

إذا أتتكَ مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بآتي كامل!

وسبحان من له الكمال وحده.

٥٢٣- حسب العقيدة الكاثوليكية، فإن البابا يُوحى إليه؛ فارتباط الكنيسة بالإله الذي حل فيها يكون من خلال البابا «المعصوم» الذي لا ينقطع الوحي عنه. ويبدو أن انتخاب البابا من كرادلة مساوين له في الدرجة يجعل «استقالته» من تلقي الوحي أمراً مُستساعاً - نظرياً - وعلى المستوى الإجرائي.

لكن السؤال العقدي ذي الطبيعة الميتافيزيقية، وبغض النظر عن قبول ذلك الإله بأن يُفرض عليه نبيّه بالانتخاب؛ هو كيف يستقيل هذا «النبي» من وظيفته المقدسة التي يُفترض أنه ظل طوال عمره يُعدّها؟! هذا شذوذٌ لا مجال له في النسق ...

ويبدو أن مُعدّلات علمنة العقيدة الكاثوليكية قد بلغت حدّاً جعل البابا يتصرّف باعتباره موظفاً منتخباً (رفيع الدرجة) يُمكنه الاستقالة متى رغب في ذلك، فالإله/ رئيس العمل المعطل بالحلول لا يُمكنه الاعتراض على تقاعد رسوله! ولا يتبقى إلا أن يُعدّل له مرءوسيه حفل وداعٍ يليق به؛ كأى رئيسٍ لشركة «عابرة للقارات» تحترم نفسها!!

وفي هذه المناسبة اللطيفة؛ أتمنى أن يُقنع بعض عقلاء الإخوان المدعو عصام العريان، بالاستقالة على غرار البابا. فإن كان الشذوذ ممكناً في الكنيسة الكاثوليكية، قمة الأنساق الحلولية، ويسري على رأسها. فقد أمسى ضرورةً في كنيسة الإخوان والعريان ليس برأسٍ ولا حتى ذيلٍ! ارحمونا من هذا الهزل ... فعدد الذين يُلحدون بسبب العريان أو شك أن يفوق من أُلحدوا بسبب تأله البابا!!

٥٢٤- اللهم جتّبنا الغضب للنفس، وعافنا من الرغبة في الانتصار لها ولو بالباطل. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه.

٥٢٥- من عرف شهيداً عن قُربٍ؛ يعرف أنهم يُصنعون على عين الله. ولعل النقطة الفاصلة والنقلة البعيدة في حياة كل شهيد هي سقوط الدنيا في عينيه وهوانها عليه. ليمسي قلباً قد استخلصه الله لنفسه وصفاه لحبّه.

٥٢٦- المرض الذي تُعانيه السلفية المعاصرة هو ذاته الذي تعانيه كل الفرق الأخرى، في كل زمانٍ ومكانٍ. اعتبار افتراقها افتراقًا للإسلام عما عداها، وأن الحق هو ما تظنُّه فحسب، وأنها هي عينها الإسلام مُجسَّدًا. هذا التصور الحزبي المغلق هو مآل كل الأنساق المعرفية الإنسانية، حتى لو استمدت بادئ أمرها من الوحي فحسب!

٥٢٧- يجب أن نُديم ذكر الشهداء ونُكثِّر الحديث بمناقبهم، ونروي حكاياتنا معهم ونعلمها لأطفالنا ... إن حُبهم قُرْبى لله؛ قُرْبى يتشكل بها الوعي ويُبنى الضمير، وتجد القيم العليا مُتنفسها على الأرض في رجال قد تمثلوها وماتوا في سبيلها. إن كل شهيد من هذه الأمة زادُّ للوعي التاريخي، وجزءٌ حميمٌ غالٍ من مسيرتها للعروج إلى الله.

إن الناس لن يدركوا قيمة الجهاد من كتب الفقه، وإنما من سير المجاهدين وأخبار الشهداء ...

٥٢٨- وَجِدَ في المجتمع النبوي ذاته كل أنواع البشر: القاعدون والمخلفون والمنافقون والضعفاء ومَن في قلوبهم مرضٌ ... فلا يمكن أن يُوجَد مجتمعٌ بشريٌّ على درجةٍ واحدةٍ من الاستنفار والجسارة والصلابة؛ لذا فقد عرفنا صناديد الإسلام الأفذاذ بالأسم، ولم نعرف مُجتمعًا من الصناديد، وإنما عرفنا مُجتمعًا مُنتجًا للصناديد... وشتان!

إن المجاهدين دائمًا طليعةٌ اجتماعيةٌ ذات صفاتٍ نفسيةٍ تؤهلها لذلك، والشهداء هم صفوتهم التي اختارها الله خيارًا من خيار ... ولا وجود لحالة متوهمةٍ يكون فيها المجتمع المجاهد مُكوّنًا من شهداء ومجاهدين أبديين فحسب!

كذا تذكُر الناس للشهداء، وحُبهم للمجاهدين وغبطتهم إياهم، ورغبتهم فيما نالوا من الشرف، كل ذلك بطبعه قصيرٌ في النفس مؤقتٌ في التأجيج؛ فالإخلاق إلى الأرض ألد وأيسر الآن وهنا في مقابل الغيب «المجهول»، ولهذا كان التكليف.

لكن الومضات القصيرة التي يعود فيها الإنسان لأصله، ويسمو فوق طينه، ويغتسل كُلياً في الغيب المخبوء بصحبة من تواروا خلف ستاره من المؤمنين؛ هي ومضاتٌ جديرةٌ بالاحتفاء والاستثمار والتكثير تمهيداً لما هو أسمى. أما تبديدها على قِصرها في التباكي على ضياعها المحتوم، وعلى إخلاد الناس إلى الأرض حين لا يكونون كذلك؛ فهو عين الحماقة وقصر نظر قرين البُعد عن حقيقة التوحيد.

إن قلائل هم من يستطيعون نسيان الدنيا وهم مغمورون فيها، وأقل من هؤلاء من ينبذونها وهي بين أيديهم طمعاً بما أراهم الله من الشرف في لقاءه. فتشبهوا بومضات الذكرى ولو قُصرت، فإنها قبسٌ من الشرف الذي يناله الشهداء، وغيضٌ من الرؤيا التي أراهم الله إياها.

٥٢٩- ما كذب المؤذن في دعواه: حي على الصلاة، حي على الفلاح ... لكن من يعقل؟ ومن يُلبي؟!

٥٣٠- كان يبدو عابراً؛ كمن كُتِبَ عليه الهبوط هنا اضطرارياً ليتنقل من عالم إلى عالم آخر، غير عابئٍ بالمعبر ...

كانت عيناه مُعلقتان بما وراء الحجاب. تظنها حين يحدثك زائغتان لا تستقران، لكنهما كانتا تبحثان عن شيءٍ مُحدد ...

ولولا أنه أعد العدة لما بدا له ما أراد من وراء الحجاب ...
فلما غشيه النور؛ انطلق نحوه في خفةٍ مُخْلِفاً طينه على الأرض.
عرج عائداً من حيث جاء ...
فطوبى له وحسن مثاب.

٥٣١- المعرفة معرفتان؛ معرفة العروج ومعرفة الخروج. معرفة العروج هي التي تُعرِّجُ بها إلى مولاكَ ﷺ، ومصدر هذه المعرفة من خارج هذا العالم. هذه المعرفة تصدر إليك، فتصوغ وجدانك؛ لترقى بك في مراتب العبودية. أما معرفة الخروج، فهي معرفة خروجك من نفسك إلى العالم، أو معرفة خروج الأمة من البداوة إلى المدنية ومن الثقافة إلى الحضارة ومن الدين إلى العمارة. وهي معرفة حركتك في

الوجود. والمعرفتان تتحركان في اتجاهين مختلفين تمامًا. إحداهما رأسية (العروج) والأخرى أفقية (الخروج). وقد شققت الكنيسة الكاثوليكية بهذا «التعارض»، في محاولتها دمجها قسرًا في مجال واحد. ولا مجال للتوفيق بينهما سوى تبعية معرفة الخروج لمعرفة العروج، وتوظيفها لصالحها. إن عروجك يحتاج لوقود، فلتكن معرفة خروجك موظفة على قدر حاجتك في عملية العروج، فإن زادت عن حدها نُسي العروج وتَمَرَّكَزَت حول الخروج. وذلك كما يؤدي نسيان الخروج، على ندرته؛ للتمركز حول العروج والرهينة. والتمركز حول أحدهما شرٌّ. إذ لا بد من الموازنة بينهما في الحياة الدنيا، وهو جوهر التكليف. فلا تخرج من نفسك للعالم إلا للتزود بوقود يُعينك على العروج، وما عدا ذلك فسرفٌ، والله أعلم.

٥٣٢- اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك ...

نصيحة لا يمكن أن تتحقق إلا بالعيش في ظلال القرآن ... أن تعيش أجواءه وظروف تنزله؛ بناء العقيدة وبناء الأمة.

وبدون العيش والمكابدة في أجواء نفسية واجتماعية مُشابهة، فإن القرآن سيغدو باردًا في نفسك، ولن يؤثر فيك أو يُحركك؛ كأننا أنزل لغريك!

٥٣٣- ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾^(١)!

هذا قول المخلفين على عهد رسول الله ... أقعدهم شيءٌ من الترف. وهم كذلك في كل زمانٍ ومكانٍ.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٢) وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٥٣٤- الشك/الحيرة/التيه/الضياع؛ نوعان: شك الباحث عن الحقيقة، وتمحُّك من يرفُضُها!

(١) سورة التوبة؛ الآية ٨١.

(٢) سورة التوبة؛ الآية ٨١.

الأول غالباً ما يؤدي للحقيقة بإذن الله، أما الثاني فهو مطلوب لذاته؛ فهو ستار الهارب من الحقيقة المتفكّلت من تبعات معرفتها.

٥٣٥- الباقية التي تعرضها سورة الشعراء جُذْ مُخِيفَةٌ:

﴿ أَتَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ؕ ءَأَيُّهُنَّ تُغْبِثُونَ ۖ (١٨٨) وَتَسْخَدُونَ ۚ مَصَٰئِجَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۖ (١٨٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ۙ (١٩٠) ﴾

كأنها متلازمة... عمارة الترف العابثة المنفصلة عن القيمة، وتوهم الخلود -ولو ضمناً- الذي لولاه لما اتخذوا هذه المصانع، وجبروت البطش الذي يستبطن التأله على الخلق. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٣٦- الفارق بين الحب قبل الزواج وبعده:

قبل الزواج تدعوها لعشاءٍ باذخ وتُطعمها بيدك، ولا تُبالي كم أنفقت في سبيل رضاها.

بعد الزواج تبتاع عشاءً وأنت عائدٌ للمنزل في المساء وتركها لتلتهمه وحدها لأنك لا تتناول العشاء حفاظًا على وزنك، بينما هي تأكل لتنسى... ثم تخصم ثمن العشاء من مصروف البيت! سبحان الله... ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾^(٢).

٥٣٧- أظّل أراكم الجزئيات والتفاصيل حتى يتكون النموذج/ النسق، وبمجرد ظهور هيكله العظمي تتوه مني التفاصيل التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، ولا يبقى إلا الجسد الذي يُكسى باللحم شيئاً فشيئاً ويكتسب حياةً بحركته، وتزداد مقدرته التفسيرية باستمراره على قيد الحياة...

٥٣٨- حين بدأت دعوة جمعية العلماء الإحيائية في الجزائر على يد الإمام ابن باديس؛ سُمِّهُم الكارهين والمعارضين والجهَّال: «عبدويُّون» نسبةً إلى الأستاذ الإمام محمد عبده.

(١) سورة الشعراء: الآيات من ١٢٨ إلى ١٣٠.

(٢) سورة عبس: الآية ١٧ .

وحين نتكلم اليوم في نفس الموضوعات التي تكلم فيها أستاذنا المسيري رحمه الله؛ يسمينا بعض الجهّال: «مسيرون»، ويعتبرونه مجرد اجترار لمقولاته! والتسمية في كلتا الحالتين لا يُقصد بها الفهم؛ بل يُقصد بها الطعن. فغالبًا ما يُضفي مُطلق التسمية أسوأ الصفات على من يَنسبُ إليه ما لا يوافق هواه. فالتسمية لم يرتضها المسمى لنفسه كما في حال من يتسمّن بالسلفية أو من يتسمّن بالعلمانية... إلخ. بل أطلقها عليهم «الإعلام» المضادُّ بُغية التحذير منهم، وتهميشهم. ولعل أبرز مثالٍ على ذلك هو تعامل العلمانيين وبعض الأزهريين مع كل ما لا يوافق هواهم من تصوّرات الإسلاميين المسيّسين باعتباره «وَهَابِيَّةٌ»؛ ليلصقوا ما يعن لهم من السخافات بالإمام ابن عبد الوهاب!

هذه السخافة لا قيمة لها بالنسبة لي على الأقل، ولا يُضيرني أن أسمى «قطيًّا» أو «مسيرًا»، أو أي تسمية أخرى تتفق عنها قرائح السخفاء. إن مطلق التسمية هو من يناله الضرر الأكبر؛ فهو لا يستطيع أن يُدرك كيف تطورت أفكار هؤلاء وأمثالهم حين بناها جيلٌ جديدٌ، وماذا قبلوا منها وماذا رفضوا، وكيف تجاوزوا الكبار بالاستفادة من أطروحاتهم لتكوين منهجٍ خاصٍّ للنظر، وبناء منظومةٍ فكريةٍ مستقلةٍ.

إنهم أصلًا لا يفهمون أن تكوين منهجٍ خاصٍّ للنظر يعني تجاوز كل من تتلمذت عليهم. وهم لا يدركون ذلك لسببٍ بسيطٍ جدًّا، ليس لكونهم لا يعرفون ماذا يعني «منهج النظر» فحسب؛ بل لأنهم أسرى مناهج وأيديولوجيات غيرهم... إنهم عبيدٌ لبعض أزدل العباد!

ومثل هؤلاء يجب التعامل معهم وفقًا لنصيحة الأفغاني: على العالم ألا يُناظرَ جهولًا، فإنه يجعله ذريعةً للتعلّم بغير شكرٍ.

٥٣٩- في السياق الجاهلي للدولة الحديثة كانت صور التجانس «الثقافي» مادية بحته: إما تنظيماتٌ مغلقةٌ، أو سِلَالٌ مؤتلفة من أصحاب المصالح.

نحن الآن على أعتاب عصر المدارس الفكرية الحرة والتيارات المفتوحة ... إن لم نكن قد ولجناه بالفعل منذ ظهور شبكات التواصل الاجتماعي. نسأل الله الإخلاص.

٥٤٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة اجتماعية وليست وظيفة السلطة. هي وظيفة كل المسلمين وليس وظيفة الحكام؛ فيها فقط تكون الأمة خير أمة. ونزع السلطة السياسية لهذه الوظيفة من المجتمع وحصرها في هيئة مخصوصة أو سلطة معينة يعني تقويض جزء من دين الأمة ونزع فعالية الإيمان!

٥٤١- «كارينا» ... صعود «الحشمة» الإباحية؛ «حشمة» الرأسالية! أن ترتدي المرأة ما يجسّم كل تفاصيل جسدها، وهي تظن نفسها مُحجّبة! التمرکز حول الظاهر المكذوب وتكريسه بعد تقويض محتواه. مسجد ضرار، وحجاب ضرار ... لا فارق بينهما في الصد عن سبيل الله.

٥٤٢- يقول الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده واصفًا أثر الأستاذ الأفغاني فيه، ومُعبرًا بعمق عن معنى الوعي التاريخي (الأمة): «لقد أعطاني والدي حياة يُشاركني فيها علي ومحروس (أخواه)، أما السيد جمال الدين؛ فقد أعطاني حياة أشارك بها مُحَمَّدًا وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

إن جوهر الوعي التاريخي (مفهوم الأمة) القرآني هو تحوّل إبراهيم وموسى وعيسى ومُحمّد وحوارييهم وصحابتهم وأنصارهم وتابعيهم، تحوّلهم إلى شخصيات حيّة تتحرّك في عالم الواقع؛ حركة حيّة يُمكن احتذاؤها واقتفاؤها. أن يتحوّلوا لحدّة لقافلة الإيمان من لدُن آم، وإلى قيام الساعة، وليس محض شخصيات تاريخيّة «ميّنة» تُقرأ قصصها على سبيل التثاقّف وتزجية الفراغ.

إن القرآن ما ذكر هذا الرهط المبارك إلا وأردف بتأكيد ارتباط المسلم به؛ نرى ذلك في سورة المؤمنون: ﴿وَلَنْ هَلْوَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ وَحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(١)، وفي سورة

(١) سورة المؤمنون؛ الآية ٥٢.

الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١). وليت الأمر اقتصر على هذا فحسب، بل إن السياق في سورة المؤمنون يجعل مفهوم التحزب نقيضاً للمفهوم القرآني للأمة وتقويضاً له، فترى المولى سبحانه يُردف مباشرة بقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢). إنه وإن كان التحزب لا يخرج من الملة كما يبدو من ظاهر الآيات؛ إلا أنه يجعل هذا التصور الجاهلي البغيض مُبطلاً ومعطلاً للتصور القرآني عن وحدة الأمة واستمرارها التاريخي.

٥٤٣- لا قداسة للأرض في الإسلام، فهي ليست وجهة المسلم ولا مُراد. ولا قداسة للتاريخ في الإسلام، فإن من يصنعونه ويتحركون فيه بشرٌ يخلطون الصالح بالسيئ والحق بالباطل.

ولا قداسة للطائفة المسلمة التي تنفر للبلاغ، فإنهم لا يمثلون الإسلام، وإنما يجسدون فهمهم له وسعيهم للتحقق به.

باختصار ... القداسة للوجهة؛ وجهة أمة البلاغ عن رسول الله ﷺ، ووجهة صنّاع التاريخ كبداً وتحقيقاً لمراد الله من خلقه، ووجهة من يحرق الأرض ليطعمهم ويكسوهم بنية خدمة الدعوة إلى الله. ... وجه الله ﷻ.

٥٤٤- صحيح أن الدولة القومية (الناصرية) قد صادرت فضاء الهوية كاملاً وفرضت إجابةً واحدةً عن سؤالها؛ إلا أن سقوط مشروعها مع هزيمة (١٩٦٧م) قد فتح المجال مرةً ثانية، فأصبح سؤال الهوية سؤالاً مركزيّاً لا يُمكن إجابة أي تساؤل من التساؤلات الكبرى بغير المرور به. ولعل المحاولات العديدة «المخلصة» فنياً تكون الحسنة الوحيدة لجيل النكبة. عن أغنية تتر المقدمة لمسلسل ليالي الحلمية، أتحدّث.

(١) سورة الأنبياء؛ الآية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون؛ الآية ٥٣.

٥٤٥- أحد تجليات الوهم الإلحادي بإمكان السيطرة على الواقع، هي برامج «الكاميرا الخفية». فبعد أن أصبحت الكاميرا مركزاً و«الشهرة» من القيم العلمانية والعبادات الجديدة؛ يتوهم مُعدُّو هذه البرامج إمكان التنبؤ برد فعل «الضحية» والسيطرة عليه، باعتباره خاضعاً لهذه القيم؛ بل وعكس ناتجه ليُصَبَّ في مصلحة البرنامج المبثَّل. وإذا جاز ذلك في بيئة مدينيَّة زادت فيها معدلات العلمنة وتشوُّ الإنسان حتى صار أحادي البُعد يستجيب لأول إشارة من القائم بترشيد الواقع، فإن هذه البرامج لا يُمكنها -مثلاً- التصوير في بعض مناطق الصعيد أو الريف الأقلَّ تحديثاً، لأن التنبؤ بسلوك «الضحية» في هذه الحال سيكون شبه مستحيلٍ على فريق البرنامج، ومن ثم فقد يؤدي لكوارث حقيقيَّة لا يُمكن التنبؤ بمداها!

٥٤٦- هذا وقتٌ أترحم فيه على الإسفاف اللغوي لـ«الفنان المبدع» و«الشاعر الفحل» شعبان عبد الرحيم؛ بعد أن انحدر «الغناء» إلى أصوات معدنيَّة وصرخات لا تُبين، تُذكرك بالنسوة اللاتي يُفرغن طاقتهن في «زار»... ولأكون أدق؛ فهو أشبه بصلاة المشركين عند البيت: مُكاء وتَصديَّة!

وكل هذا يتحمل وزره دُعاة الإسلاميين، بإذن الله؛ بغير أن يُنقص من أوزار من اقترفوه! أربعة عقود يُفترض أنهم كانوا متفرغين لـ«تربية» الناس، وهم لم يُربُّوا حتى خنفساء عوراء. لا يخلو شارع في مصر من كوم قمامة علامة ودليل للتائهين، وجهاز تسجيل أو مذياع يقىء هذا الدنس اللافتي، وبين ظهرانيهم من يدعون إلى دين ألف بائه: النظافة من الإيمان!!!

٥٤٧- المفكر المعاصر هو المعادل الموضوعي للمتكلم في التراث الإسلامي. وهو لا يُخترع أفكاراً؛ بل يكتشف صلات وعلاقات جديدة بين الأفكار المحدودة التي تتداولها الإنسانية في أثواب مختلفة منذ أقدم العصور. وهو غير منوطٍ بالحِلِّ والحرمة كأحكام فقهية، بل بمصادر الفعل ومصادر المعرفة التي تؤدي للفعل؛ من حيث هو حلالٌ أو حرامٌ. لذا؛ فعمله يفترض به أن يُمهِّد لعمل الأصولي، بما أنه يُقدِّم له رؤيةً مركَّبة للواقع تتوازن فيها الجزئيات والكليات، لتُعينه على الاجتهاد.

وقد يكون المتكلم صاحب نزوع أصولي؛ ومن ثم يُصبح قادرًا لا على تفكيك الواقع فحسب، بل على إعادة الاجتهاد لتركيب واقع يوافق الرؤية التي ينطلق منها. وأزمة المتكلمين أصحاب النزوع الأصولي ذات بُعدين: أولاً المناهج الجدلية المادية التي تُهيمن على رؤيتهم الأصولية، أو تأخر الاجتهاد الأصولي في عصرهم عن مواكبة ما يُثرون به رؤى المسلمين؛ فتطرد اجتهاداتهم الكلامية بعد تخريجها أصوليًا لتسد فراغ الواقع، وفي هذا خللٌ منهجيٌّ قد لا يظهر أثره إلا بعد أجيالٍ.

٥٤٨- نظريًا؛ كنت أعتبر تصنيف «إسلامي» تصنيفًا أيديولوجيًا فرقيًا لا علاقة له بالإسلام، بقدر ما هو تصوُّر حزبي مقيتٌ للتفلُّت من تعاليم الإسلام. والآن؛ فالواقع البغيض الذي نصطلبه يشي بأن مدلول المصطلح سوف لن يُشير -قريبًا جدًا- إلا لمحتوى مُماثل لما تُشير إليه المصطلحات التالية في السياق التوحيدي: ليبرالي، علماني، أناركي، اشتراكي، رأسمالي، ديمقراطي، شيوعي... إلخ. أي شرك أُفحِم على التوحيد؛ نعوذ بالله منه!

٥٤٩- في أكثر مسلسلات أسامة أنور عكاشة وجيله؛ المكان هو البطل وهو الهوية، وهو مصدر المعرفة ومصدر القيمة. فالإنسان يفقد ذاته «المتفردة» بانفصالها عن المكان الذي تستمد منه الحياة. وهي تنويعاتٌ على الفكرة القومية ومفهوم الشعب العضوي، وعبادة الأرض.

٥٥٠- تجاهل أسامة أنور عكاشة وأكثر جيله للوجود الإخواني دعويًا وسياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا قبل السبعينيات؛ تجاهلٌ مُتعمدٌ لتكريس الانقطاع التاريخي، وتثبيت السردية المكذوبة التي تبناها الناصريون وحثالات القوميين واللا دينيين؛ من أن ظهور الحركات الإسلامية أحد «منتجات» عصر الانفتاح و«سوات» السادات!

مسلسل ليالي الحلمية الذي يدور جزؤه الأول في حي الحلمية في أربعينيات القرن العشرين؛ على بُعد مرمى حجر من المركز العام للإخوان في ذروة نشاطهم على كل المستويات، هو أحد الأمثلة الفجة على حالة الغلّ الثقافي والسياسي لجيل

من عبيد الأيديولوجيات الوثنية؛ جيل تواطأ على طمس الذاكرة التاريخية، وساعده على ذلك من ورثوا عرض هذا الأدنى وقالوا: ﴿سَيَعْفُرُنَا﴾^(١)!

٥٥١- الجبر والإرجاء أول خطوة في انغلاق أكثر الأنساق المعرفية، وتحول المدارس الفكرية إلى مذاهب، والطوائف إلى فرق، وانجرافها للشرك. سواء كان ذلك بوحي أو بغير وحي. بل إن مركزية الإنسان التي توهم البعض فيها كسرًا لقيد الجبر «الديني» هي في حقيقة الأمر جبرٌ من نوع آخر؛ نوع يُخضع الإنسان المتأله لاحتياجات مادية بيولوجية ويرجئ «ثوابه» لقيام الطوبيا وتحقق الفردوس الأرضي. إنه نسقٌ ديني في جوهره لكنه دينٌ وضعي: الإله هو المادة، والفردوس فيه أرضي... إنه دينٌ شرك!

٥٥٢- التدريب ليس نقيضًا للتربية من حيث المآل فحسب؛ بل هو ينتمي لرؤية مُناقضة أصلاً! فإذا كان الهدف من التدريب هو تحسين كفاءة الترس البشري بتحسين استجاباته المجردة والآلية للمؤثرات الخارجية، وهو ما يجعل منه «مادة» جيدة التوصيل لأوامر القائم بترشيد الواقع؛ مجرد كائنٍ برّانيٍّ أحادي البعد. فإن التربية، على النقيض من ذلك؛ تجعل استجابته للمؤثرات الخارجية أمرًا ثانويًا بل ومرهونًا بمنظومة قيمية ما قبلية. لتصبح الاستجابة هنا عملاً يأتيه الإنسان عن وعي وإدراك وإرادة تامة ورغبة واختيار حقيقيين. إنه يتصرف بوازع ذاتي لا تؤثر فيه التغيرات البرّانية كثيرًا. ولذا يصعب التنبؤ بتصرفه الناشئ عن رؤية مركبة؛ على عكس التصرف الآلي الذي يُنشئه التدريب الحيواني/ الغريزي.

وربما كان هذا منسجمًا مع ما رواه الترمذي في سننه عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنًا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا^(٢).

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٦٩ .

(٢) ضعف الألباني إسناده في ضعيف الجامع الصغير، وكذا في تعليقه على مشكاة المصابيح، ويصح وقفه على ابن مسعود.

٥٥٣- المثل المحوري - ولعله الوحيد - لارتباط الملك بالنبوة هو مثال أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام. إن الملك في هذا النسق منسجمٌ ليس مع الطبيعة الاجتماعية لبني إسرائيل وحقيقة اصطفايتهم لفترة من الزمن فحسب؛ بل هو وثيق الصلة بكون أكثر هؤلاء الأنبياء/ الملوك أصحاب رسالة محدودة الزمان والمكان. رسالة جُزئية مُكملة لغيرها.

ولعل عدم ارتباط الملك بأيٍّ من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم، وهم مَنْ هُمْ؛ دليلٌ على أن اقتران الملك والنبوة خصوصيةٌ لا يُقاس عليها. إن موسى وعيسى -أولي العزم- صلوات الله عليهم لم يكونا من الملوك، برغم إرسالهم لبني إسرائيل، وكذا أبونا إبراهيم؛ جدُّ العرب المستعربة وبني إسرائيل وأنبيائهما. ويبدو لي أن ملك الأنبياء ارتبط بتطوُّر البشريَّة الاجتماعي والنفسي، وقد يكون من التدرُّج الذي أخذ الله به خلقه حتى ختم أنبياءه بالمحمود ﷺ. وقد استنبطت مما ذكره القرآن عن داود وسليمان -عليهما السلام- غلبة صفات الملك على النبوة، برغم عدلها وصلاحهما الذي شهد به الوحي؛ وأجد ذلك جلياً في دعوة سليمان المشتهرة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾^(١). ولا نعرف دعوة واحدة تُماثلها أو حتى تُشبهها لأيٍّ من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم.

فإذا كان القرآن يقصر تعريفه للأمة من جهة التصوُّر والاعتقاد (الجوَّاني) على من اقتفى الأنبياء والرسل، فإن أولي العزم منهم يحتلون بلا شكَّ صدارة القافلة وموقع القيادة فيها. وهم مَنْ يصحُّ اعتبارهم أصلاً يُقاس عليه في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

٥٥٤- من اللغوصة الأزهرية التي ابتلينا بها؛ تأويل أحد المتعالمين السخفاء الذين يقيثون سُخفهم من إذاعة القرآن الكريم، تأويله للإيثار في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢)؛ بأنه إعلاء مصلحة الوطن! ولا عزاء للباطنية!

(١) سورة ص؛ الآية ٣٥.

(٢) سورة الخشر؛ الآية ٩.

٥٥٥- يقول البروفيسور «وو جيان مين»؛ الأستاذ في جامعة الصين للشئون الخارجية: إن كثيرًا من الصينيين قدّموا مساهماتٍ عظيمةً، ودفعوا ثمنًا باهظًا من صحتهم وجهودهم وحياتهم في سعيهم وراء أحلامهم، بعد انتهاج بلادهم سياسة الإصلاح والانفتاح. ويعترف السيّد «وو» بأن ثقافة السعي إلى الثروة قد تسرّبت إلى كل أركان المجتمع الصيني؛ مُحدّدًا ثلاث أزماتٍ يواجهها المجتمع الصيني حاليًا: أزمة الإيمان، وأزمة الصدق، وأزمة المصداقية. ويرى أن ظهور هذه الأزمات مُرتبطٌ بافتقاد البعض للحلم والأهداف العظيمة. إن الاعتقاد بأن التحقّق المادّي يحلّ كل شيء أمرٌ جدُّ مخيفٌ.

مقتطف من افتتاحيّة مجلة الصين اليوم (الطبعة العربيّة)، فبراير ٢٠١٣؛ بعنوان: الحلم الصيني للجميع!!

٥٥٦- ولا تُعزّنك لذة الذوق فتُغويك بالبُوح، فإن العبارة البشرية ميل واللغة عوراء. وما ذقت فاكتمه، فمَن باح حُرِم؛ فقد فتن من لم يذق.

٥٥٧- والعروج إلى الله غاية الإنسان، وطريقه المكابدة في كل أمر. فإن كانت حركة المجتمع ترفد هذا العروج وتُسهِمُ فيه، فهو مجتمعٌ مسلمٌ. وإن كانت حركة المجتمع تجذبك للدوران حول نفسك على الأرض، فهو مجتمعٌ جاهليٌّ.

٥٥٨- المتأمل في سيرة ابن الراوندي، أحد أشهر «الملحدّين» في التاريخ الإسلامي؛ يجد أنه شخصٌ تافهٌ يعبُد ذاته بعد أن تمركز حولها تمامًا. فقد تنقّل بين الديانات والمذاهب طلبًا للشهرة وعلو الذكر: من اليهوديّة إلى الإسلام، ومن التسنُّن إلى الاعتزال إلى التشيع، ومن اليهوديّة إلى الإلحاد! بل وكتب في الانتصار لكل مذهب ودين في مقابل دنائير معدودة، كما كان يكتُب في طعن ذات المذهب أو الدين بعد نفاذ الدنانير!

ونمط ابن الراوندي هو ذاته نمط شعراء البلاط في أكثر حقب التاريخ الإسلامي، بل إنه يقترب من أبي الطيب المتنبي ويتشابهه معه في كثير من الصفات النفسية، وإن كانت حركيّته أعلى وأكثر راديكاليّةً بسبب رفضه التام -ربما عن غير وعيٍ- لفكرة المركز البرّاني أو المتجاوز لذاته.

وبرغم انتشار وصفه بالملحد، إلا أني أجد وصف «المرتزق الخسيس» أقرب لمسلكه. فهو غير عابئ بالدين أصلاً إلا إن كان سيوفر له لذة، وذلك على عكس الملحد الباحث عن الحق. وشتان!

ولعلّه من أكثر الأمثلة التي تدخل تحت قوله ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَلَّى عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١).... حتى لتظن أنه أنزل فيه!

٥٥٩- «عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَدْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٢).
ويبدو أن في هذه الباقة مروق من الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٦٠- الحركة ناموس الكون. وإن كان الماء يفسد بوقوفه، فكذا الدين في النفوس الراكدة. لا حياة للتوحيد في النفوس بغير كبد حقيقي ودائم على مقتضاه.

٥٦١- الداعي نوعان؛ إما يدعوك إلى الله سبحانه أو إلى نفسه/ حزبه/ مذهبه/ صنمه؛ فاحذر أن يضلّك بزعم أن ما يدعوك إليه معبر أو أداة؛ فقد نزل القرآن من أربعة عشر قرناً مبطلاً حجة الذين قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٣)؛ فما جعل الله الولوغ في الشرك طريقاً للتوحيد!

٥٦٢- والنفس بطبعها لاهية. لكن من كابد نفسه على درب الإخلاص، رزقه الله نفساً لا يُلْهِيها سوى، ولا يركبها الهوى. تكون سلواها المكابدة وقرة عينها الشغل به ﷻ.

(١) سورة الجاثية؛ الآية ٢٣.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) سورة الزمر؛ الآية ٣.

٥٦٣- ومن تمام استقامة نفسك على طريق الإخلاص ألا ترى إياه. ومن لم يتعلق بسواه؛ أحبه وأغناه.

٥٦٤- ومعرفة الحق تعني معرفة مُرادِه من خلقه، والسير على طريق التحقق بالعبودية له وحده كُفْرًا بالطواغيت، ومكابدةً مخلصه لالتزام منهجه ﷺ. ومن الكفر بالطواغيت، تمامًا لاستقامة النفس على الطريق؛ الكفر بطاغوت طينك والحذر من حجابِه، وليس ذلك رهبةً، بل هو دوام مُكابدة تقويم نفسك على مُراد الحق، والحذر من عُجبها بما يفتح الله لها.

٥٦٥- يرى توفيق الحكيم أن ضعف الدور الفكري والاجتماعي وهيمنة المكوّن السياسي على التجربة الحزبية بعد (١٩١٩م)، مرجعه تسابق الأحزاب لضم أصحاب الأموال وكبار الملاك، وهيمنة هؤلاء على قيادها! ويفرض صحة كلام الرجل؛ أليست هذه مأساة الحزبية في كل عصرٍ ومصرٍ؛ إنها رابطة مصالح شخصية؟!!

٥٦٦- في باطن كل نعمةٍ طُويّ بلاء تغلفه رحمةٌ، ذلك أن الإنسان خُلِق في كبدٍ أبديٍّ. والبلاء صنو النعمة التي ينالها كل أحد، لكن الرحمة المطوية فيه لا يتفياً ظلالها سوى المؤمن. لذا كان الفرح والحزن المعلقان بالنعمة من الحمق؛ لأن النعمة عطاء ومنعاً فتنة لا تدوم. كذا الطمع في نعمةٍ بغير ابتلاءٍ في دار البلاء؛ جهلٌ شنيعٌ.

٥٦٧- أنا لست حيًّا لأن قلبي يَنْبِضُ، بل إن قلبي ينبض لأني حيٌّ. فالحياة ليست دورةً ميكانيكيةً أو بيولوجيةً، بل هي سرٌّ كامنٌ في النفخة الإلهية. إن الآلة التي سخرها الله في صدري ينحصر دورها في الدلالة، أما المدلول فتوه فيه العقول. سُبُوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح.

٥٦٨- ولأن الحياة هبةٌ إلهيةٌ وسرٌّ فوق العقل، فإنها لا تُسَلَبُ بيد بشرٍ وإن أتلّف وعاءها، الجسد؛ بل يكون تلف الوعاء أو تدميره ستارًا لقضاء الله في استرداد وديعته. لذا، فتحريم القتل لا يرجع لكونه إزهاق روح على الحقيقة، بل لكونه تألُّ بشري على الله، بظن إمكان إزهاق الروح وسلب الحياة.

وتشريع قتل النفس قصاصًا وحداً وجهادًا في الحالات المعينة حصراً لا ينقل
 قُدرة سلب الحياة من المشرّع سبحانه إلى المستخلف، بل جُعِلَ ذلك عبرة للخلق،
 بالإذعان للأمر الإلهي في إتلاف الوعاء المُفسد لئلا يطنى، فيكون في إتلافه بيد
 المستخلف تطبيقاً للسُنن وشفاءً للصدر واستاراً لقدر الله. ليرد الإنسان إلى ربه
 ليلقى جزاء ما اقترف، إن لم يكن قد تاب.

٥٦٩- وتوهم إمكان الأخذ بقواعد جاهلية لتغذية مجتمع «إسلامي»؛ يعني
 الظن بإمكان الوصول إلى الله بعبادة الشيطان! وهي حماقة لا تُقبل عقلاً إلا من
 تملكه الهوى واستعبده الكسب الدنيوي الآني.

لقد جعل الله للوصول إليه سبيلاً واضحاً، فارتبطت الحقيقة بمنهج الوصول
 إليها. لذا، فإننا نقول: شرف الغاية من شرف الوسيلة. فالفصل بين الحق ومنهجه
 نقص في الدين، وهدم لأركانه، ولو صلينا وصُمنّا وتسميّا بالمسلمين. وأخطر ما في
 هذا النقص لعُرى الإسلام ليس شرك العمل الذي يقع فيه المبتلون به؛ بل الكارثة
 الأكبر أنه صدّ عن سبيل الله من حيث يظن هؤلاء أنها نصرة لشرعه. نعوذ بالله من
 حال من ﴿زَيْنَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ، فَرَّاهُ حَسَنًا﴾^(١).

٥٧٠- لأذان الفجر لذة خاصة، فهو صوتٌ وحيدٌ يشق سكون الليل مؤذناً بيوم
 جديد. يوم أوله دعوة من الله للقاءه، فأنعم بيومٍ تُقبل فيه على اللقاء. اللهم اهدنا
 ولا تهرمنا.

٥٧١- تعريفاتٌ عصريةٌ:

اليسار الإسلامي: استقبال قبلة بين البيت الحرام والكرملين!
 الاعتدال الإسلامي: استقبال المصلّي للبيت الأبيض؛ مباشرة.
 الرأسمالية الإسلامية: أن تستقبل في صلاتك إله «السوق» الذي لا يتجسد.
 الوسطية الإسلامية: أن تؤمن ألا إله رئيسي إلا الله!

(١) سورة فاطر؛ الآية ٨.

الاشتراكية الإسلامية: الإيمان بالأفارق بين الإسلام والكفر، فالمشترك الإنساني يُجِبُّ ما قبله.

المنهج الوسطي: الإسلام دين أم التسامح ودين أبوه!
التنمية البشرية من منظور إسلامي: إمبريالية «إسلامية»!
الأدب الإسلامي: الواقعية الاشتراكية وفوق رأسها عمامة.
الفرقة الناجية: أي حفنة تسمى نفسها أهل السنة والجماعة!

٥٧٢- الحركة هدف الحياة والسكون فساداً، والتوحيد منهج خالق هذه الحياة لاستقامتها على مراده. والتصاق الحركة بالتوحيد يعني أن كل سكونٍ ينطوي على مفارقةٍ للتوحيد بمقداره. وأن كل حركةٍ بغير التوحيد تنطوي على شركٍ بمقدارها. فلزوم الحركة للتوحيد حياةٌ. وحياة التوحيد في الحركة. والتوحيد هو حركة الحياة على مُراد خالقها.

لذا، فإن الحركة الإسلامية ليست تنظيمًا أو تنظيماتٍ حزبيةً كما اصطلاح الدارسون المتواطئون على ذلك، بافتراض أن الإسلام نحلةٌ سكونيةٌ كالنحل المحرّفة أو الأيديولوجيات والأنساق الأخلاقية الوضعية. إن الحركة الإسلامية هي حركة المجتمع المسلم في حياته على الأرض؛ تلك الحركة التي لا تنفصل فيها الدعوة إلى الله عن طلب الرزق منه ﷻ. إذ انفصال واجب الدعوة إلى الله عن طلب الرزق منه هو فصمٌ لبعض عُرى التوحيد. بل هو مدعاةٌ لهيمنة الهوى على أحدهما وعلمنته. فإما ساق الهوى الدعوة لتصبح دعوة لحزب/ تنظيم/ مذهب/ فرقة تدعي تجسّد الإسلام فيها، وإما هيمن الهوى على صيرورة طلب الرزق ليُسمى هدفًا بذاته وليس وقودًا للدعوة، وفي ذلك انجرافٌ لمظان الحرام. وكليهما فصمٌ لعرى التوحيد وتقاربٌ للشرك.

٥٧٣- تختلف الرؤية الحزبية عن الأنساق الاجتهادية المفتوحة؛ في أن الأولى سكونيةٌ نهائيةٌ والثانية في حركةٍ جدليةٍ دائمةٍ مع الوحي. الأولى ألزم صاحبها نفسه بها، ومن ثم أمكن محاكمةُ تصوره الحيّ للوالم ثابتة/ ممتة، أما في الثانية؛ فإن اللالزم الوحيد هو هيمنة الوحي الذي لن نعرف له تأويلًا نهائيًا داخل التاريخ.

لهذا، فإن فعل تقنين «الشرعية» هو في جوهره فعلٌ علمانيٌّ يوقف الاجتهاد في ظل الوحي، ويجعله اجتهادًا في فهم النص البشري أو المنتج «الاجتهادي» التاريخاني. وهو تصوُّرٌ لا ينتمي لمنظومة القضاء الحديث بقدر ما يُعبر عن رغبة إنسانيةٍ تسلُّطيةٍ في تنميط الواقع والسيطرة عليه. وهو ما تجلَّى مثلاً في رغبة المنصور العباسي فرض موطأ الإمام مالك على الأمة، لولا رفض صاحبه عليه السلام التضييق على أمة محمد ﷺ.

إن توهم اكتمال تحقُّق الإسلام في الأرض بتقنين «الشرعية» تصوُّرٌ طوباوي ذو طبيعةٍ إلحاديةٍ، يَهْمُسُ فعل التزكية الجواني، ويَضَخِّمُ فعل الضبط القانوني البراني. إن التقنين لا يكبل القاضي/ المجتهد فحسب، بل يُعْرِقُلُ العدالة ويجعلها حُلماً بعيد المنال. فالقاضي المعاصر يتعامل مع بنودٍ قانونيةٍ مُصمَّمةٍ، وأوراقٍ ميتةٍ، أكثر مما يتعامل مع وقائع حياتيةٍ جاريةٍ. وهذا التغيُّر في طبيعة عمل القاضي وتضييق مجال اجتهاده، بل وتحويله إلى مجرد مُطَبِّقٍ للقانون الوضعي الجامد؛ يؤدي لتحوُّل عملية التقاضي إلى واقع افتراضي يطول ليخلق واقعاً موازياً لا علاقة له بالحياة، ومن ثم تغيب العدالة التي كان القاضي/ المجتهد قادراً على تحقيق بعضها في يُسر وسلامة بصرٍ، بمستنداتٍ معدودةٍ، ومعايشةٍ حقيقيةٍ لواقع المجتمع.

٥٧٤- الابتذال والخفة والتسطيح التي يتعامل بها الإعلام المصري مع ما يُسمَّى بـ«الفتنة الطائفية»؛ أمرٌ مثيرٌ للغثيان. وقد تحكي مذيعة عن زميلة عاشرتها عشر سنوات ولم تعرف أنها مسيحية إلا في عُرسٍ زميلةٍ أخرى بالكنيسة. لتعتبر عدم تدوين زميلتها المسيحية «فضيلة» قد أذابت الحواجز الطائفية! مكنم الخطورة في هذا اللغو هو اعتبار العلمنة التي تفرضها الدولة الحديثة، المتألهة قسراً؛ على المجال العام، اعتباره «أصلاً» سابقاً على الأديان! هذه الوثنية «اللاعقلانية» لا تتبنى حتى السرديات الغربية لتطور الدين عند إنغلز ودوركايم مثلاً، بل تلوكُ سرديَّةً محليةً ساذجةً مُنقطعةً لا تصمُّدٌ للنقد؛ السردية الناصرية السخيفة!

٥٧٥- لا يمكن لطالبٍ يدرس رائعة شكسبير «تاجر البندقية» مُقتطعة من خلفياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويستمتع بها وبعمقها. لا قيمة لدراسة النصوص الكلاسيكية بغير إلمام عميق بتاريخ الآداب والفنون.

٥٧٦- دراسة كلاسيكيات الآداب العالمية أحد الأبواب الحداثيّة للعودة إلى الفطرة! خصوصاً أدب الحقبة الرومانتيكية. وإذا كانت الرومانتيكية الغربية قد انتهت لدين غنوصي انكفأ على الطبيعة، فإن رحلتها المخلصة للبحث عن إله كانت معبر سيد قطب وجلال آل أحمد وعبد الوهاب المسيري، وغيرهم في العودة إلى الإسلام.

٥٧٧- ولا أريد صرفك عن صنم لأشغلك بآخر ولو كان معممًا... بل أريد صرفك إلى السجود للواحد ﷻ، فهو باب الفلاح؛ فإن أثمر قولي وفعلي غير ذلك، فاضرب بهما عرض الحائط واسأل الله لي هُدًى من لدنه.

٥٧٨- كُلُّ طعامٍ يطعمه المؤمن يربطه باليوم الآخر. فإن كان حسنًا ذكَّره بالنعيم، وأوجب عليه حمده ورجاء دوامه. وإن كان غير ذلك ذكَّره -والعياذ بالله- بالجحيم، وأوجب عليه الاستعاذة مع الحمد، ورجاء انقطاعه.

٥٧٩- إن الله حين تَعَبَّدنا بالدعوة إليه وجعل منهج حركتنا في ذلك اقتداءً بالمصطفى، لتكون دعوتنا إليه تمثلاً لأمره يُقتدى به؛ إنه حين تعبدنا بذلك ﷺ لم يُفوضنا بتمثيله ولا تمثيل شرعه؛ بل بضرب المثل الحي على إمكان تحقُّقه، وشتان! فالحذر الحذر، فإن الصد عن سبيل الله أوله تلك الدعوى، وإن لم يكن آخره فتنة الذين كفروا بمن تأله بتلك الدعوى الباطلة.

٥٨٠- في مصر بالذات؛ ارتبط الفقر بفقر القذارة الإنسانية. وإذا كان لارتباط المصريين بالزراعة اعتمادًا على النيل - حسب تفسير جمال حمدان - دورٌ في ذلك، فإن الاستدلال والاستبعاد يلعب الدور الأكبر في ظني. إحساس ساكن هذه الأرض أنه قنٌ وضع لا قيمة له إلا خدمة الملاء. ومثل هذا يصعبُ جدًّا استعادة مركزية مفهوم الاستخلاف في وجدانه. لكنه ليس مستحيلًا!

٥٨١- حين يكشف القرآن للنبي ﷺ مسجد الضرار، وينبها أن حتى المسجد قد يُتخذ أحياناً للصد عن سبيل الله، بل وفي حياة المعصوم الموحى إليه، فلا يتنبه إليه إلا بقرآن ينزل من فوق سبع سماوات؛ فإن ذلك درس لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. إن التلبس قد يكون من مسجد ضرار أو شيخ ضرار أو منهج ضرار أو دعوة ضرار أو فرقة ضرار. نسأل الله العافية.

٥٨٢- كان جوبلز -وزير الدعاية النازي- يتحسس مسدسه إذا ذكرت الثقافة والمثقفين، وكان ستالين يتحسس حذاءه في ذات الموطن. أما الفقير إلى ربه فيتحسس أعضائه، ليتأكد أن شيئاً منها لم يُسلب؛ إذا أعلنت الدولة رعايتها/ تبنيها لأي مشروع أو فكرة. فالدولة عندي مُتهمة إلى أن يثبت العكس!

٥٨٣- من النصائح الجليلة التي أسدانيها أحد شيوخ الفضلاء، قبل عقدٍ كامل؛ الحرص ما حييت على الاستقلال أدبياً ومالياً، وعدم الارتباط بأي صورةٍ بأي نظامٍ سياسي خصوصاً من يدعي تمثيل الإسلام. ذلك أن العلاقة مع النظم السياسية/ الحُكُام، كعلاقة القواد بالموس؛ قد يُفني عمره في إيجاد أفضل الزبائن لها وهي مُتقلبة المزاج بطبعها، ولا تكف عن الخط من شأنه برغم ما له من أيادٍ!

٥٨٤- والعصمة لا تكون إلا للوحي والموحى إليه ﷺ؛ بعصمة الله إياه. ولا تنسحب هذه العصمة على ما فهمته أنت وأنا عن الله ورسوله، ففهمنا أصله النقص وآفته الهوى. فإن أردت النجاة فاعتصم بالوحي أبداً، ولا يُخدعك إبليس فتظن للحظة أنك بلغت من هذا الوحي مبلغ النطق به بغير ميل. نعوذ بالله من الشرك ظاهره وباطنه.

٥٨٥- التبديع والافتام بمخالفة السُنَّة والرمي بالتشيع والباطنية والزندقة؛ وسيلة المتدين الأحق الذي يظن نفسه الإسلام، بمجرد أن نبتت في وجهه شعيرات! وأكثر هؤلاء المقلدين إما كانوا جهالاً بالإسلام حتى «التزامهم»؛ فلما «هداهم» الله انتكست فطرتهم باستعلائهم بتفوسهم على أهل الضلال والجهل الذين جاءوا

من بينهم! أو كانوا على النقيض؛ فساقًا موغلين في الفسق، فلما «هداهم» الله جاء «التزامهم»، كالحركة البندولية؛ مقلوبًا «عنيفًا» لفسادهم. وقليلٌ من هؤلاء وأولئك من يُرد الله به خيرًا، فيُعلمه معنى الإسلام؛ فيتجرد في الدعوة إليه بغير علوٍّ في الأرض، ولا استعلاءٍ على الخلق.

٥٨٦- ليس المهم هو كمُ كتابًا قرأت؛ الأهم هو بكم كتابٍ انتفعت!

٥٨٧- الحب مراتب؛ أعلاها تمام الخضوع للمحبيب، وهو ما لا يكون إلا لله ﷻ. أما حب البشر، فأعلى مراتبه أن يكون المحبوب استكمالًا لنقصك وسدًا لثغرات نفسك. أن تكونا معًا نفسًا واحدة كما كُتبتا في البرزخ الأول. وهي وحدةٌ لا تتحقق بالصراع ومحاولة الإخضاع -ذات الطبيعة الشريكة- بل بالتكامل الذي يجعل كلاً منكما سكنًا للآخر.

٥٨٨- والتكامل بين المحبين من البشر، وانتفاء الصراع؛ لا يكون إلا بتصحيح تصوّر الطرفين ومفهوما للحب. وأنه ليس امتلاكًا أو إعادة تشكيل للطرف الآخر وفق مقاييس الأقوى، فهذا كله يطوي جهل أحد الطرفين أو كلاهما بالإسلام. فإن من الشرك بالله أن تسعى لاستعباد إنسانٍ باسم عاطفةٍ ربّانية. إن جوهر التحقق بالعبودية هو وحدةٌ وجهتكما، ومن ثم ترافقتكما كالنفس الواحدة في الخروج إلى الله. إنها أحد التنويعات على الوحدة ثنائية القطب التي تُميز التوحيد عما عداه.

٥٨٩- هناك نوعان من الوجود؛ وجودٌ حقيقيٌ نصطليه كل ساعة، ووجودٌ متوهمٌ. يتعامل الدين -حتى الوثني منه- مع الوجود الحقيقي بثقله، أما الفلسفة فتعامل مع الوجود الافتراضي... مع الوهم!

٥٩٠- أحسبُ أن طوائف الجهاديين أكثر طوائف الأمة إخلاصًا واتساقًا مع ما تعتقده، ولا أزيهم على الله. لكن مع هذا الإخلاص في أكثر الأحيان رعونة وجهالة؛ قلبٌ مخلصٌ وعقلٌ أجوف. نسأل الله الهدى والسلامة.

٥٩١- إذا كانت لك حاجة، واضطُررت للمفاضلة بين فاسقٍ لا مثيل له في كفاءته وصاحب دين أقل كفاءة؛ فاختر الأخير. ذلك أن الفاسق قد يبيعك، حرفياً؛ ولأول مشتري، وبشمنٍ بخسٍ!

٥٩٢- لم يُخرج آدم من الجنة عصيانه لله ﷻ فحسب، بل طاعته لحواء!

٥٩٣- رحم الله نجيب محفوظ؛ القائل: «ما إن تنتهي من إعداد المنزل، حتى يحين أوان الرحيل». لذا، فالعاقل من لم يُسرف في إعداد منزلٍ سيُفارقه، وصرف نفسه لإعداد المنزل الذي سيُخلد فيه. كلنا يعرف ذلك، وكلنا يتناساه! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٩٤- اللهم أغني بالافتقار لك، ولا تُفقرني بالاستغناء عنك.

٥٩٥- لقد عرف عبد الوهاب المسيري رحمه الله الإسلام بحبه لزوجته وأطفاله. لقد عجزت المادية عن تفسير شعور بسيط كهذا. سبحان الله!

٥٩٦- كلما اتسعت الرؤية؛ ضاقت العبارة. خصوصاً عند إدراك الجمال، فغالباً ما ينحبس المعنى في صدري؛ تحبسه اللغة الإنسانية بعجزها وقصورها. ثم بعد ذلك تجد من يدور حول حرفية الكلام ويضع نصوصاً بشرية في المركز!

٥٩٧- شرط الإسلام إسلام الوجه لله وحده، ويعني ألا تول وجهك إلا قاصداً إياه سبحانه. وأياً نفس تردّد في صدرك وأنت على غير هذه النية، فهو ارتكاسٌ في الجاهلية يقع فيه كل البشر بغلبة طينهم أحياناً. والمؤمن الحق هو من لا يستسلم أبداً لهذا الإخلاق، ويسعى جاهداً للعودة إلى الله كلما انتبه لنفسه وغلبة شهواتها. أما الإحسان فهو حياة أولئك الأبرار الأخيار؛ الذين أمسى هواهم تبعاً لما أنزل على المعصوم ﷺ، فحتى إخلادهم إلى الأرض لا يكون بكبرية ولا شرك، وإنما بضعفٍ بشريٍّ يحفظهم في درجةٍ دون العصمة التي اختص بها الأنبياء.

٥٩٨- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١). وياله من مشهد ...

٥٩٩- ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾^(٢)! ويالها من جهالة!

٦٠٠- مما يُنسب للإمام جعفر الصادق عليه السلام في كيفية الحج والتهيؤ له:

إذا أردت الحج فجرد قلبك لله من قبل عزمك من كل شاغلٍ، وحجاب كل حاجبٍ. وفوض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك، وقوتك وشبابك ومالك؛ مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً...

واستعد استعداداً من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصُحبة، وراع أوقات فرائض الله وسُنن نبيه ﷺ، وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر، والشكر والشفقة والسخاء، وإيثار الزاد على دوام الأوقات.

ثم اغسل بهاء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كِسوة الصّدق والصفاء والخضوع والخشوع.

وأحرم عن كل شيء يمنحك من ذكر الله، ويحببك عن طاعته.

ولبّ بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله ﷻ في دعوتك، مُستمسكاً بالعروة الوثقى.

وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش، كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت.

وهروّل هرباً من هواك، وتبرياً من جميع حولك وقوتك.

واخرج عن غفلتك وزلاتك بخروجك إلى «مِنى»، ولا تمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه.

(١) سورة الزمر؛ الآية ٦٩.

(٢) سورة الزمر؛ الآية ٦٤.

واعترف بالخطايا بـ «عرفات»، وجدّد عهدك عند الله بوحدايته، وتقرب إلى الله وأتقه بـ «مزدلفة».

واصعد بروحك إلى الملاء الأعلى بصعودك إلى الجبل.

واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة.

وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات.

واخلق العيوب الظاهرة والباطنة بخلق شعرك.

وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم.

وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه، ومعرفة جلاله وسلطانه.

واستلم الحجر رضاءً بقسمته، وخضوعاً لعزته.

وودّع ما سواه بطواف الوداع.

وأصف روحك وسرك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على «الصفاء».

وكن ذا مروية من الله، نقيّاً أو صافئاً عند «المروة».

واستقم على شرط حجّتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربك وأوجبت له إلى يوم القيامة.

فهنيئاً لمن عاد من حجّه وهو من التوابين المتطهرين، يقيظ شعوره برقابة الله على أعماله وأقواله، ونما في قلبه شعور الخشية من الله ﷻ وحبّ الخير للناس، والترفع عن الدنيا، والتنزّه عن الرذائل والخطايا.

دعاء

فلا تدعنا لزلّاتٍ مُلازمةٍ وهب لنا يا إلهي حسنَ خاتمةٍ

والحمد لله في الأولى والآخرة،
والصلاة والسلام على عبده ونبيّه وخاتم رسله؛ محمد بن عبد الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه.

الفردوس الأرضي

دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية

صدر حديثاً

نُشر هذا الكتاب مرّة واحدة عام ١٩٧٨م في بيروت، ولم يُنشر ثانية، برغم أهميته الفائقة في إلقاء الضوء على مرحلة فارقة في حياة مؤلفه العلامة، وتطوّره الفكري. فهذا الكتيب عظيم القيمة، برغم صغر حجمه؛ يطوي كلّ مقولاته الرئيسية التي بُني عليها مشروعه الفكري العملاق، الذي تتلمذ عليه جيلٌ كاملٌ من الشباب العربي.

في هذا الكتاب يستخدم الأستاذ كل أدواته لتحقيق خلاصه الروحي: النقد الأدبي، والتحليل الماركسي، وبقايا تعاليم التدين السوسولوجي الذي خرج به من دمنهور، وفطرته الإنسانية؛ يستخدمها جميعاً بإخلاص وحرارةٍ بارعين. فلا يرفض المادية فقط، بل يرفض كلّ تجلياتها، وأخطرها: الطوبيا؛ أو الفردوس الأرضي كما يُسميها. يرفض أي خلاص دنيوي نهائي يُقوّض الإنسان. يرفض أي فردوس برّاني في هذا العالم؛ فالفردوس الأرضي الحقيقي ليس برّانياً أبداً، بل هو فردوس جواني: "الفردوس القلبي"، الذي اكتشفه المسييري مع مالكوم إكس؛ فردوس الإيمان.

لقد عبّر عبد الوهاب بهذا الكتاب من المادية إلى الإنسانية والإسلام. فمِمّا ذكره رحمه الله في سيرته؛ أن مالكوم إكس كان دليلاً للإسلام، ومن يقرأ الفصل الذي عقده الأستاذ عن الحاج مالك الشباز (مالكوم إكس)؛ فسيُدرك كيف كان مالكوم الأمريكي هو مدخل عبد الوهاب العربي إلى الإسلام!

وإذا كانت سيرة المسييري الفكرية تتبع ولادة أفكاره ومنهجه، وكانت سيرته الشعرية ترسم تحولات وجدانه، فإن هذا الكتاب -ربّما بغير قصد- يجمع بين السيرة الفكرية والشعرية. إنه لوحةٌ امتزج فيها الفكر والشعور في لحظة تحوّل إنسانيّ فذّة. إنه كتابٌ كُتب بنور القلب ومداد العقل معاً.



طير بلا أجنحة

مجموعة قصصية

قريباً

”كان الناقد والأديب المصري المعروف سُكري عياد يرى في فعل الكتابة؛ وقاحة! أما أستاذنا علي عزّت بيغوفيتش، رأى فيها غروراً واضحاً؛ إذ ما الذي قد يجعل كاتباً يعتقد أن الناس بحاجة لمعرفة رأيه في شأنٍ من الشؤون! ورغم ذلك كله، فقد خلف كلاهما من النصوص المكتوبة الشيء الكثير؛ ذلك أنه لا شيء غير الكتابة يُشبع “أنا” الكاتب الأديب! فالكاتب هو شخصٌ يمتلكُ حدّاً أدنى من اليقين، ولو كان يقيناً لا شعورياً أو حتّى سلبياً ومدمراً؛ حدّاً أدنى يدفعه للإقدام على ذلك الفعل مجانِباً التواضع بصورةٍ لا شعوريةٍ؛ طالباً إلى العالم الانتباه لشهادته!“

من مقدّمة الكتاب



عبد الرحمن أبو ذكري

عبد الرحمن أبو ذكري؛ أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلد بالقاهرة، وتخرّج في كلية الآداب بجامعة. نشر عدة مقالات وأوراقاً بحثية في موضوعاتٍ متنوعة؛ تصُب جميعاً في استعادة مركزية الوعي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مهتمٌ بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتداداً لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشّنها سيّد قطب، ورَسَخها علي عزّت بيغوفيتش، وأثراها عبد الوهاب المسيري. نشر له كتاب: «أفكار خارج القفص»، وله عدة كتب في طريقها للطبع؛ منها: «في أصول التصوّر الإسلامي»، وترجمة آثار الدكتور سليم صديقي.

الطريق إلى مكة

سيرة عقل
يبحث عن الإيمان

قريباً

هذه بعض فصول سيرة رحالة يهودي أوروبي من أصل نمسوي. جاب العالم العربي والإسلامي في مطلع القرن العشرين بحثاً عن الذات، أو بحثاً عن الله. فقد وجد الله حين وجد ذاته. حين وجد ذاته الفطرية الأصلية، وليست تلك التي اكتسبها بالتنشئة.

إن هذا الكتاب ليس سرداً لوقائع رحلة حج إلى البيت الحرام، ولا حتى تأملاً في رمزيّتها وروحانيّتها وفلسفتها، بل هي بعض معالم رحلة البحث التي قطعها ليوبولد فايس ليصل إلى الله، أو ليصل إلى محمد أسد؛ سيّان. إذ أن ليوبولد فايس قد صار محمد أسد حين عبّد نفسه لله مُختاراً، عن وعي وإدراك وإرادة.

إن الطريق إلى مكة رمزٌ للرحلة الشاقة التي قطعها الكاتب من اليهودية إلى الإسلام، ومن ليوبولد فايس إلى محمد أسد، ومن أوروبا إلى مكة. إنها وقائع رحلة عودة قلبٍ إلى حقيقة فطرته، رحلة انسلخ فيها فايس رويداً رويداً من كل موروثة الحضاري والثقافي، ليُقبل على عالم جديد، ويكتشفه بلا مُعطيات مُسبقة تشوّش عليه.

وبرغم أن أسد قد نشر كتابه هذا في مطلع خمسينات القرن العشرين، باللغة الإنكليزية؛ موجّهاً بالأصل للقارئ الغربي، إلا أن الكتاب قد صار برغم ذلك أحد أهم كلاسيكيات القرن العشرين، فهو عملٌ لا تبلى جدّته، ولا تُملُّ قراءته.

إن أحوج الناس لقراءة هذا الكتاب اليوم هم الجمهور الذين لم يستهدفهم أسد: جماهير العرب والمسلمين. وفي طيات الكتاب يكمن ما يكفي من الأسباب، التي يلزمك تلمسها بنفسك قارئنا العزيز.



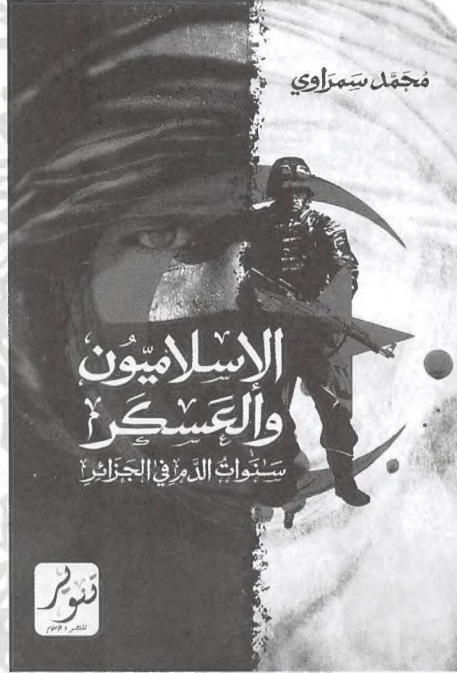
الإسلاميون والعسكر

شهادة ضابط مخابرات جزائري

قريباً

هذا الكتاب وثيقة غاية في الخطورة؛ فمؤلفه ليس مجرد شاهد عيان، بل هو فاعل أصيل وجزء لا يتجزأ من روايته، وربما كان هذا -ينظر البعض- دافعاً لردّ شهادته التاريخية، إمّا باعتباره موقوراً، أو باعتباره جزءاً من الواقع التاريخي المعاصر؛ ومن ثمّ فهو ما زال محجوباً بحجاب المعاصرة، وغير قادر على تجاوز التجربة للحكم عليها.

وهذا كله مردود عليه بأن أهمية الشهادة التي يضمها هذا الكتاب تتجاوز قيمتها السردية المباشرة إلى ما وراء ذلك بكثير؛ إلى الأنماط التي يمكن تجريدها منها، فهذه الشهادة تصلح كنواة لنموذج تفسيري لعلاقات العسكر والإسلاميين، فيما بين المحيطين، وذلك منذ بدء حقبة الانقلابات العسكرية أواخر الأربعينيات. وإذا كان تاريخ الحركات الإسلامية ما بين السبعينيات والتسعينيات لم يكتب بشكل جاد بعد، فإن هذا الكتاب يمكن اعتباره توثيقاً لنمط متكرر وبارز، لا يمكن بدونه فهم علاقات الإسلاميين والعسكر في الثلث الأخير من القرن العشرين.



وبهذا المنظور، فالكتاب ليس فقط تأريخاً لما سُمّي بالعشرية الحمراء في الجزائر، ولا هو عن جبهة الإنقاذ التي انقلب عليها "جنرالات فرنسا" فحسب، ولا هو مخصص لأزمة الإسلاميين مع الممارسة الديمقراطية، بل هو فوق كل ذلك، وقبله وبعده؛ عن علاقة الإسلاميين بالعسكر.

محمد سمرأوي

ضابط مخابرات جزائري سابق، شغل وظائف عدّة بأجهزة أمنية مختلفة في الفترة ما بين عام ١٩٧٨ وحتى استقالته من منصبه عام ١٩٩٦ احتجاجاً على جرائم النظام الحاكم التي ارتكبت بعد انقلاب العسكر على الديمقراطية (عام ١٩٩٢). وهو لاجئ سياسي في ألمانيا منذ استقالته، وقد أسس حركة "رشاد" المعارضة للنظام الجزائري في عام ٢٠٠٧.

بناء شبكات الاعتدال الإسلامي

سلسلة تقارير مؤسسة راند

قريباً

تُعتبر مؤسسة راند أحد أهم مراكز الدراسات الاستراتيجية الأمريكية، ويعدّها البعض العقل الاستراتيجي الأمريكي. وهي الذراع البحثي شبه الرسمي للإدارة الأمريكية، والبتاغون بوجه خاص. وفي إطار الجهود الأمريكية لإعادة رسم الخريطة السياسية والاقتصادية للعالم الإسلامي بعد 11 سبتمبر 2001؛ صدرت هذه الدراسة، استكمالاً لسابقتها التي صدرت ترجمتها العربية عن نفس الناشر؛ بعنوان: الإسلام الديمقراطي المدني.

يرى المؤلفون أن التاويلات الدوغمانية والرايكيالية للإسلام قد اكتسبت شعبية في العديد من المجتمعات المسلمة، وذلك من خلال شبكات الإسلاميين التي تغطي بلدان المسلمين وتجمعاتهم المهاجرة إلى أميركا الشمالية وأوروبا. وبرغم أن المعتدلين أغلبية في العالم الإسلامي؛ إلا أنهم لم يَطُورُوا شبكات ماثلة أو منابر لتحمل رسائلهم، وتكفل لهم الحماية عند استهدافهم.

وبخبرتها المعتبرة في بناء ودعم وتمويل شبكات من الأفراد المؤمنين بالأفكار الحرة والديمقراطية خلال الحرب الباردة، فإن الولايات المتحدة ترى من واجبها الاضطلاع بدورٍ محوريٍّ في تقديم الدعم للمسلمين "المعتدلين". ومؤلفو الكتاب يقبسون الدروس من تجربة بناء الولايات المتحدة للشبكات الحليفة إبان الحرب الباردة، ويسعون لتقييم مدى موافقتها للوضع الحالي في العالم الإسلامي، ومن ثمّ تقييم فعالية خطط وبرامج الحكومة الأمريكية في التعامل مع العالم الإسلامي، وتطوير "خارطة طريق" تؤدي لإنشاء شبكات اعتدال إسلامي.

وهذه الدراسة موجهة بالأصل لصانع القرار الأمريكي؛ لاستكمال البُعد المعرفي للسياسات الأمريكية في مواجهة التطرّف الإسلامي. فهي توفّر لواقع سياسي، ولا تستبقي بالتظليل. فيجب قراءتها في هذا السياق، والانتباه إلى أن المصطلح المستخدم ليس مُطلقاً؛ بل هو يُعبّر عن رؤيةٍ مُحتَزة بطبيعتها لإمبريالية معرفية، تسعى لتشكيل الآخر المسلم وفقاً لتصوراتها الخاصة، والتي تُسبغ عليها مُطلقية معرفية وإنسانية.



الفكر السياسي الإسلامي المعاصر حميد عنایت

قريباً

أهم ما كُتِبَ في موضوعه
في النصف الثاني من القرن العشرين

تُمثِّلُ الصَّحوةُ الإسلاميَّةُ، والثَّورةُ الإيرانيَّةُ كأحد محطاتها الرئيَّسيَّةُ؛ حالة مُركَّبة ومعقَّدة غيَّرت مَعَالِمَ المشهد السياسي في العالم الإسلامي بشكل جذري. وفي هذا الكتاب؛ يتتبع حميد عنایت الأفكار الرئيَّسيَّة التي غَدَّت المشهد الجديد وساهمت في تشكيله، فيوصِّفُ ويُفسِّرُ ويحلِّلُ الإنتاجَ الفكري الذي طوره الإيرانيون والمصريون بشكل رئيسيٍّ؛ جنباً إلى جنبٍ مع أفكار بعض مُنظِّري الباكستان والهند ولبنان وسوريا والعراق.

كما يتناول الفروق السياسية الرئيَّسيَّة بين السنة والشيعة بالدرس، ويرصد مراحل تطور أفكارهما التي نقلت المدرستين، ربُّماً بغير وعي؛ من مرحلة المواجهة إلى التلاقي على الأرضيَّة النظرية. ثم يختبر مفهوم الدولة الإسلامية في سياقاته، ورد فعل المسلمين على التحدي الذي مثَّله الأيديولوجيات المستوردة مثل القومية والديمقراطية والاشتراكية، ويختم بتجريد الإطار النظري الذي تمخَّض عن تجديد الفكر السياسي الشيعي، وهو الجانب الذي يتم تجاهله في الأدبيات الغربية والعربية على حدٍّ سواء.

ولهذا الكتاب مزيَّتين رئيسيَّتين قلَّ نظيرهما في غيره، وربُّماً كانا أحد حسنات رؤية المؤلف العلمانيَّة. فهو لم يُبدد جهده في إثبات أن السلطة السياسيَّة جزء لا يتجزأ ومكوِّن أصيل من مكونات الإسلام؛ على غرار ما فعل أكثر الإسلاميين الذين كتبوا في هذا الموضوع. كما كان في طرحة أكثر نُضجاً من أن يؤصِّل لفصل الإسلام عن المجال السياسي؛ كما يفعل

الكتاب العلمانيون. بل تجاوز هذا وذاك؛ فتعامل مع لزوم السلطة السياسية للإسلام كمُسلَّمة بدهيَّة لا تستحقَّ عناء الإثبات أو النفي، وسعى لدراسة تجلَّياتها المختلفة.

أما المزية الثانية، فهي أنه تكاد لا تظهر خلفيَّة الكاتب المذهبيَّة في طرحة، والذي غلبت عليه اللغة الأكاديميَّة والاضطراد المنهجي، بغض النظر عن النتائج التي قد يصل إليها هذا الإخلاص في البحث. ولذا أثمر جهد عنایت وجدَّيته الملحوظة عملاً يعتبر أبرز الكلاسيكيات في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر بعد عمدة الكتب في هذا الموضوع؛ كتاب محمد ضياء الدين الرئيس: "النظريات السياسية الإسلامية"، والذي نُشر في أربعينيَّات القرن العشرين.

هذا كتاب لا يتقصه وضوح الرؤية وإحكام الطرح ولا جدية القراءة للفكر السياسي الإسلامي المعاصر، وهو ما يجعل منه سفرًا لا غنى عنه لدارسي الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، وللمثقفين الجادِّين.

حميد عنایت

الفكر السياسي
الإسلامي المعاصر

نور
نشر و توزيع

من إصداراتنا

